ذلك أن المؤمن في الآخرة يذكر مُعْطيات الأشياء ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً : فَرُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُّك ، والحق سبحانه هو القائل في موقع آخر :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا[1] حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا .. (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

وقد يكون لك أخ لا تكرهه ولا تحقد عليه ؛ ولكنك لا تُجالسه ولا تُسامره ؛ لأن الأخوة أنواع[2] . وقد تكون أخوة طيبة ممتلئة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر ، ويجمعكم الحق سبحانه في الآخرة على سُرُر متقابلين .

وسأل سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما في الجنة أعلى من منزلة الآخر ؟ ونقول : إن فَضل الحق المطلق يرفع منزلة الأدْنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان في الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ[3] إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) ﴾ [الانشقاق]

---

(١) شفا الشيء : حرْفه وطرَفه . شفا كل شيء : حرْفه . وأشفى على الشيء : أشرف عليه . [لسان العرب ـ مادة : شفى] .

(٢) يفهم من خواطر الإمام أن الأخوة إما أخوة نسبية ، وإما أخوة إيمانية ، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب حيث يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. (١٠) ﴾ [الحجرات] فكل مؤمن أخ ، وليس كل أخ مؤمناً .

(٣) الكَدْح : هو السعي والحرص والدؤوب في العمل . كدح الرجل : جَدَّ وكَدَّ في العمل وبذل فيه جهداً كبيراً . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

ولكن الحال فى الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ[1] وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وحياتُكَ فى الآخرة - إنْ أصلحتَ عملك وكنتَ من المؤمنين - تختلف عن حياتك فى الدنيا ؛ فأنت تعلم أنك فى الدنيا تَحْيا مع أسباب الله المَمْدودة لك ؛ وتضرب في الأرض من أجل الرزق ، وتجتهد وتتعب من أجل أنْ يهبكَ اللهُ ما فى الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المُفْلحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق جل عُلاه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

[البقرة]

وشاء الحق سبحانه أن يأتى بلفظ المُفْلِح كصفة للمؤمن فى الجنة ، لأن المؤمن قد حرثَ الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيمَ منهج الله فى الأرض ، ونصَبَ قامته ، ونعلم أن نَصْب القَامَة يدلُّ على أن مَنْ يعمل قد أصابه التعب ، وذلك فى الحياة الدنيا .

أما فى الجنة ، فيقول الحق :

﴿ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) النصب : الإعياء والتعب والمشقة والأذى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٥٣) .

أى : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجون من الجنة ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تكلَّم سبحانه عن الغَاوين ، وقد كانوا أخلاَّء فى الدنيا يمرحُون فيها بالمعاصى ؛ وهم مَنْ ينتظرهم عقابُ الجحيم . وتكلَّم عن العباد المُخلصين الذين سيدخلون الجنة ؛ ومنهم مَن اختلفتْ رُؤَاه فى الدنيا ، ولم يربط بينهم تآلفٌ أو محبّة ؛ لكنهم يدخلون الجنة ، وتتصافَى قلوبهم من أىِّ خلاف قد سبق فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته ؛ ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ]

وقال سبحانه أيضاً عن هذا النبأ :

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص]

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة وما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذى يختصُّ به عباده المخلصين المُتقين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتَّعون بخيْراتها خالدين فيها .

ولقائل أنْ يسأل : أليستْ المغفرة تقتضى ذَنْباً ؟

ونقـول : إن الحق سـبحـانه خلقنا ويعلم أن للـنفس هواجسَ ؛ ولا يمكن أنْ تسلمَ الـنفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسـوسـة ؛ بدليل أنه سبحانه قد حَرَّم الكثير من الأفـعال على المسلم ؛ حماية للفرد وحمايةً للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع فى الاستقرار الآمن .

فـقد حـرَّم الحق سـبحـانه على المـسلم السـرقة والزِّنَا وشُرْب الخمر ، وغيرها من المُوبقات[1] والخطايا ، والهواجس التى تقوده إلى الإفساد فى الأرض ، وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعنى أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يُلزِم كل المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضِّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المـؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألاَّ يُؤرِّق نفسه بتلك الـغفلات ؛ فسبحانه رءوفٌ رحيم .

ونحن حين نقـرأ العربية الـتى قد شرَّف اللهُ أهلَهـا بنزول القرآن بها ، نجد أقسامَ الكلام إما شعْـراً أو نَثْراً ، والشعر له وَزْن وقافية ، وله نَغَم وموسـيقى ، أما النثـر فليس له تلك الصِّفـات ، بل قد يكون مَسْجوعاً أو غَيْرَ مسجوع .

وإنْ تكلمتَ بكلام نـثرىٍّ وجـئْتَ فى وسطه ببيت من الشـعـر ، فالذى يسمـعك يُمكنه أن يلحظ هذا الفارقَ بين الشعـر والنثر . ولكن القـرآن كلامُ ربٍّ قـادر ؛ لذلك أنت تجـد هذه الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنها وتقرؤها وكأنها بَيْتٌ من الشعر فهى موزونة مُقفَّاة :

---

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وأوبقه : أهلكه . [لسان العرب ـ مادة : وبق] .

« نَبِّىء عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفورُ الرَّحِيمُ »

ووزنها من بَحْـر المُجْتث[1] . ولكنها تأتى وَسْطَ آيات من قـبلها ومن بعدها فـلا تشعـر بالفارق ، ولا تشـعر أنك انتقلتَ مـن نثرٍ إلى شعر ، ومن شـعر إلى نثر ؛ لأن تضامن المعـانى مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية :

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾

وهكذا يكتـمل النبأ بالمـغفرة لِمَـن آمنوا ؛ والعذاب لِمَنْ كـفروا ، وكـانوا من أهل الغـواية . ونلحظ أنه سبحـانه لم يُشـدِّد فى تأكيـد العذاب ، ذلك أن رحمته سبقتْ غضبه ، مصداقاً لقوله ﷺ :

« إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعـاً وتسعيـن رحمةً ، وأرسل فى خَلْقـه كلِّهم رحمـةً واحدةً ، فلو يعلم الكـافـر بكل الذى عند الله من الـرحـمـة لم ييـئس من الجنة ؛ ولو يـعلم المـسلـم بكل الذى عـند الله من العـذاب ؛ لم يأمـن من النار »[2] .

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْل الحق سبحانه :

---

(١) سمى هذا البحر بالمجتث : لأنه مجتث أى مقتطع من بحر الخفيف بتقديم (مستفعلن) على (فاعلاتن) ، ولم يستعمل إلا مجزوءاً . وله عروض واحدة صحيحة تقطيعه : مستفع لن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن انظر كتاب (فى علمى العروض والقافية) - د. أمين على السيد - طبعة دار المعارف ١٩٨٢م .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٩) ، وأخرج مسلم بعضه فى صحيحه (٢٧٥٥) كتاب التوبة ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⟨٦⟩ ﴾ [الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نبَّهتا إلى مَقَامى الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما ، وألاَّ يُؤجِّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصى ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول الحديث :

« لمَّا قضى الله الخَلْق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[1] .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية فى الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسِّية واقعية تُوضِّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويعطيه البُشْرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزِل بأهله العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ⟨٥١⟩ ﴾

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقِرًى[2] أو استئناس ، ويُسمُّونه « المُنْضَوِى » لأنه ينضوى إلى غيره لطلب القِرَى ، ولطلب

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) ، والبخارى فى صحيحه (٣١٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى لفظ : « غلبت » .

(٢) قرى الضيف قرىً وقراء : أضاف . واستقرانى : طلب منى القرى . والقِرى : طعام الأضياف . [لسان العرب ـ مادة : قرى] .

الأمن . ومن معاني المُنْضوى أنه مالَ ناحية الضَّوْء .

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم ، ولكنهم يُعلنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير فى الطريق ليهتدى إليهم .

وكلنا قرأنا ما قاله حاتم الطائى للعبد الذى يخدمه :

أوْقِد النَّارَ فإنَّ الليْلَ لَيْل قُرّ[1]
والرِّيحُ يَا غُلامُ رِيحٌ صِرّ[2]
إنْ جلبت لنَا ضَيْفاً فأنت حُر

وهكذا نعرف أصلَ كلمة انضوى . أى : تَبِع الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرد يُطلَق على المفرد والمُثنّى والجمع ، إناثاً أو ذكوراً ، فيُقال : جاءنى ضيف فأكرمته ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتهما ، وجاءنى ضيف فأكرمتهم ، وجاءنى ضيف فأكرمتهُنَّ .

وكلٌّ ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون « ضيف » على « أضياف » ؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضيفان » .

ولننتبه إلى أن الضيفَ إذا أُطلِق على جَمْع ؛ فمعناه أن فرداً قد

---

(١) القر : البرد . والقَرُّ : اليوم البارد . وكل بارد : قُر . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

(٢) الريح الصر والصرصر : الشديدة البرد ، والشديدة الصوت العاصفة . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتْهَا جماعة أخرى نقول : وجاءت ضيف أخرى .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نعلم أنهم ليسوا ضيفاً من الآية التى تليها ؛ التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ونلحظ أن كلمة (سلاماً) جاءت هنا بالنَّصْب ، ومعناها نُسلِّم سلاماً ، وتعنى سلاماً متجدداً . ولكنه فى آية أخرى يقول :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات]

ونعلم أن القرآن يأتى بالقصة عَبْر لقطات مُوزّعة بين الآيات ؛ فإذا جمعتَها رسمَتْ لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجد الحق سبحانه هنا لا يذكر أن إبراهيم قد رَدَّ سلامهم ؛ وأيضاً لم يذكر تقديمه للعجل المَشْوِيّ لهم ؛ لأنه ذكر ذلك فى موقع آخر من القرآن[1] .

إذن : فمنْ تلك الآية نعلم أن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السلام ، وجاء هذا السلام مرفوعاً ، فلماذا جاء السلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها منصوباً ؟

أى : قالوا هم : ﴿ سَلَٰمًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحجر]

وكان لا بُدَّ من رَدٍّ ، وهو ما جاءتْ به الآية الثانية :

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود] .

﴿قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ (٢٥) [الذاريات]

والسلام الذى صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتجدِّد ؛ بينما السلام الذى صدر منه جاء فى صيغة جملة اسمية مُثْبتة ؛ ويدلُّ على الثبوت .

إذ كان رَدّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة ؛ لأنه يُوضِّح أن أخلاق المنهج أنْ يردُ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها ؛ لا أنْ يردّها فقط ، فجاء ردُّه يحمل سلاماً استمرارياً ، بينما سلامُهم كان سلاماً تجددياً ، والفرق بين سلام إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسلام الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتى من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٥٢) [الحجر]

وجاء فى آية أخرى أنه :

﴿وَأَوْجَسَ[1] مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴾ (٧٠) [هود]

وفى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ (٢٥) [الذاريات]

فلماذا أوجسَ منهم خِيفة ؟ ولماذا قال لهم : إنهم قوْم مُنْكَرون ؟ ولماذا قال :

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه . وأحس بالفزع . [القاموس القويم ٢/٣٢٩] .

﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر]

لقد جاءوا له دون أن يتعرّف عليهم ، وقدّم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه كما قال الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ[1] وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود]

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قدم ضيْفاً وقُدِّم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلى المرء ألاّ يتوقع منه الخير ؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين علم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط ؛ وطمأنوه بالخبر الطيب الذى أرسلهم به الله اطمأنتْ نفسه ؛ وفى ذلك تأتى الآية القادمة :

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ[2] إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وهدّأتْ من رَوْعه ، وأزالتْ مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام[3] سيصير إلى مرتبة أن يكون كثير العِلْم .

---

(١) نكر الشيء نكْراً ونُكْراً : جهله . نكره : جهله واستوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴿٧٠﴾﴾ [هود] أى : استوحش منهم لأنه لم يعرف حقيقتهم . [القاموس القويم ٢/٢٨٥] .

(٢) الوجل : الفزع والخوف . [لسان العرب ـ مادة : وجل] .

(٣) المقصود بالغلام هنا هو إسحاق عليه السلام . قال تعالى : ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٥٢) : « من ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يُولَد له بعد يعقوب الموعود بوجوده » .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثير ، فيقول ما ذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ونعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - يخلق الخَلْق على أنحاء مُتعدِّدة ؛ حتى يعلمَ المخلوق أن خَلْقه لا ضرورة أن يكونَ بطريقة محددة ؛ بل طلاقة القدرة أن يأتي المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولَد الولد من أبٍ وأم ؛ ذكرٍ وأنثى . أو بدون الأمرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثُمَّ خلق حواء من ذكر فقط ، وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً ﷺ من ذكر وأنثى .

وفي الآية التي نحن بصددها نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبشِّرونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكِبَر ، في قوله تعالى :

﴿ عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر]

يعني أن « على » هنا جاءت بمعنى « مع » أي : أنه يعيش مع الكِبَر ؛ ويرى أنه من الصعب أنْ يجتمعَ الكِبَر مع القدرة على الإنجاب .

وأقول دائماً : إن كلمة (على) لها عطاءاتٌ واسعة في القرآن الكريم ، فهي تترك مرة ويأتي الحق سبحانه بغيرها لتؤدي معنًى مُعيناً ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

والصَّلْب إنما يكون على جذوع النخل ؛ ولكن الحق سبحانه جاء بـ (فى) بدلاً من (على) ليدلَّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ، بحيث تتداخل الأيدى والأرجل المَصْلوبة فى جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر]

أى : أتُبشِّروننى بالغلام العليم مع أنِّى كبير فى العمر ؛ والمفهوم أن الكِبَر والتقدُّم فى العمر لا يتأتَّى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تأتى « على » بمعنى « مع » . أى : كيف تُبشِّروننى بالغلام مع أنِّى كبير فى العمر ، وقد قال قولته هذه مُؤمِناً بقدرة الله ؛ فإبراهيم أيضاً هو الذى أورد الحق سبحانه قَوْلاً له :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

وكأن الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتى رَدُّ الملائكة على إبراهيم خليل الرحمن :

﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وكأن الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكنَّا نُبلغك ببشارة شاءها الله لك ؛ فلا تكُنْ من اليائسين .

ونفس القصة تكررتْ من بعد إبراهيم مع زكريا ـ عليه السلام ـ فى إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا رَبَّه أن يهبَه غلاماً :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم]

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال زكريا لربه :

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم]

وإن شئت أن تعرفَ سِرَّ عطاءات الأسلوب القرآني فاقرأ قَوْلَ الحق سبحانه رداً على زكريا :

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا[1] لَهُ زَوْجَهُ.. ۝٩٠﴾ [الأنبياء]

ولم يَقُلِ الحق سبحانه أصلحناكم أنتم الاثنين ؛ وفي ذلك إشارة إلى أن العطبَ كان في الزوجة ؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر ، ولكن قدرةَ المرأة على أن تحملَ مُحدَّدة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : ﴿وَوَهَبْنَا.. ۝٩٠﴾ [الأنبياء]

نجد أنها تُثبت طلاقةَ قدرة الله سبحانه فيما وَهَب ؛ وفي إصلاح مَا فسد ؛ فسبحانه لا يُعْوِزه شيء ؛ قادر جَلَّ شأنه على الوَهْب ؛ وقادر على أن يُهيِّئَ الأسباب ليتحققَ ما يَهبه .

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد ، فولدت . [تفسير ابن كثير ١٩٢/٣] وأصلح الأمر إصلاحاً : أزال فساده . [القاموس القويم ٣٨١/١] .

﴿ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ.. (٥٥) ﴾ [الحجر]

أى : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة ؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :

﴿ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) ﴾ [الحجر]

ويأتى الحق سبحانه بما رَدَّ به إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ[1] مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾

وهنا يعلن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه لم يقنط من رحمة ربه ؛ ولكنه التعجب من طلاقة القدرة التى توحى بالوحدانية القادرة ، لا لذات وقوع الحَدث ؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففى كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم عِلْم اليقين طلاقة قدرة الله ؛ فقد سبق أن قال له :

﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

ولنلحظ أنه لم يسأله « أتحيى الموتى » ، بل كان سؤاله عن الكيفية التى يُحْيِى بها الله المَوْتى ؛ ولذلك يسأله الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن.. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

وكان رَدّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) القنوط : اليأس . وفى التهذيب : اليأس من الخير . [لسان العرب ـ مادة . قنط] .

وحدثتْ تجربة عندما أُمر إبراهيم بأن يأخذ[1] أربعة من الطير ثم يقطعهن ويلقى على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً ، لذلك فلم يكُنْ إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التي يُجرِي الله بها رحمته .

ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زَوْجه سارة ؛ إذ إن الحق سبحانه قد قال في سورة هود :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي[2] شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

وهكذا نجد أن القرآن يُكمل بعضُه بعضاً ؛ وكل لَقْطة تأتي في موقعها ؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .

وهنا في سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم - عليه السلام - للملائكة التي حملتْ له بُشْرى الإنجاب عن المُهمّة الأساسية لمجيئهم ، الذي تسبَّب في أن يتوجَّس منهم خيفة ؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارة بالغلام ؛ لأن البشارةَ يكفي فيها ملَكٌ واحد .

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فعمد إبراهيم إلى أربعة من الطير ، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهنَّ ، كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً . [ذكره ابن كثير في تفسيره ١/٣١٥] .

(٢) البعل : الزوج والزوجة . قال الأزهري : سمي زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . باعل القوم قوماً آخرين مباعلة : تزوّج بعضهم إلى بعض . [لسان العرب - مادة : بعل] .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المُهِمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذى سأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : ما هو الأمر العظيم الذى جئتم من أجله ؛ لأن الخَطْب هو الحَدث الجلل الذى ينتاب الإنسان ؟ وسُمِّى خَطْباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به ، وكلما التقتْ جماعة من البشر بجماعة أخرى فَهُمْ يتحدثون فى هذا الأمر .

ولذلك سُمِّيتْ رغبة الزواج بين رجل وامرأة وَتَقدّمه لأهلها طلباً ليَدِها « خطْبة » ؛ لأنه أمر جلَل وهَام ؛ ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة ؛ ورآه واحدٌ من أهلها لثَار من الغَيْرة ؛ ولكن ما أن يدقّ البابَ طالباً يدَها ، فالأمر يختلف ؛ لأن أهلها يستقبلون مَنْ يتقدّم للزواج الاستقبالَ الحسن ؛ ويقال : « جدع[1] الحلالُ أنفَ الغَيْرة » .

وهنا قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ للملائكة : ما خَطْبكم أيها المُرْسلون ؟ أى : لأىّ أمر جلَل أتيتُم ؟

ويأتى الجواب من الملائكة فى قول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ونعلم أن كلمة « القوم » مأخوذةٌ من القيام ، وهُم القوم الذين يقومون للأحداث ؛ ويُقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يَقُمْنَ للأحداث ؛ والحق سبحانه هو الذى يُفصِّل هذا الأمر فى قوله :

(١) الجدع : القطع . وقيل : هو القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها . [لسان العرب ـ مادة : جدع] .

﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات]

فلو أن كلمة « القوم » تُطلَق على النساء ؛ لَوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً ؛ وذلك كي نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث ؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها في رعاية أسرتها ؛ فلا تقوم إلا بما يخصُّ هذا البيت .

وهنا أخبرتْ الملائكة إبراهيم - عليه السلام - أنهم مُرْسَلون إلى قوم مُجرمين[1] ؛ وهم قوم لوط الذين أرهقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصي التي أدمنوها .

ولكن الحق سبحانه يستثني آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه :

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)﴾

وهذا استثناءٌ لآل لُوطٍ من المجرمين[2] . والمُجرِم هو المُنقطِع عن الحق ، والجريمة هي الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، وغلب اسم

(١) جرم الشيء جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . وأجرم الرجل : أذنب وعصى وكفر وعاند فهو مجرم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) يقول الفخر الرازي متسائلاً : هل هذا استثناء متصل أو منقطع ؟ يقول صاحب الكشاف : إذا كان هذا الاستثناء من قوم كان منقطعاً : لأن القوم موصوفون بالإجرام وآل لوط ليسوا مجرمين ، فاختلف الجنسان . وهنا يكون الاستثناء منقطعاً ، وإن كان الاستثناء من الضمير في مجرمين كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم (راجع الفخر الرازي في تفسير الآية) .

القوم على الجماعة المُجْرمين ، وهكذا كان الاستثناء من هؤلاء المجرمين . الذين أجرموا فى حق منهج الله ، والقيم التى نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه فى مهمة واحدة .

ثم يأتى استثناء جديد ؛ حيث يقرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه :

﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ[1] ﴾ (٦٠)

ونعلم فى اللغة انه إذا توالتْ استثناءات على مُستثنى منه ؛ نأخذ المُسْتثنى الأول من المُستثنى منه ، والمستثنى الثانى نأخذه من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث نأخذه من المستثنى الثانى .

والمثل أن يقول لك من تدينه « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » أى : أنه أقرَّ بأن لك ستة جنيهات ؛ ولكنك تنظر إليه لعلَّه يتذكر كم سدَّد إليك ؟ فيقول : « لك إلا درهماً » وهكذا يكون قد أقرَّ بسبعة دراهم كَدَيْن ؛ بعد أنْ كان قد أقرَّ بستة ؛ ذلك أنه قال : « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » ، ثم أضاف : « إلا درهماً » .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهات التى قال إنه سَدَّدها لك جنيهاً آخر ؛ وبذلك يكون ما سدده من دين ثلاثة جنيهات ، وبقى عنده سبعة جنيهات .

والحق سبحانه هنا يستثنى امرأة لوط من الذين استثناهم من

---

(١) الغابرون : الباقون المتخلفون فى القرية للهلاك ، أو كانت من الماضين الذاهبين أى من الهالكين . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

قبل للنجاة[1] ، وهم آل لوط ، والملائكة التى تقول ذلك لم تُقدِّر الأمر بإهلاك امرأة لوط ؛ بل هى تُـنفِّذ التقـدير الأعلى ؛ فسبـحانه هو مَنْ قدَّر وأمر :

﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝٦٠ ﴾ [الحجر]

والغابر هنا بمـعنى داخل ؛ أو هو من أسمـاء الأضداد ؛ وهى لن تنجو ؛ لأن مَنْ تقررتْ نجـاتهم سيتركون القرية ؛ وسيهلك مَنْ يبقى فيها ، وامرأة لُوط من الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى إثبات ؛ ومن الإثبات نفى ، فاستثناء امرأة لُوط من الناجين يلحقها بالهالكين .

وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط ـ عليه السلام ـ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ ﴾

وهكذا قال لوط ـ عليه السلام ـ للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد كـان مـشـهـدهم غـايةٌ فى الجـمـال ؛ ويعلم أن قـومـه يُعَـانُون من الغلمانية[2] ، ويحتـرفون الفاحشـة الشاذة ؛ لذلك نجد الحق سبـحانه يقول عن معاملته للملائكة فى موقع آخر من القرآن :

﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ۝٧٧ ﴾ [هود]

---

(١) قال صاحب الكشاف : هذا استثناء من الضمير المجرور فى قوله (لمنجوهم) وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء (راجع الفخر الرازى) .

(٢) الغلمانية : حب إتيان الغلمان والذكران من العالمين . والغُلْمة : شدة الشهوة .

ذلك أن لوطاً علم أن قومه سيطمعون فى هؤلاء المُرْد[1] ، لذلك ما أنْ جاءوه حتى أعلن لهم أنه غَيْر مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه فى صورة شبان تضيء ملامحهم بالحُسْن الشديد ؛ مما قد يُسبِّب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أىّ أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التى يعيش فيها ؛ لذلك أنكرهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظةَ أنْ طمأنوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم :

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ[2] ﴿٦٣﴾ ﴾

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كى يُنزلوا العقابَ بالقوم الذين أرهقوه ، وكانوا يشكُّون فى قدرة الحق سبحانه أنْ يأخذهم أخْذَ عزيز مُقْتدر ، وفى هذا تَسْرية عنه .

ثم يُؤكِّدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : جِئْنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحقِّ سبحانه ؛ فلا مجالَ للشكِّ أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نُبلِّغك به .

---

(١) غلام أمرد . والمرْد : التمليس . وقال ابن الأعرابى : المرَد : نقاء الخدَّيْن من الشعر ونقاء الغصن من الورق . والأمرد : الشاب الذى بلغ خروج لحيته وطَرَّ شاربه ولم تبد لحيته . [لسان العرب ـ مادة : مرد] .

(٢) امترى فى الشيء : شكَّ فيه ولم يستيقن . وتمارى فى الشيء : تشكك فيه . والمرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

ويقولون له من بعد ذلك :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى : سِرْ أنت وأهلك فى جزء من الليل . ومرة يُقَال « سرى » ، ومرة يُقَال « أسرى » ؛ ويلتقيان فى المعنى . ولكن « أسرى » تأتى فى موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدِّية مثل قول الحق :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

وقولهم هنا (أسر بأهلك[1]) هو تعبير مُهذَّب عن صُحْبة النساء والأبناء . ونجد فى ريفنا المصرى مَنْ لا يتكلم أبداً فى حديثه عن المرأة أو البنات ؛ فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكأن اسم المرأة مبنىٌّ على السِّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمورة فى حكم الرجل إلا فى الأمر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكلمة « قِطْع » هى اسم جمع[2] ، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ

---

(١) الأهل هم الذين اتبعوا لوطاً فى منهج الله ، ويخرج من الأهلية امرأته لعصيانها كما نُفيت الأهلية عن ابن نوح بعصيانه . قال الله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

(٢) اسم الجمع هو اسم يدل على الجمع ، ولكنه ليس جمعاً سالماً سلمت فيه بنية المفرد من التغيير ، وليس جمع تكسير ، تغيرت فيه بنية المفرد ، ويفرق بينه وبين مفرده بالتاء ، مثل (تمر) فهذا اسم جمع مفرده (تمرة) ، و (عنب) مفرده (عنبة) ، كذلك قطع هنا اسم يدل على الجمع مفرده (قطعة) ، وليس من أنواع الجموع المعروفة .

بأهله فى جُزْء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذى أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوْه أن يتبعَ أدبار قومه بقولهم :

﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ.. (٦٥) ﴾ [الحجر]

أى : أن يكون فى المُؤخّرة ، وفى ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة .

وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ويرحلون منه ؛ فكل منهم يحمل رَحْلَه على ناقته ؛ وأهله فيها ـ فوق الناقة ـ ويبتدئون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعقِّب » كي يرقُب إنْ كان أحد من القوم قد تخلّف أو تعثّر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويُسمُّون هذا الشخص « مُعقِّب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعقِّباً لأهله والمؤمنين به ؛ لِيحثّهم على السير بسرعة ؛ ثم لِينفذ أمراً آخرَ يأمره به الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ.. (٦٥) ﴾ [الحجر]

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضى أن يكون لوط فى مُؤخّرة القوم ؛ ذلك أن الالتفاتَ يأخذ وَقْتاً ، ويُقلّل من سرعة مَنْ يلتفت ؛ كما أن الالتفاتَ إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التّذكار وأرض المَنْشأ ، وكل ذلك قد يُعطّل حركة القوم جميعهم ؛ لذلك جاء الأمر الإلهى :

﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) ﴾ [الحجر]

أو : أن الحق سبحانه يريد ألاَّ يلتفت أحدٌ خَلْفه حتى لا يشهدَ العذاب ، أو مقدمة العذاب الذى يقع على القوم ، فتأخذه بهم شفقة .

ونحن نعلم قول الحق سبحانه فى إقامة أىِّ حدٍّ من الحدود التى أنزلها :

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. ② ﴾ [النور]

فلو أن أحداً قد التفتَ إلى العذاب ، أو مُقدِّمة العذاب ؛ فقد يحنّ إليهم ، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنب كبير ، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة ؛ ونعلم أن بشاعة الجريمة تبهت ؛ وقد يبقى فى النفس عِظَم ألَمِ العقوبة لحظةَ توقيعها على المُجرم .

أو : أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أنْ يوجد ، ولو التفزيع الذى هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هَوْل هذا العذاب القادم .

وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم ، والكيفية هى أن يكون الخروجُ فى جزء من الليل ، وأنْ يتبعَ لوطٌ أدبارهم ، وألاَّ يلتفتَ أحد من الناجين خَلْفه ؛ ليمضى هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هى الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ[1] هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

(١) دابر الشىء : آخره . وقطع الله دابرهم أى آخر من بقى منهم . [لسان العرب - مادة : دبر] والتعبير كناية عن استئصالهم وإهلاكهم عن آخرهم . فالدابر التابع ، وقطع التابع قطع لهم جميعاً . [القاموس القويم ١/ ٢٢٠] .

وقوله الحق : ﴿ وَقَضَيْنَا.. (٦٦) ﴾ [الحجر]

أى : أوحينا . وسبحانه تكلَّم من قَبْل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط ؛ ثم تكلَّم عن عذاب الكافرين المنحرفين ؛ والأمر الذى قضى به الحق سبحانه أنْ يُبيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطْع الدَّابر هو الخَلْع من الجذور .

ولذلك يقول القرآن :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا.. (٤٥) ﴾ [الأنعام]

وهكذا نفهم أن قَطْع الدابر هو أنْ يأخذَهم الحق سبحانه أَخْذ عزيز مقتدر فلا يُبقِى منهم أحداً . وموعد ذلك هو الصباح ، فبعد أنْ خرج لوط ومَنْ معه بجزء من الليل وتمَّتْ نجاتهم يأتى الأمر بإهلاك المنحرفين فى الصباح .

والأَخْذ بالصُّبح هو مبدأ من مبادىء الحروب ؛ ويُقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ[1] فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يأخذَهم وهُمْ فى استرخاء ؛ ولا يملكون قُدْرة على المقاومة .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

---

(١) الساحة : الناحية والفضاء بين الدُّور . جمعها : ساحٍ وسُوح وساحات . [القاموس القويم ١/٣٣٤] .

﴿ أَنَّ دَابِرَ هَـٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾ [الحجر]

لا يتناقض مع قوله عنهم فى موقع آخر :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ[1] (٧٣) ﴾ [الحجر]

فكان بَدْء الصيحة كان صُبْحاً ، ونهايتهم كانت فى الشروق . وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لُوطٍ من قبل أنْ يبدأ التنفيذ ؛ فهكذا أخبرتْ الملائكة لوطاً بما سوف يجرى .

ويعود الحق سبحانه بعد ذلك إلى قوم لوط الذين لا يعرفون ما سوف يحدث لهم ، فيقول سبحانه :

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ (٦٧) ﴾

وعندما علم أهل المدينة من قوم لُوطٍ بوصول وَفْد من الشبان الحِسَان المُرْد عند لوط جاءوا مُستبشرين فَرِحين . وكان حُسْنهم مضربَ الأمثال ؛ وكان كُلاً منهم ينطبق عليه قَوْله الحق عن يوسف عليه السلام :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف]

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) ﴾ [الحجر]

---

(١) مشرقين : وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس : أى : أضاءت . وأشرق القوم : أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٦٥] .

يجمع لقطات مُركّبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ، وكانوا يستبشرون بفعله ويفْرحون به ؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ(١) عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾
[المائدة]

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يَحيق بهم ؛ وأراد أنْ يجعلَ بينهم وبين فِعْل الفاحشة مع الملائكة سدّاً ؛ فهم في ضيافته وفي جواره ، والتقاليد تقضي أنْ يأخذَ الضيف كرامة المُضِيف ، وأيّ إهانة تلحق بالضيف هي إهانة للمُضيف ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط :

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ (٦٨) ﴾

والفضيحة هي هَتْك المساتير التي يستحيي منها الإنسان ، فالإنسان قد يفعل أشياءَ يستحي أنْ يعلمها عنه غيره . والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يطلب منا أن نتخلّق بخُلُقه ؛ جعل من كُلّ صفات الجمال والجلال نصيباً يعطيه لخَلْقه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتي بمقابل لها ؛ فهو قد قال مثلاً « الضّارّ » ومقابلها « النافع » . وقال « الباسط » ومقابلها « القابض » وقال « المُعِزّ » ومقابلها « المُذِلّ » . ومن

---

(١) تناهوا عن الأمر وعن المنكر : نهى بعضهم بعضاً . فكان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه ، فاستحقوا اللعنة . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

أسمائه « الستار »[1] ولم يَأْتِ بالمقابل وهو « الفاضح » ؛ لماذا لم يَأْتِ بهذا المقابل ؟

لأنه سبحانه شاء أنْ يحميَ الكون ؛ لكي يستمتع كُلّ فَرْد بحسنات المُسِيء ؛ لأنك لو علمتَ سيئاته قد تبصُق عليه ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يستر المُسيء ، ويُظهر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهاهم عن الاقتراب الشائن من ضيوفه :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾

أي : ضَعُوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية ؛ ولا تكونوا سبباً في إحساسي بالخِزْي والعار أمام ضيوفي بسبب مَا ترغبُون فيه من الفاحشة .

والاتقاء من الوقاية ، والوقاية هي الاحتراس والبعد من الشر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

أي : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ، بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فِعْل المحذور طريق إلى النار ،

---

(١) قال القرطبي في « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » (١/١٦٧) : « من أسماء الله الستار والساتر . هذان الاسمان لم أر من ذكرهما ، ولا من جعلهما في عداد الأسماء ، إلا أن الفعل منهما وارد في غير ما حديث ، منها حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » خرجه مسلم » .

والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم - والقرآن كله كلام الله .

يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ..(١٩٤) ﴾ [البقرة]

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ..(١٣١) ﴾ [آل عمران]

كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى ، وإن فعلتَ المأمورات ، ورضيتَ بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تَمادَوْا فى غِيِّهم وقالوا ما أورده الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ ﴾

أى : ألَمْ نُحذِّرك من قَبْل من ضيافة الشبان الذين يتميَّزون بالحُسْن ، ولأنك قُمْتَ باستضافة هؤلاء الشباب ؛ فلا بُد لنا من أنْ نفعلَ معهم ما نحب من الفاحشة ، وكانوا يتعرَّضون لكل غريب بالسوء .

وحاول لوط أن ينهاهم قَدْر استطاعته ؛ ولكنهم رفضوا أنْ يُجِير ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا فى الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شىء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أنْ يُثنيهم عن ذلك بأن قال لهم ، ما جاء به الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

أى : أنكم إنْ كُنتم مُصرِّين على ارتكاب الفاحشة ؛ فلماذا لا تتزوجون من بناتى ؟ ولقد حاول البعضُ أن يقولوا : إنه عرض بناته عليهم ليرتكبوا معهنَّ الفاحشة ؛ وحاشا لله أن يصدر مثل هذا الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

﴿ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِى.. ﴿٧١﴾ ﴾ [الحجر]

أى : أنه تحدث عن جمع كثير ؛ ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرْنَ من بناته[1] .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يُوضّح ذلك فى آية أخرى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء]

أى : أن لوطاً أراد أنْ يردَّ هؤلاء الشواذ إلى دائرة الصواب ، والفعل الطيب . وذيَّل كلامه :

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود] قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً إنما قال : هؤلاء بناتى نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهرى قوم فهو أبوهم . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/٤٥٧] .

﴿إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٧١﴾ [الحجر]

ليوحى لهم بالشكِّ فى أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب المَمْجوج والمرفوض .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ[1] يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و « عَمْرُك » معناها السنُّ المُحدَّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق « عُمُرك » ومرة تنطق « عَمْرك » ، ولكنهم فى القَسَم يختارون كلمة « عَمْرك » ، وهذا يماثل قولنا فى الحياة اليومية « وحياتك » .

ومن هذا القول الكريم الذى يُحدِّث به الحق سبحانه رسوله استدلَّ أهل الإشراق والمعرفة أن الحق سبحانه قد كرَّم سيدنا رسول الله ﷺ ؛ بأنه حين ناداه لم يُنَاده باسمه العلَمِيّ « يا محمد » أو « يا أحمد » كما نادى كل رُسُله ، ولكنه لم يُنَادِ الرسول ﷺ إلا بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ .. ۝٦٧﴾ [المائدة]

أو : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. ۝١٢﴾ [الممتحنة]

وفى هذا تكريمٌ عظيم ، وهنا فى هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسِم بحياة رسوله ﷺ . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسِم

(١) السكرة : الغشية . أى كانوا فى غشية شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واغترارهم بالدنيا اغتراراً يُضلهم فيعمون عن الحق . [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] والعمه : التحيُّر والتردد ، أى : يتردد متحيراً لا يهتدى لطريقه ومذهبه . [لسان العرب ـ مادة : عمه] .

بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .

فهو الخالق العليم بكل ما خلق ؛ ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمُهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألاَّ نُقسِم إلاَّ به ؛ لأننا نجهل حقائق الأشياء مُكْتملة .

وقد أقسم سبحانه بكل شيء في الوجود ، إلا أنه لم يُقسِم أبداً بأيِّ إنسان إلا بمحمد ﷺ ؛ فقال هنا :

﴿ لَعَمْرُكَ (٧٢) ﴾ [الحجر]

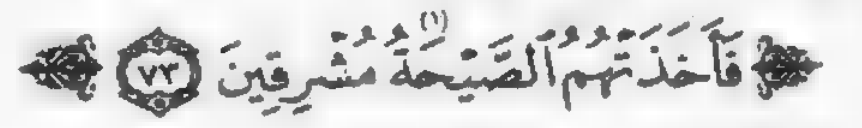
بحياتك يا محمد إنهم في سكْرة يعمهون .

والسكْرة هي التخديرة العقلية التي تحدث لمن يختلّ إدراكهم بفعل عقيدة فاسدة ، أو عادة شائنة ، أو بتناول مادة تثير الاضطراب في الوعي .

و ﴿ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر]

أي : يضطربون باختيارهم .

ويأتي العقاب ؛ فيقول الحق سبحانه :



﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ(١) مُشْرِقِينَ (٧٣) ﴾

وسبق أنْ أخبرنا سبحانه أنه سيقطع دابرهم وهم مصبحون ،

---

(١) الصيحة : العذاب ، وأصله من الصياح . والصيحة : الغارة إذا فوجيء الحيّ بها . [لسان العرب - مادة : صيح] . قال في القاموس القويم (١/٣٨٦) : « الصيحة : العذاب الذي يصحبه صوت شديد » .

وهنا يخبرنا أن الصيحةَ أخذتهم وهم مُشْرقون ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة « الكاراتيه » تصدر صيحة من اللاعب في مواجهة خَصْمه ليُزيد من رُعْبه .

كما نرى في تدريبات الصاعقة العسكرية ؛ نوعاً من الصرخات ، هدفها أنْ يُدخِل المقاتل الرُّعْب في قلب عدوه .

وكل ما يتطلب إرهاب الخَصْم يبدأ بصيحة تُفقِده توازنه الفكري ؛ ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ[1] الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر]

ومرَّة يُسمِّيها الحق سبحانه بالطاغية ؛ فيقول :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ[2] (٥) ﴾ [الحاقة]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[3] (٧٤) ﴾

---

(١) الهشيم المحتظر : أي كالحطب والخشب المحطّم في يد المحتظر صانع الحظيرة أو حامل الحطب فيها . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

(٢) الطاغية : طغيانهم . أي : أُهلكوا بطغيانهم . [لسان العرب - مادة : طغا] . قال قتادة : هي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم . وقال السدي : فأهلكوا بالطاغية يعني عاقر الناقة . [تفسير ابن كثير ٤/٤١٢] .

(٣) السجيل : الطين المتحجر . قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٥٤) : « هي بالفارسية حجارة من طين . قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أي : من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين » .

وما دام عاليها قد صار أسفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظّم المُوجّه ؛ ولو لم يكن انتقاماً مُنظّماً ؛ لانقلب بعضُ ما في تلك المدينة على الجانب الأيمن أو الأيسر .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يأتي لنا بصورة ما حدث ، ليدلّنا على قدرته على أنْ يفعلَ ما شاء كما يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه بحجارة من سجيل ؛ كتلك التي أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة في عام ميلاد رسول الله ﷺ .

وهي حجارة صُنعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَه إلا الحق سبحانه ، والطين إذا تحجَّر سُمِّي « سجيلاً » .

والحق سبحانه هو القائل عن نفس هذا الموقف في سورة الذاريات :

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) ﴾ [الذاريات]

وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عليهم لِيُبيدهم ، فلا يُبقِي منهم أحداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾

وهكذا كان العذاب الذي أنزله الحق سبحانه بقوم لوط آية واضحة للمُتوسّمين . والمُتوسّم هو الذي يُدرك حقائق المَسْتور بمكْشُوف المظهور . ويُقال « توسَّمْتُ في فلان كذا » أي : أخذ من الظاهر حقيقة الباطن .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

أي : ساعةَ تراهم ترى أن الملامح تُوَضِّح ما فى الأعماق من إيمان .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا[1] .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن المُتوسِّم[2] هو صاحب الفَراسة التى تكشف مكنون الأعماق . وها هو ﷺ يقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[3] .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابى الذى فقد جمله ، فذهب إلى قَيِّم الناحية ـ أى : عمدة المكان ـ وقال له : « ضاع جملى ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد » . وبينما هو يُحدِّث القيِّم جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور ؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أبتَر ؟ أى : لا ذَيْل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم .

---

(١) ألحف السائل فى سؤاله : ألحَّ وأكثر الإلحاح . أى : لا يلحون فى طلب الصدقات . [القاموس القويم ٢/١٩٠] .

(٢) قال ثعلب : « الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره . وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصى ، وكدورة الأخلاق ، وفضول الدنيا » نقله القرطبى فى تفسيره (٥/٢٧٦٦) .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : حديث غريب . وفيه مصعب بن سلام . قال المناوى فى « فيض القدير » (١/١٤٢) : « أورده الذهبى فى الضعفاء . وقال ابن حبان : كثير الغلط فلا يحتج به » . والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

فسأل الرجل سؤالاً ثالثاً : أجملك أشول ؟ أى : يعرج قليلاً عندما يسير ؛ فأجاب الرجل : نعم ، والله هو جَمَلِى .

وأراد قيِّم الحى أن يعلم كيف عرف الرجل الذى حضر كل هذه العلامات التى فى الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات ؟

قال الرجل : لقد رأيتُه فى الطريق ، وعرفتُ أنه أعورُ ، ذلك أنه كان يأكل العُشْب الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْب الأخضر فى الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينيه الاثنتين لرأى العُشْب الأخضر .

وعرفت أنه أبتر مقطوع الذَّيْل نتيجة أن بَعْره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التى لها ذَيْل غير مقطوع .

وعرفت أنه أشول ؛ لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عُمْقاً فى الأرض من أثر ساقه اليسرى . وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة « المتوسم » .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط ، فيقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

أى : إنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتُم ناحية هذا المكان ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات]

فهذه المدينة إذنْ فى طريق ثابت ؛ لن تُضيِّعه عوامل التَّعْرية أو الأغيار ، ولن تُضيِّعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه له أن

يكون مُحْكمَ التكوين ومُحكم التثبيت . وهو ما يُسمَّى « سدوم » .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ ﴾

وقد قال من قبل :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ ﴾ [الحجر]

فكان من مسئوليات المؤمن أنْ يتفحَّص في أدبار الأشياء ، وأنْ يتعرَّف على الأشياء بسيماها ، وأن يمتلكَ فراسة الإيمان التي قال عنها ﷺ : « اتقوا فراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

وهكذا يُنهِي الحق سبحانه هنا قصة قوم لوط ؛ وما وقع عليهم من عذاب يجب أنْ يتعظَ به المؤمنون ؛ فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك نَقْلة أخرى : إلى أهل مَدْين ، وهم قوم شُعَيب . وهم أصحاب الأيكة ، يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ ﴾

و «الأيك» هو الشجر المُلْتف الكثير الأغصان . ونعلم أن شعيباً ـ عليه السلام ـ قد بُعث لأهل مدين وأصحاب الأيكة ، وهي مكان قريب من مدين ، وكان أهل مدين[1] قد ظلموا أنفسهم بالشرك .

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٣١) : « مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز » وقال أيضاً (٢/٤٥٥) : « هم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان » .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أصحاب الأيكة :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [الشعراء]

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعث لأمتين مُتجاورتين[1] .

ويقول سبحانه عن هاتين الأمتين :

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾

ويُقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشجر المُلتف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعث إلى أُمتين هو قوله الحق :

﴿ وَإِنَّهُمَا .. (٧٩) ﴾ [الحجر]

وقد انتقم الله من الأمتين الظالمتين ؛ مَدْين وأصحاب الأيكة .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) مضمون كلام الشيخ - رحمه الله - أن مدين وأصحاب الأيكة هما أمتان مختلفتان بُعث إليهما شعيب عليه السلام ، ويدل لهذا حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٩١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان . بعث الله إليهما شعيباً » وعزاه لابن مردويه وابن عساكر . ولذلك فقد أرجع الشيخ الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر] إلى هاتين الأمتين . أما القرطبي وابن كثير فقد عادا بالضمير إلى قوم لوط ، وقوم مدين على اعتبار أن أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة . راجع القرطبي (٥/٣٧٦٨) وابن كثير (٢/٥٥٦) .

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر]

والإمام هو ما يُؤتَم به فى الرأى والفتيا ؛ أو فى الحركات والسَّكنات ؛ أو : فى الطريق المُوصِّل إلى الغايات ، ويُسمَّى « إمام » لأنه يدلُّ على الأماكن أو الغايات التى نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من هذا الطريق .

وفيما يبدو أن أصحاب الأيكة قد تمادَوْا فى الظُّلْم والكفر[1] ، وإذا كان سبحانه قد أخذ أهل مَدْين بالصيحة والرجفة ؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن سلط عليهم الحَرَّ سبعة أيام لا يُظِلهم منه ظِلٌّ ؛ ثم أرسل سحابة وتمنَّوْا أن تُمطر ، وأمطرتْ ناراً فأكلتهم ، كما قالت كتب الأثر[2] .

وهذا هو العذاب الذى قال فيه الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء]

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذى يقود إلى التبصُّر بعواقب الظلم والشرك .

وينقلنا الحق سبحانه إلى خبر قوم آخرين ، فيقول تعالى :


﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾

وأصحاب الحِجْر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التى يقيمون فيها

(١) كان ظلم قوم شعيب بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . [تفسير ابن كثير ٢/٥٥٦] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٩٢) من قول قتادة ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

كلها من الحجارة ؛ ولا يزال مُقَامهم معروفاً فى المسافة بين خيبر وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[1] آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[2] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وهم قد كذَّبوا نبيهم « صالح » وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل الرسل ؛ ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون فى الأحكام العامة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة من البيئات التى يعيشون فيها .

فبيئة : تعبد الأصنام ، فيُثْبِت لهم نبيُّهم أن الأصنام لا تستحق أن تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطفِّف الكيْل والميزان ؛ فيأتى رسولهم بما ينهاهم عن ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذِّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة ؛ لكنهم لم يختلفوا فى المنهج الكُلِّىّ الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق سبحانه عن قوم صالح أنهم كذَّبوا المُرْسلين ؛ بمعنى أنهم كذَّبوا صالحاً فيما جاء به من دعوة التوحيد التى جاء بها كل الرسل .

---

(١) الريع : الجبل أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع . [القاموس القويم ١/٢٨٢] .

(٢) المصانع : أبنية عالية وقصور متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها ولستم بخالدين . [القاموس القويم ١/٣٨٤] .

ويقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك :



وهنا يُوجز الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما أرسل به نبيهم صالح من آيات تدعوهم إلى التوحيد بالله ، وصدْق بلاغ صالح عليه السلام الذى تمثَّل فى الناقة ، التى حذَّرهم صالح أنْ يقربوها بسوء كَيْلا يأخذهم العذاب الأليم[1] .

لكنهم كذَّبوا وأعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التى خلقها الحق سبحانه فى الكون من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، واختلاف الألْسُن والألوان بين البشر .

ونعلم أن الآيات تأتى دائماً بمعنى المُعْجزات الدَّالة على صدْق الرسول ، أو : آيات الكون ، أو : آيات المنهج المُبلِّغ عن الله ، تكونَ آية الرسول من هؤلاء من نوع ما نبَغ فيه القوم المُرْسَل إليهم ؛ لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها .

وعادةً ما تثير هذه الآية خاصيَّة التحدِّى الموجودة فى الإنسان ، ولكن أحداً من قوم الرسل ـ أىّ رسول ـ لا يُفلِح فى أن يأتى بمثل آية الرسول المرسل إليهم .

ويقول الحق سبحانه عن قوم صالح :

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) ﴾ [الحجر]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ [الأعراف] .

أى : تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الذى جاءهم به صَالِح ، والإعراض هو أنْ تُعطى الشىء عَرْضك بأن تبتعدَ عنه ولا تُقبل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لوجدتَ فيه الخير لك .

وأنت حين تُقبل على آيات الله ستجد أنها تدعوك للتفكُّر ، فتؤمن أن لها خالقاً فتلتزم بتعاليم المنهج الذى جاء به الرسول .

وأنت حين تُفكّر فى الحكمة من الطاعة ستجد أنها تُريحك من قلق الاعتماد على أحد غير خالقك ، لكنْ لو أخذتَ المسائل بسطحية ؛ فلن تنتهى إلى الإيمان .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وفى هذا تكليفٌ للمؤمن - كُل مؤمن - أن يُمعِنَ النظر فى آيات الكون لعلَّه يستنبط منها ما يفيد غيره .

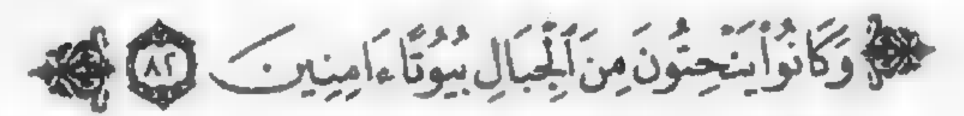
وأنت لو نظرتَ إلى كل المُخْترعات التى فى الكون لوجدتَها نتيجة للإقبال عليها من قِبَل عالم أراد أنْ يكتشفَ فيها ما يُريح غيره به .

والمثل فى اكتشاف قُوّة البخار التى بدأ بها عَصْر من الطاقة واختراع المُعدات التى تعمل بتلك الطاقة ، وحرّك بها القطار والسفينة ؛ مثلما سبقها إنسان آخر واخترع العجلة ليُسهّل على البشر حَمْل الأثقال .

وإذا كان هذا فى أمر الكَوْنيات ؛ فأنت أيضاً إذا تأملتَ آيات

الأحكام فى « افعل » و « لا تفعل » ستجدها تقيدك فى حياتك ، ومستقبلك ، والمثل على ذلك هو الزكاة ؛ فأنت تدفع جزءاً يسيراً من عائد عملك لغيرك ممَّنْ لا يَقْوَى على العمل ، وستجد أن غيرك يعطيك إنْ حدث لك احتياج ؛ ذلك أنك من الأغيار .

ويتابع الحق سبحانه قوله عن قوم صالح :



وهنا يمتنُّ عليهم بأن منحهم حضارةً ، ووهبهم مهارة البناء والتقدُّم فى العمارة ؛ وأخذوا فى بناء بيوتهم فى الأحجار ، ومن الأحجار التى كانت توجد بالوادى الذى يقيمون فيه ، وقطعوا تلك الأحجار بطريقة تُتيح لهم بناء البيوت والقُصور الآمنة من أغيار التقلُّبات الجوية وغيرها .

ونعلم أن مَنْ يعيش فى خَيْمة يعانى من قلَّة الأمن ؛ أما مَنْ يبنى بيته من الطوب اللَّبن ؛ فهو أكثر أَمْناً ممَّنْ فى الخيمة ، وإنْ كان أقلَّ أماناً من الذى يبنى بيته من الأسمنت المُسلَّح ، وهكذا يكون أَمْن النفس البشرية فى سكنها واستقرارها من قوة الشىء الذى يحيطه .

وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهى بالتأكيد أكثر أَمْناً من غيرهم ، ونجد نبيهم صالحاً ، وقد قال لهم ما أورده الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ[1] فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ[2] اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا[3] فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ [الأعراف]

ولكنهم طَغَوْا وبَغَوْا وأنكروا ما جاء به صالح ـ عليه السلام ـ فما كان من الحق سبحانه إلا أنْ أرسلَ عليهم صيحةً تأخذهم .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) ﴾

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جبليّة الموقع أمْناً لهم : فقد جاءت الصيحة من الحق سبحانه لِتدكَّ فوق رؤوسهم ما صنعوا ، وقد قال الحق سبحانه عنهم من قبل في سورة هود :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود]

وقال سبحانه عنهم أيضاً :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[4] (٧٨) ﴾ [الأعراف]

والرَّجْفة هي الزلزلة ، والصَّيْحة هي بعض من توابع الزلزلة ،

---

(١) بوّأه في الأرض : مكّن له فيها . وأباءه منزلاً وبوّأه إياه : هيأه له وأنزله ومكّن له فيه . [لسان العرب ـ مادة : بوأ] .

(٢) الآلاء : النعم . مفردها : إِلْيٌ . أو أَلْي بكسر الهمزة وبفتحها . [القاموس القويم ٢٧/١] .

(٣) عثا عُثُواً : أفسد أشد الإفساد . [لسان العرب ـ مادة : عثا] .

(٤) جثم : لزم مكانه لاصقاً بالأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود] .

ذلك أن الزلزلة تُحدث تموجاً فى الهواء يؤدى إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمَنْ يسمعها .

وهم حسب قَوْل الحق سبحانه قد تمتَّعوا ثلاثة أيام قبل أنْ تأخذهم الصَّيْحة كوَعْد نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ لهم :

﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أنْ أخذتهم الصَّيْحة :

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾

وهكذا لم تنفعهم الحصون فى حمايتهم من قَدَر الله ، ونعلم أن قدر الله أو عقابه لا يمكن أنْ يمنعه مانعٌ مهما كان ؛ فهو القائل :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ[1] .. (٧٨) ﴾ [النساء]

وهكذا لا يمكن أن يحميَ الإنسانُ نفسَه مما قدَّره الله له ، أو ممَّا يشاء الحق أن يُنزِله على الإنسان كعقاب .

وسبحانه القائل :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ .. (١٥٤) ﴾ [آل عمران]

وهكذا خرُّوا جميعاً فى قاع الهلاك ، ولم تَحْمِهم حصونهم من العذاب الذى قدَّره سبحانه .

---

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وطلاه . [القاموس القويم ١/٣٦٣] .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الآيات الكونية ؛ فيقول :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾

والحقُّ هو الشيء الثابت الذى لا تَعْتوره الأغيار ، والمثَل هو نظام المجرَّات وحركة الشمس والقمر ؛ تجدها مُنْضبِطة ؛ ذلك أن الإنسان لا يتدخَّل فيها ، وليس للإنسان - صاحب الأغيار - معه أيُّ اختيار .

ولذلك نجد أن الفسادَ لا ينشأ فى الكون من النواميس العُلْيا ، ولكن من الأمور التى يتدخَّل فيها الإنسان ، وليس معنى ذلك أنْ يتوقفَ الإنسانُ عن الحركة فى الأرض ؛ ولكنْ عليه أنْ يرعى منهج الله ، ويمتنع عمَّا نهى عنه وأنْ يطيعَ ما أمره به .

وأنت لو طَبَّقْتَ أوامر الحق سبحانه فى « افعل » و « لا تفعل » لاستقامتْ الدنيا فى الأمور التى لكَ دَخْل فيها كانتظام الأمور التى ليس لك دَخْل فيها .

واقرأ إنْ شئْتَ قوْله الحق :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ[1] الْبَيَانَ ﴿٤﴾

---

(١) البيان : النطق . قاله الحسن . وقال الضحاك وقتادة وغيرهما : يعنى الخير والشر . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٠) : « قول الحسن ههنا أحسن وأقوى ، لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته . وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها » .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ [الرحمن]

فإن كنتم تريدون أن تنتظمَ أموركم في الحياة الدنيا ؛ فلا تطغَوْا في ميزان أيِّ شيء .

وهنا يُذكِّرنا الحق سبحانه ألاَّ نقعَ في خطأ الوهم بأننا سنأخذ نِعَم الدنيا دون ضابط أو رابط ؛ فالحساب قادم لا محالةَ ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف]

أي : مَا قدَّره الله سيقع دون أنْ يَصُدَّه شيء مهما كان ، وإمَّا ترى ذلك في حياتك ، أو تراه لحظة البَعْث .

والدليل هو ما حاق بمَنْ كفروا وظلموا وكذَّبوا الرسل ، وعاثوا في الأرض مُفْسدين . وأهلكهم الحق سبحانه بعذابه تطهيراً للأرض منْ فسادهم ، هذا جزاؤهم في الدنيا ، وهناك جزاء آخر في اليوم الآخر .

وفي هذا القول تَسْلية لرسول الله ﷺ ، فهو حين يُعلِّمه الله ما حاقَ بالأمم السابقة التي كذَّبت الرسل ؛ هانتْ عليه المتاعب والمشاقّ التي عاناها من قومه ، وليسهُلَ عليه من بعد ذلك أن يتذرَّع[1] بالصبر الجميل ، حتى يأتي وَعْدُه سبحانه ، وليس عليك يا محمد أنْ تُحمِّل نفسك ما لاَ تطيق .

---

(١) الذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشيء . وقد تذرع فلان بذريعة أي : توسل . [لسان العرب ـ مادة : ذرع] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقد جاء سبحانه هنا بالاسم الذى خلق به من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم . وقيُّومية الربوبية هى التى تمدُّ كل الكون برزقه وترعاه ؛ فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الكون ، وهو الذى يرعاه .

وكلمة : ﴿ رَبَّكَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر]

تُوحِى بأنه إنْ أصابك شىءٌ بسبب دعوتك ، وبسبب كنود[1] قومك أمامك وعدائهم لك ، فربُّكَ يا محمد لن يتركهم .

والربُّ - كما نعلم - هو مَنْ يتولَّى تربية الشىء إلى ما يعطيه مناط الكمال ، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط ، ولكنه ينطبق على الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ الْخَلاَّقُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر]

مبالغة فى الخَلْق ، وهى امتداد صفة الخَلْق فى كل ما يمكن أنْ يخلق ، لأنه سبحانه هو الذى أعدَّ كل مادة يكون منها أىّ خَلْق ، وأعدّ العقل الذى يُفكِّر فى أىّ خلق ، وأعدَّ الطاقة التى تفعل ، وأعدَّ التفاعل بين الطاقة والمادة والعقل المُخطِّط لذلك .

وما يفعله الإنسان المخلوق هو التوليف بين ما خلقه الله من

---

(١) الكنود : الجحود . كند النعمة : جحدها ولم يشكرها . قال تعالى : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ [العاديات] أى : كفور شديد الجحود . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

مواد ، وإنْ وُجد خلاق من البشر ؛ فهو وحده سبحانه الذى يهب إنساناً ما أفكاراً لينفذها ، ثم يأتى مَنْ هو أذكى منه ليُطوِّرها .

ولذلك قال الحق سبحانه :

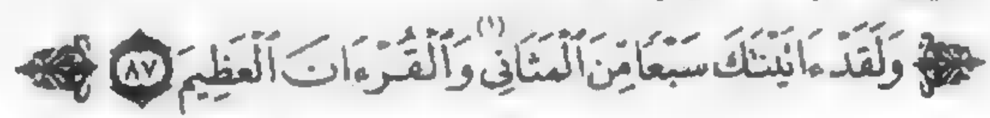
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا رأينا كل المخترعات البشرية تتطوّر ؛ والمثل على ذلك هو آلة الحياكة التى صارت تعمل الآن آلياً بعد أن كانت المرأة تجلس عليها لتكدَّ فى ضَبْطها ، وكذلك غسّالة الملابس ، وغسالة الأطباق والسيارات والطائرات .

ونلحظ أن كل ما خلقه الله يمكن أن يُستفاد من عادمه مثل رَوَث البهائم ؛ الذى يُستخدم كسماد ، أما عادم السيارات مثلاً فهو يلُوِّث الجو . وشاشة التلفزيون تُصدر من الإشعاعات مَا يضر العين ، وتَمَّ بحْثُ ذلك لتلافى الآثار الجانبية فى مثل تلك الأدوات التى يسهل الإنسان بها حياته .

أما ما يخلقه الله فلا توجد له آثار جانبية ؛ فسبحانه ليس صاحب عِلْم مُكْتسب أو ممنوح ؛ بل العلم صفة ذاتية فيه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



(١) المثانى من القرآن : ما ثُنِّى مرة بعد مرة . قال أبو عبيد : سُمّى القرآن مثانى لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه . ويسمى جميع القرآن مثانى أيضاً لاقتران آية الرحمة بآية العذاب . [لسان العرب ـ مادة : ثنى] .

وهنا يمتنُّ الحق سبحانه على رسوله ﷺ بأنه يكفيه أنْ أنزلَ عليه القرآن الكتاب المعجزة ، والمنهج الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه . فالقرآن يضمُّ كمالاتِ الحق التى لا تنتهى : فإذا كان سبحانه قد أعطاك ذلك ، فهو أيضاً يتحمَّل عنك كُلَّ ما يُؤلمك .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ[1] ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر]

ويقول له الحق أيضاً :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ..﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وأزاح الحق سبحانه عنه هموم اتهامهم له بأنه ساحر أو مجنون ؛ وقال له سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[الأنعام]

ويكشف له سبحانه : إنهم يؤمنون أنك يا محمد صادق ، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبك .

ويتمثَّل امتنانُ الحق سبحانه على رسوله أنه أنزل عليه السَّبْع المثانى ، واتفق العلماء على أن كلمة « المثانى » تعنى فاتحة الكتاب ، فلا يُثنَّى فى الصلاة إلا فاتحة الكتاب .

---

(١) أى : بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك ، وتناله ويناله أصحابك من أعدائك . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٨٦]

ونجده سبحانه يَصف القرآنَ بالعظيم ؛ وهو سبحانه يحكم بعظمة القرآن على ضَوْء مقاييسه المُطْلقة ؛ وهي مقاييس العظمة عنده سبحانه .

والمثل الآخر على ذلك وَصْفه سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]

وهذا حُكْم بالمقاييس العُلْيا للعظمة ، وهكذا يصبح كُلّ متاع الدنيا أقلَّ ممّا وهبه الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فلا ينظرَنَّ أحدٌ إلى ما أُعطِي غيره ؛ فقد وهبه سبحانه لرسوله ﷺ .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد عطف القرآن على السَّبْع المثاني ، وهو عَطْف عام على خَاصٍّ ؛ كما قال الحق سبحانه :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ[1] .. ۝٢٣٨ ﴾ [البقرة]

ونفهم من هذا القول أن الصلاة تضمُّ الصلاة الوُسْطى أيضاً ، وكذلك مثل قول الحق ما جاء على لسان رسوله ﷺ :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ۝٢٨ ﴾ [نوح]

---

(١) اختلف العلماء في تحديد الصلاة الوسطى على ثلاثة أقوال :
القول الأول : الصبح . حكاه مالك في الموطأ بلاغاً عن علي وابن عباس .
القول الثاني : الظهر . قاله زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة .
القول الثالث : العصر . قال الترمذي والبغوي : هو قول أكثر علماء الصحابة . [انظر تفسير ابن كثير ١/٢٩٠ ـ ٢٩٢] قال الشيخ سيد سابق في فقه السنة (١/٧٧) . « قد جاءت الأحاديث الصحيحة مصرحة بأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى » . وقيل . إن كل صلاة من الصلوات الخمس تعتبر وسطى ، وذلك لدوام المحافظة على الصلوات الخمس ، وفي الكل خير .

وهكذا نرى عَطْف عام على خاص ، وعَطْف خاص على عام .

أو : أنْ نقولَ : إن كلمة « قرآن » تُطلَق على الكتاب الكريم المُنزَّل على رسول الله ﷺ من أول آية في القرآن إلى آخر آية فيه ، ويُطلق أيضاً على الآية الواحدة من القرآن ؛ فقول الحق سبحانه :

﴿ مُدْهَامَّتَانِ[1] (٦٤) ﴾ [الرحمن]

هي آية من القرآن ؛ وتُسمَّى أيضاً قرآناً .

ونجده سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً[2] (٧٨) ﴾ [الإسراء]

ونحن في الفجر لا نقرأ كل القرآن ، بل بعضاً منه ، ولكن ما نقرؤه يُسمَّى قرآناً ، وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً[3] مَسْتُوراً (٤٥) ﴾ [الإسراء]

وهو لا يقرأ كُلّ القرآن بل بعضه ، إذن : فكلُّ آية من القرآن قرآن .

---

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة الخضرة وكثرة الظلال . وهذا كناية عن النعيم التام . والدُّهْمة : السواد . [القاموس القويم ١/٢٣٥] .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٢/٤٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) ﴾ [الإسراء] قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

(٣) الحجاب المستور : طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة . وقيل : نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحويطب . فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن . [تفسير القرطبي ٥/٣٩٩٨] .

وقد أعطى الحق سبحانه رسوله ﷺ السَّبْع المثانى والقرآن العظيم ، وتلك هى قمَّة العطايا ؛ فلله عطاءاتٌ متعددة ؛ عطاءات تشمل الكافر والمؤمن ، وتشمل الطائع والعاصى ، وعطاءات خاصة بمَنْ آمن به ؛ وتلك عطاءات الألوهية لمَنْ سمع كلام ربِّه فى « افعل » و « لا تفعل » .

وسبحانه يمتد عطاؤه من الخَلْق إلى شَرْبة الماء ، إلى وجبة الطعام ، وإلى الملابس ، وإلى المَسْكَن ، وكل عطاء له عُمْر ، ويسمو العطاء عند الإنسان بسُمو عمر العطاء ، فكل عطاء يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السعيد .

فإذا كان عطاء الربوبية يتعلَّق بمُعْطيات المادة وقوام الحياة ؛ فإن عطاءات القرآن تشمل الدنيا والآخرة ؛ وإذا كان ما يُنغِّص أيَّ عطاء فى الدنيا أن الإنسانَ يُفارقه بالموت ، أو أن يذوى هذا العطاء فى ذاته ؛ فعطاء القرآن لا ينفد فى الدنيا والآخرة .

ونعلم أن الآخرة لا نهايةَ لها على عكس الدنيا التى لا يطول عمرك فيها بعمرها ، بل بالأجل المُحدَّد لك فيها .

وإذا كانت عطاءاتُ القرآن تحرس القِيم التى تهبُك عطاءات الحياة التى لا تفنَى وهى الحياة الآخرة ؛ فهذا هو أسْمى عطاء ، وإياك أن تتطلعَ إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نعَم الدنيا الفانية ؛ لأن مَنْ أُعطِى القرآن وظنَّ أن غيره قد أُعْطِى خيراً منه ؛ فقد حقر ما عَظَّم الله .

وما دام الحق سبحانه قد أعطاك هذا العطاء العظيم ، فيترتب عليه قوله :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ[1] جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والمَدُّ : هو مَطُّ الشيء وزيادته . وللعيْن مسافات تُرَى فيها المرائى ؛ كُل عَيْن حَسْب قدرتها ، فهناك مَنْ يتمتع ببصر قوى وحادّ ، وهناك مَنْ ليس كذلك .

ويتراوح الناس فى قدرة إبصارهم حسب توصيف وضعه الأطباء ؛ ليعالجوا ذلك على قَدْر استطاعتهم العلمية . وفى المثَل اليومى نسمع مَنْ يقول « فلان عنده بُعْد نظر » أى : يملك قدرة على أن يقيسَ رُدود الأفعال ، ويتوقّع ما سوف يحدث ، وما يترتّب على نتائج أىّ فعل .

والمراد بمَدّ العين ليس إخراج حبة العين ومدّها ؛ ولكن المراد إدامة النظر والإمعان ، ولكن الحق سبحانه عبّر فى القرآن هذا التعبير ، وكأن الإنسان سيخرج حبّة عينه ليجرى بها ، وليُمعِن النظر ، وهذا ما يفهم من منطوق الآية ، والمنطوق يشير إلى المفهوم المراد ، وهذا عين الإعجاز .

وكلمة « متاع » تفيد أن شيئاً يُتمتّع به وينتهى ، ولذلك يُوصَف متاع الدنيا فى القرآن بأنه متَاعُ الغرور ، أى : أنه متاع موقوت بلحظة .

---

(١) خفضه : هبط به . قال تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر] كناية عن الرحمة والتواضع لهم ولين الجانب معهم [القاموس القويم ١٩٩/١] .

وقول الحق سبحانه :

﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ..(٨٨)﴾ [الحجر]

هى جَمْع زَوْج ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة « زوج » هى مفرد ، والذكَر والأنثى حين يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا..(٣٦)﴾ [يس]

والأزواج كُلُّها تعنى الفرد ، ومعه الفرد من كل صنف من الأصناف . والمراد بكلمة أزواج هنا أن المخالفين لرسول الله ﷺ كانوا شِلَلاً شِللاً ؛ ضال ومضل ؛ وضال آخر معه مُضِل .

ولحظة الحساب سيقول كل منهم :

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ[1] (٥١)﴾ [الصافات]

وهكذا كانت كلمة « أزواج » تدل على أصناف متعددة من الذين يقفون معاندين لرسول الله ﷺ ومُنكرين لمنهجه .

وفى موقع آخر من القرآن يكشف سبحانه عَمَّنْ أغوتْهم الشياطين ، ويحشرهم الحق سبحانه مع الشياطين فى نار جهنم :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم[2] مِّنَ الإِنسِ..(١٢٨)﴾ [الأنعام]

---

(١) قارن الشىءُ الشىءَ : اقترن به وصاحبه . والقرين : المصاحب . والقرين يكون فى الخير والشر . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

(٢) استكثرتم : أغويتم كثيرين منهم وسيطرتم عليهم . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

أى : يا معشرَ الجنِّ قد استطعتُم أنْ تُوحوا لكثير من الإنس بالغواية والمعصية ، ليكونوا أولياءكم ، وهكذا نجد أن كل جماعة تتفق على شيء نُسمِّيهم أزواجاً .

وهنا يُوضِّح الحق سبحانه : إياك أنْ تَمُدَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم ، لأننا أعطيناك أعلى عطاء ، وهو معجزة القرآن حارس القيم ، والذى يضمُّ النَّهْج القويم .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

ويُقال : حزنت منه ، وحَزِنت عليه ، وحَزِنت له ؛ فمَنْ ناله ما يُحزن ، ولم يَصْدُر عنك هذا السبب فى حزنه ؛ فأنت تقول له « حَزِنت لك » .

وآخر ارتكب فِعْلاً يُسيء إلى نفسه ؛ فأنت تحزن عليه . ورسول الله ﷺ حَزِن عليهم ؛ فقد كان يُحبّ أنْ يؤمنوا ، وأنْ يتمتعوا بالنعمة التى يتمتع هو بها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

فمنْ رأفته ﷺ صَعُبَ على نفسه أنْ ينَال قومه مشقةٌ ؛ فالرحمة

(١) العنت : دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة . قال ابن الأثير : العنت : المشقة والفساد والهلاك والإثم والغلط والخطأ . [لسان العرب - مادة : عنت]

والرأفة مصدرها ما وهبه الله إياه من فَهْم لقيمة نعمة الإيمان .

وفى آية أخرى يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥﴾ [الكهف]

أى : أنه لن ينقصَ منك شىء فى حالة عدم إيمانهم ، ولن يزيدك إيمانهم أجراً ؛ ذلك أن عليك البلاغَ فقط ؛ فلماذا تحزن على عدم إيمانهم ؟

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.. ⑧⑧﴾ [الحجر]

دليل على أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على أنْ يُؤْمِن قومه ، محبةً فيهم ، وليتعرَّفوا على حلاوة الإيمان بالله . وكان ﷺ يتألم ، ويحز فى نفسه عدم إيمانهم ، لدرجة أن الحق سبحانه قال له فى آية أخرى :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً[2] فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾ [الشعراء]

وهنا يُوضِّح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن إيمانهم ليس أمراً

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . باخع : أى مهلك نفسك بحزنك عليهم . أى : لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . [تفسير ابن كثير ٣/٧٢] .

(٢) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . [القاموس القويم ١/٤٧] .

صعباً عليه سبحانه ؛ ذلك أنه قادر أنْ ينزِّل آية من السماء تجعلهم خاضعين ؛ مؤمنين ؛ لكنه سبحانه يحب أن يأتيه خَلْقُه محبة ، وأنْ يُحسنوا استخدام ما وهبهم من خاصية الاختيار .

فسبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به ؛ فالإيمان عَمَل قلوب ، وسبحانه لا يريد قوالب ، وإنما يريد قلوباً خاشعة ، ولو شاء سبحانه من خَلْقه أنْ يأتوه طواعية ؛ فالقهر من القاهر يُثبت له القدرة ، ولكن أنْ يأتيَ الخَلْق إلى خالقهم طواعية ؛ فهذا يُثبت له المحبوبية .

والحق سبحانه يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ولا تحزنْ عليهمْ..﴿٨٨﴾﴾ [الحجر]

ثم يُوجِّه له الأمر بأنْ يُوجِّه طاقة الحنان والمودّة التي في قلبه إلى مَنْ يستحقها ، وهم المؤمنون برسالته ﷺ ؛ وعليه أنْ يخفضَ جناحه للمؤمنين .

فكُلُّ حركة من الإنسان هي نزوع يتحرك من بعد وُجْدان ، والوُجْدان يُولِّد طاقة داخلية تُهيىء للنزوع وتدفع إليه ، فإن حزن الرسول ﷺ لعدم إيمان صناديد قريش برسالته ؛ فهذا الحُزْن إنما يخصم ويأخذ من طاقته ؛ فيأتيه الأمر من الحق سبحانه أن يُوفِّر طاقته ، وأنْ يُوجِّهها لمَنْ آمن به ؛ وأن يخفِضَ جناحه لهم .

وخَفْض الجناح هو التواضُع ؛ ذلك أن الجناحَ هو الجانب ، فحين

يأتيك إنسانٌ تريد أنْ تتكبَّر عليه ؛ فهو يقول « فلان لَوَى عنِّى جانبه » .

وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين ؛ وأنْ يتوجه إليهم لا باستقامة قالبه ، بل أن ينزل هذا القالب قليلاً .

وكلمة : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

مأخوذة من خَفْض جناح الطائر ، فالطائر يرفع جناحه عند الطيران ، ولكن ما أنْ يلمسَ هذا الطائر فَرْخَه الصغير حتى يَخفض جناحه له ليضمه إليه .

إذن : فالطاقة التى كنتَ تُوجِّهها يا رسول الله إلى مَنْ لا يستحق ؛ عليك أنْ تُوجِّهها لِمَنْ يستحقها ، فيكفيك أن تُبلِّغ الناس جميعاً برسالتك ؛ ومَنْ يؤمن منهم هو مَنْ يستحق طاقة حنانك ورحمتك .

وخَفْض الجناح لِمَنْ آمن برسالتك لا يورثه كِبْراً عليك ؛ بل يزيده أدباً معك .

وقد جاء فى الأثر : « إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ » أى : أنك إذا رأيتَ أخاك فى وضع يعزّ عليك ، فَهُنْ له أنت .

ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربى[1] :

---

(١) هو : الفند الزمانى ، واسمه شهْل بن شيبان ، شاعر جاهلى ، من أهل اليمامة ، سُمى الفند لعظم خلقته ، تشبيهاً بفند الجبل ، وهو القطعة منه ، توفى نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى ٣/١٧٩] .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ ... وقُلْنَا القَوْمُ إخْوانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يَرْجِعْـ ... ـنَ قَوْماً كَالذِي كَانُوا
فَلمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ ... فَأمسَى وَهْوَ عُرْيَانُ
مَشيْنَا مِشْيَةَ الليْثِ ... غَدَا والليْثُ غَضْبَانُ
بضَرْبٍ فيه تَوْهِينٌ ... وتَخْضِيعٌ[1] وإقْرانُ
وطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ ... غَدَا والزِّقُّ[2] مَلآنُ
وفِي الشَّرِّ نجاةٌ حِيـ ... ـنَ لاَ يُنجِيك إحسَانُ
وبعضُ الحلمِ عِنْدَ الجهـ ... ـلِ لِلْذلةِ إذْعَانُ[3]

ونجد القرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج : لا يطبعه بطابع واحد يتعامل به مع كل الناس ، بل يجعل طَبْعه الخُلقى مطابقاً لموقف الناس منه ، فيقول :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ..(٥٤)﴾ [المائدة]

ويقول أيضاً فى وصف المؤمنين :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ..(٢٩)﴾ [الفتح]

وهكذا لم يطبع المؤمن على الشدة والعزة ، بل جعله يتفاعل مع المواقف ؛ فالموقف الذى يحتاج إلى الشدة فهو يشتد فيه ؛

---

(١) التخضيع : تقطيع اللحم . والإقران : قوة الرجل على الرجل .

(٢) الزق : السقاء ، وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وتزقيقه سلخه من قبل رأسه . [لسان العرب ـ مادة : زقق] . والسلخ : الكشط .

(٣) أورد الأبيات أبو على القالى فى أماليه (١/ ٣٠٩ ، ٣١٠) .

والموقف الذى يحتاج إلى لينٍ فهو يلين فيه[1]

والحكمة الشاعرة تقول :

وَوَضْعُ النَّدى فى مَوْضعِ السَّيف بالعلى مضر
كَوَضْعِ السَّيْفِ فى مَوْضعِ النَّدَى

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾

ونعلم أن الرسل مُبشِّرين ومُنذرين ؛ ولسائل أنْ يقولَ : ولماذا تأتى صيغة الإنذار دائماً ؟ وأقول : إن مَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة ؛ أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النِّذارة فهو الكافر المُنكِر .

وفى الإنذار تخويفٌ بشيء ينالُ منك فى المستقبل ؛ وعليك أنْ تُعِدَّ العُدَّة لتبتعد بنفسك أن تكون فيه ، والتبشير يكون بأمر تتمناه النَّفْس . وبالإنذار والتبشير يتضح الموقف بجلاء ، ويُحَاط الإنسان بكل قضايا الحياة ؛ ويتضح مسار كُل أمرٍ من الأمورِ .

بذلك يكون الحق سبحانه فى الآيتين السابقتين قد امتنَّ على رسوله ﷺ بأنه قد آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم ؛ ولذلك يوصيه ألاَّ تطمح نفسه إلى ما أوتى بعضٌ من الكفار من جاه ومال ، فالقرآن عِزُّ الدنيا والآخرة .

ويوصيه كذلك بألا يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته ، فليس عليه إلا البلاغ ، وأن يتواضعَ ﷺ للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به ،

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٧٠) : « هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، متعززاً على خصْمه وعدوه » .

فهم خير من كل الكافرين برسالته ﷺ .

ثم يُوصيه الحق سبحانه أن يُبلغ الجميع أنه نذير وبشير ، يوضح ما جاء في القرآن من خير يَعُمّ على المؤمنين ، وعقابٍ ينزل على الكافرين .

وقد قال ﷺ : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثلِ رجلٍ أتى قوماً فقال : يا قوم ، إنى رأيتُ الجيشَ بعينيَّ ، وإنى أنا النذير العُرْيان[1] ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدْلجوا[2] فانطلقوا على مهلهم فَنجَوْا ، وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل مَنْ أطاعني فاتَّبع ما جِئْتُ به ، ومثل مَنْ عصاني وكذَّب بما جئتُ به من الحقّ »[3]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ﴾

ونعلم أنه سبحانه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ ، واستقبله الناس استقبالَيْن : فمنهم مَن استمع إلى القرآن فتبصَّر قول الحق وآمن ، وفي هؤلاء قال الحق سبحانه :

---

(١) خص العريان لأنه أبين للعين وأغرب وأشنع عند المبصر ، وذلك أن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عالٍ ، فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه ويبقى عُرياناً . [لسان العرب - مادة : عرا] .

(٢) أدلجوا : ساروا من آخر الليل . والدُّلْجة : سير الليل . [لسان العرب - مادة : دلج] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٨٢ ، ٧٢٨٣) ، ومسلم في صحيحه (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾ [المائدة]

والصنف الآخر استمع إلى القرآن ، فكانت قلوبهم كالحجارة ، وفيهم قال الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا[1] أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ؛ وقد دخلوا ومعهم حكم مُسْبق ، فلم يقيموا ميزانَ العدل ليقيسوا به فائدة ما يسمعون .

ولذلك أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألاّ يحزن ، فالمسألة لها سوابق مع غيرك من الرسل ؛ فقد نزل كل رسول بكتاب يحمل المنهج ، ولكن الناس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لمَا نزل إليك بين كافر ومؤمن ، واختلفوا في أمور الكُتب المنزَّلة إلى رسلهم .

وكان انقسامهم كانقسام قومك حول الكتاب المُنزَّل إليك ، فلا تحزنْ إنِ اتهموك بأنك ساحرٌ ، أو أن ما نزل إليك كتابٌ شعر ؛ أو أنك تمارس الكهانة ؛ أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتهموك بالجنون .

وهكذا قسَّموا القرآن المُنزَّل من الله سبحانه إلى أقسام هي : السِّحْر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، كما فعل من قبلهم أقوام أخرى :

(١) أي : سابقاً في الوقت القريب . [القاموس القويم ١/٣٨] .

فمنهم[1] مَنْ قال ، وأثبته القرآن عليهم :

﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء]

وهكذا تعلم يا رسول الله أنك لست بِدْعاً من الرسل[2] ، ذلك أن الرسل لا يأتون أقوامهم إلا وقد طَمَّ الفساد والبلاء ، ولا يوجد فساد إلا بانتفاع واحد بالفساد بينما يضُر بالآخرين .

وإذا ما جاء رسول ليصلح هذا الفساد يهُبُّ أهل الاستفادة من الفساد ليقاوموه ويضعوا أمامه العراقيل ؛ مثلما حدث معك يا رسول الله حين قال بعضهم :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ..(٢٦) ﴾ [فصلت]

ومثل هذا القول إنما يدلُّ على أنهم لو صفَّوا نفوسهم ، واستمعوا للقرآن لاهتدوا ؛ لذلك يقول لهم سادتهم :

﴿ وَالْغَوْا[3] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

أى : شَوِّشوا[4] عليه .

---

(١) هم قوم فرعون . والقول لفرعون عندما واجهه موسى عليه السلام بأنه ليس إلهاً ولا رباً . وذلك فى محاورة ذكرها القرآن فى قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء] .

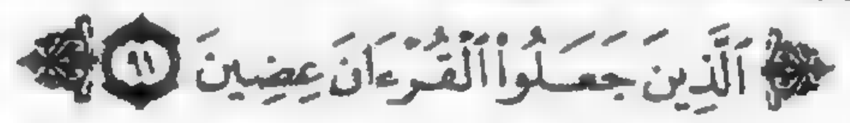
(٢) قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ﷺ فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٣) اللغو : اللغط . أى : شوشوا على قارئه باللغو من القول . أو : اطعنوا فيه واختلقوا له العيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم ٢/١٩٦] .

(٤) التشويش : التخليط ، وقد تشوش عليه الأمر . قاله الجوهرى فى مادة شيش . وقال أبو منصور : لا أصل له فى العربية ، وإنه من كلام المولدين ، وأصله التهويش وهو التخليط . [لسان العرب ـ مادة : شوش] .

وهكذا فالاقتسام الذى استقبل به الكفار القرآن سبق وأنْ حدث مع الرسل الذين سبقوك[1] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



وكلمة (عضين) تعنى القطع ؛ فيُقال للجزار حين يذبح الشاة أو العجل أنه قد جعله عضين . أى : فصَلَ كُلَّ ذراع عن الآخر ، وكذلك قطع الفخذ ؛ أى : أنه جعل الذبيحة قِطَعاً قِطَعاً بعد أنْ كانت أعضاء مُتصلة .

وكذلك كان القرآن حينما نزل كياناً واحداً ؛ فأراد بعض من الكفار أن يُقطِّعوه إلى أجزاء . والمقصود هنا هم جماعة من اليهود

---

(١) اختلف فى المقتسمين على سبعة أقوال :

الأول : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا الطرق المؤدية إلى مكة يقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ، فإنه مجنون . قاله مقاتل والفراء .

الثانى : قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . قاله قتادة .

الثالث : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . قاله ابن عباس .

الرابع : أهل الكتاب - أيضاً - سموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم هذه السورة لى وهذه السورة لك . قاله عكرمة .

الخامس : أهل الكتاب - أيضاً - قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرفوه . قاله قتادة .

السادس : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين . قاله زيد بن أسلم .

السابع : هم قوم اقتسموا أيماناً تحالفوا عليه . قاله الأخفش .

[ذكر هذه الأقوال القرطبى فى التفسير ٥/٣٧٨٢] .

وجماعة من النصارى الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وارادوا أنْ يُقطِّعوا القرآن كما فعلوا مع الكتابين اللذين نزلا على موسى ، وهما التوراة ؛ والإنجيل الذى جاء به عيسى .

وقد قال الحق سبحانه فيهما :

﴿وَنَسُوا حَظًّا[1] مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ..(١٣)﴾ [المائدة]

أى : أن بعضاً من اليهود قد نَسُوا بعضاً من التوراة ، وكذلك نسى البعض من أتباع عيسى بعضاً من الإنجيل الذى نزل عليه .

وإنْ وجدنا لهم العذر فى النسيان ؛ فماذا عن الذى كتموه من تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى بدَّلوه وحرَّفوه من كلمات تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى أضافوه عليه ، ولم ينزل من عند الله ؟ وقد فضح سبحانه كل ذلك فى القرآن[2] .

أو : أن اليهود استقبلوا القرآن استقبالَ مَنْ يُصدِّق بعضه مِمّا

---

(١) الحظ : النصيب ، والمقدار المخصص من الخير . [القاموس القويم ١/١٦١] .

(٢) تعامل أهل الكتاب مع القرآن بطرق مختلفة :

١ – الكتمان : يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة] .

٢ – التبديل والتحريف : يقول تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (٥٩)﴾[البقرة] . وقال تعالى : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ [البقرة] .

٣ – لَىّ اللسان : يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾ [آل عمران] .

٤ – الإضافة : يقول تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧٩)﴾ [البقرة] .

لا يتعبهم ، وكذَّبوه فى البعض الذى يتعبهم ، فقد كذَّبوا مثلاً أن كتابهم قد بشَّرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن عضين ؛ أى : قطعاً مفصولة عن بعضها البعض ، وقد حاولوا ذلك بعد أن تبيّن لهم أن القرآن مُؤثّر وفاعل .

وشاء الحق سبحانه للقرآن أن يحمل النذارة والبشارة ؛ فالرسول نذير بالقرآن المبين الواضح لمَن اقتسموا الأمر بالنسبة لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقسْم منهم تفرَّغ للاستهزاء بمحمد ومَنْ آمنوا معه ؛ وجماعة أخرى قسَّمتْ أعضاءها ليجلسوا على أبواب مكة أثناء موسم الحج ، ويستقبلون القادمين للحج من البلاد المختلفة ليحذروهم من الاستماع لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ومن هؤلاء مَنْ وصف الرسولَ ﷺ بالجنون ؛ ومنهم مَنْ وصف القرآن بأنه شِعْر ؛ ومنهم مَنْ وصفَ الرسول بأنه ساحر .

ثم يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وهنا يُقسِم الحق سبحانه بصفة الربوبية التى تعهدتْ رسوله بالتربية والرعاية ليكون أهلاً للرسالة أنه لن يُسلِمه لأحد ، وهو سبحانه مَنْ قال :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

أى : أن كل رسول هو مصنوع ومَحْمىّ بإرادته سبحانه ؛ وتلك

عناية العماية للمنهجية الخاصة ، وعناية المصطفين الذين يحملونَ رسالته إلى الخلْق ؛ فقد رزق سبحانه خَلْقه جميعاً ؛ والرسل إنما يأتون لمهمة تبليغ المنهج الذى يُدير حركة الحياة ؛ لذلك لا بد أن يُوفِّر لهم الحق سبحانه عناية من نوع خاص .

وقوْل الحق سبحانه هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) ﴾ [الحجر]

يُبيِّن لنا أنه سيسألهم سبحانه عن أدقِّ التفاصيل ؛ ومجرد توجيه السؤال إليهم فيه لَوْن من العذاب .

ويحاول البعض ممَّنْ يريدون أنْ يعثروا على تعارض فى القرآن أن يقولوا : كيف يقول الله مرة :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ (٣٩) ﴾ [الرحمن]

ويقول فى أكثر من موقع بالقرآن أنه سيسأل هؤلاء المُكذِّبين ؛ فكيف يُثبِت السؤالَ مرة ، وينفيه مرة أخرى ؟

ونقول لهؤلاء : أنتم تستقبلون القرآن بسطحية شديدة ، فهذا الذى تقولون إنه تعارض إنما هو مجرد ظاهر من الأمر ، وليس تعارضاً فى حقيقة الأمر .

ونحن نعلم أن السؤال - أىّ سؤال - له مُهمتان ، **المُهمة الأولى** : أن تعلم ما تجهل . **والمهمة الثانية** : لتقرَّ بما تعلم .

والحق سبحانه حين ينفى سؤالاً فهو ينفى أن أحداً سيُخبره بما لا يعلم سبحانه ؛ وحين يثبت السؤال ؛ فهذا يعنى أنه سيسألهم سؤالَ الإقرار .

وهكذا نعلم أن القرآن إذا أثبت حدثاً مرة ونفاه مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، أى : أن جهة النفى غَيْر جهة الإثبات ، وكُلٌّ منهما لها معنًى مختلف .

وقوله هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى أن الضَّال والمُضلّ ، والتابع والمتبوع سَيُسألون عمَّا عملوا . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

والعمل كما نعلم هو اتجاه جارحة إلى مُتعلّقها ؛ فجارحةُ العين مُتعلّقها أنْ ترى ؛ وجارحةُ اللسان مُتعلّقها أن تتكلم ، وجارحةُ اليد إما أنْ تُربِّت ، وإما أنْ تبطشَ .

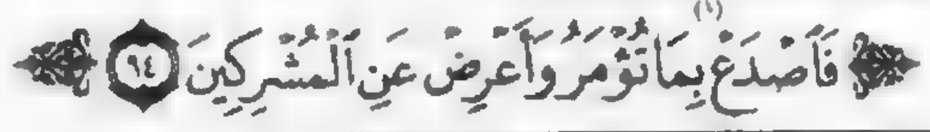
وهكذا فكُلُّ ما تصنعه ملكَاتُ الإدراك فى النفس البشرية نُسمِّيه عملاً . وسبق أن علمنا أن العمل ينقسم إلى قول وفعل .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

أى : تذكّروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شىء ، وأن كل ما تعملونه يعلمه ، وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



﴿ فَاصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

(١) صدع بالأمر : جهر به فى قوة كأنه يشق جدار الصمت والسكون . والصدع : الشق فى الشىء الصلب أو فى غيره كالأرض مثلاً . [القاموس القويم ١/٣٧٠] .

أى : افرغ لمهمتك ؛ فالصَّدع تصنع شقاً فى متماسك ، كما نشق زجاجاً بالمشرط الخاص بذلك ، أو ونحن نصنع شقاً فى حائط . والرسول ﷺ قد جاء ليشقَّ الكفر ويهدم الفساد القوى المتماسك الذى يَقْوى بقوة صناديد قريش .

وقد شاع ذلك المصطلح « الصدع » فى الزجاج ؛ لأن أىَّ شقٍّ فى أىِّ شيء من الممكن أنْ يلتئمَ إلا فى الزجاج ؛ لأنه يصعب أن يجمع الإنسان الفتافيت والقطع الصغيرة التى تنتج من صدعه ، وقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر]

أى : أعْطهم عرض كتفيك ، ولا تسأل عنهم ؛ فَهُم لن يُسلموا لك ، ذلك أنهم مستفيدون من الفساد الذى جئْتَ أنت لتهدمه ، ولكنهم سيأتون لك تباعاً بعد أن تتثبت دعوتُك ، وتصل قلوبهم إلى تيقُّن أن ما جئتَ به هو الحق .

والمثل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ فقد قالا : « لقد استقر الأمر لمحمد ، ولم تَعُدْ معارضتنا له تفيد أحداً »[1] ، ودخلاَ الإسلام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) أورد الكاندهلوى معنى هذا فى كتابه « حياة الصحابة » (١/١٤٠) فى قصة إسلام خالد بن الوليد أنه قال : « إنما نحْن كالضرس وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف » .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

فبعد أنْ قال له :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر]

وبعد أن ثبت لكل مَنْ عاش تلك الفترة أن كل مُسْتهزيء بمحمد ﷺ قد ناله عقاب من السماء . فها هو ذا الوليد بن المغيرة الذي يتبختر في ثيابه ؛ فيسير على قطعة من الحديد ، فيأنَفُ أنْ ينحنيَ ليُخلِّص ثوبه الذي اشتبك بقطعة الحديد ؛ فتُجرح قدمه وتُصاب بالغرغرينا ويقطعونها له ، ثم تنتشر الغرغرينا في كُلِّ جسده إلى أنْ يموتَ .

وها هو الثاني الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض في عينيه ؛ ويُصاب بالعمَى ، وكذلك الحارث بن الطلاطلة ، والعاص بن وائل[1] .

وكل مُسْتهزيء برسول الله ﷺ قد ناله عقابٌ ما ، ومَنْ لم تُصبْه عاهة أو آفة صرعتْه سيوف المسلمين في بدر ، لدرجة أن رسول الله ﷺ قد حدد المواقع التي سيلْقَى فيها كل واحد من صناديد قريش حَتْفه ؛ فقال : هنا مصرع فلان ، وهناك مصرع فلان[2] .

وقد أوضح ﷺ تلك المواقع من قبل أن تبدأ المعركة ، ونعلم أن الحرب تتطلب كَرّاً وفرّاً ، ولكن ما تنبأ به رسول الله ﷺ قد حدث بالضبط .

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٥/٣٧٨٥) بعض هذه الوقائع عن عاقبة هؤلاء المستهزئين برسول الله ﷺ .

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله » قال عمر : فو الذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدَّ رسول الله ﷺ » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٣) ، وأحمد في مسنده (٢/٢١٩) .

ويُحدِّد الحق سبحانه نوعية هؤلاء المستهزئين بقوله :

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أى : أن هؤلاء المشركين الذين يَهْزءون بك لهم عذابهم ؛ ذلك أنهم أشركوا بالله سبحانه ، وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الحجر]

ففى هذا القول استيعاب لكل الأزمنة ، أى : سيعلمون الآن ومن بعد الآن ، فكلمة « سوف » تتسع لكل المراحل ، فالحق سبحانه لم يأخذهم جميعاً فى مرحلة واحدة ، بل أخذهم على فترات .

فحين يأخذ المُتطرِّف فى الإيذاء ؛ قد يرتدع مَنْ يُؤْذِى ، ويتراجع عن الاستمرار فى الإيذاء ، وقد يتحوَّل بعضهم إلى الإيمان ؛ فمَنْ كانت شِدَّته على رسول الله ﷺ تصبح تلك الشدة فى جانب الرسول ﷺ .

وها هو المثَلُ واضح فى عكرمة بن أبى جهل[1] ؛ يُصَاب فى موقعة اليرموك ؛ فيضع رأسه على فَخِذ خالد بن الوليد ويسأله : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ﷺ ؟ فيرد خالد : « نعم » . فيُسلِم الروح مُطْمئناً .

---

(١) قال ابن حجر فى الإصابة (٢٥٨/٤) : « كان كأبيه من أشد الناس على رسول الله ﷺ ثم أسلم عكرمة عام الفتح وخرج إلى المدينة ثم إلى قتال أهل الردة ووجهه أبو بكر الصديق إلى جيش نعمان فظهر عليهم ثم رجع فخرج إلى الجهاد عام وفاته فاستشهد يوم اليرموك » .

وهؤلاء المستهزئون : قد أشركوا بالله ؛ فلم تنفعهم الآلهة التى أشركوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكد لهم ذلك ؛ فَهُمْ يتأكدون من صدق رسول الله ﷺ فيما أبلغ عن الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وفى هذا القول الكريم يتجلّى تقدير الحق سبحانه لمشاعر النبوة ، فالحق يُكلّفه أنْ يفعلَ كذا وكذا ، وسبحانه يعلم أيضاً ما يعانيه ﷺ فى تنفيذ أوامر الحق سبحانه .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فأنت يا رسولَ الله أكرم من أنْ تكذبَ ، فقد شهدوا لك بحُسْن الصدق عبر معايشتهم لك من قبل الرسالة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر]

ومعنى ضيق الصدر أنْ يقلّ الهواء الداخل عَبْر عملية التنفُّس إلى الرئتين ؛ فمن هذا الهواء تستخلص الرئتان الأوكسجين ؛ وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ؛ ويعمل الأكسجين على أنْ يُؤكسدَ الغذاء لِينتجَ الطاقة ؛ فإنْ ضاق الصدْر صارت الطاقة قليلة .

والمثَل يتضح لِمَنْ يصعدون السُّلَّم العالى لأىّ منزل أو أىّ مكان ؛ ويجدون أنفسهم ينهجون[1] ؛ والسبب فى هذا النهَج هو أن الرئة تريد أنْ تُسرِع بالتقاط كمية من الهواء أكبر من تلك التى تصل إليها ، فيعمل القلب بشدة أكثر كى يُتيح للرئةِ أن تسحبَ كميةً أكبر من الهواء .

أما مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الذى يتيح للرئة أن تأخذَ الكمية التى تحتاجها من الهواء ، فلا ينهج صاحب الصدر الواسع .

فكان رسول الله ﷺ حين كان يُكذِّبه أحد ، أو يستهزىء به أحد كان يضيق صَدْره فتضيق كمية الهواء اللازمة للحركة ؛ ولذلك يُطمئنه الحق سبحانه أن مَدَده له لا ينتهى .

وأنت تلحظ عملية ضيق الصدر فى نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه ؛ فيقول لك : لماذا يضيق صدرك ؟ وَسِّع صدرك قليلاً .

والحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

أى : يُوسِّع صدره ، وتزداد قدرته على فَهْم المعانى التى جاء بها الدين الحنيف .

ويقول أيضاً :

---

(١) نهج الرجل نهجاً فى النفس : هو تواتر النفس من شدة الحركة . [لسان العرب ـ مادة : نهج] .

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا[1] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ[2] فِي السَّمَاءِ ..(١٢٥)﴾ [الأنعام]

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكأن فيها مجاهدةً ومكابدةً ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدتَ إلى أعلى وجدتَ الهواء أكثرَ نقاءً .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى في الفضاء فلن يجد هواء .

ويدلُّ الحق سبحانه رسوله ﷺ على علاج لمسألة ضيق الصدر حينَ يُحزنه أو يؤلمه مُكذِّب ، أو مُستهزِيء ؛ فيقول سبحانه :

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨)﴾

وهكذا يمكن أن تُذْهب عنك أيَّ ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاكَ البشْر أو ضايقك الخلْق ؛ فاعلم أنك قادر على الأُنْس بالله عن طريق التسبيح ؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسبِّح ربك فأنت تُنزِّهه عن كُلِّ شيء وتحمده ، لتعيش في كَنَف رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر :

﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات]

ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المُسبِّب .

---

(١) الحرج : الضيق . وحرج صدره : ضاق فلم ينشرح لخير . [لسان العرب ـ مادة : حرج] .
(٢) يصعد : أي يتصعد يرتفع في السماء . والصَّعَد : المشقة . ويقال : تصعَّده الأمر إذا شق عليه وصعب . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص في الذات أو في الصفات أو في الأفعال ، وسبحانه كاملٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تُشْبِه أيَّ ذات ، وصفاته أزلية مُطْلقة ، أما صفات الخَلْق فهي موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكمَ لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جَلَّ وعَلا يقول في مسألة التسبيح :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

وهو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم]

وكُلٌّ من المساء والصباح آية منه سبحانه ؛ فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذْنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذي لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً .

فكان سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزعَ إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يأوى إلى رُكْن شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشرحون هذه القضية ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جَفْوة الخَلْق لهم ؛ فيقولون : إذا أوحشك من خَلْقه فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به » .

وأنت حين تُسبِّح الله فأنت تُقِرّ بأن ذاته ليستْ كذاتك ، وصفاته

ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك ؛ وكل ذلك لصالحك أنت ؛ فقدرتك وقدرة غيرك من البشر هى قدرة عَجْزٍ وأغيار ؛ أما قدرته سبحانه فهى ذاتية فيه ومُطْلقة وأزلية ، وهو الذى يأتيك بكُل النِّعم .

ولهذا فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزَّه عن أنْ يكونَ مثلك ، والحمد لله واجب فى كل وقت ؛ فسبحانه الذى خلق المواهب كلها لتخدُمَك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه تلك الموهبة ؛ فخيرُ تلك النعمة يصل إليك .

وحين تُسبِّح بحمدِ الله ؛ فسبحانه لا يُخلف وَعْده لك بكل الخير ؛ فكلُّنا قد نُخلف الوعد رغماً عنَّا ، لأننا أغيار ؛ أما سبحانه فلا يُخلف وعده أبداً ؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْتَ الله وحمدته .

وزِدْ خضوعاً للمُنْعِم ، فاسجُدْ امتثالاً لأمره تعالى :

﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر]

فالسجود هو المَظْهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان ـ كما نعلم ـ هو ما تظهر به الوجاهة ؛ وبه تَلَقِّى الناس ؛ وهو أول ما تدفع عنه أيَّ شيء يلوِّثه أو ينال من رضاك عنه .

ومَنْ يسجد بأرقى ما فيه[1] ؛ فهذا خضوع يُعطى عزّة ، ومَنْ يخضع لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل

---

(١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض » أخرجه الدارقطنى فى سننه (١/٣٤٨) والحاكم فى مستدركه (١/٢٧٠) وقال : « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » . وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/٣٢٢) من طريق آخر بلفظ : « من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تجز صلاته » .

أَوْجُه السجود ، وكلُّنا نذكر قَوْل الشاعر :

وَالسُّجود الذِى تَجْتوِيه[1] فيهِ مِـــنْ ألوفِ السُّجودِ نَجَاةٌ

والسجود هو قمة الخضوع للحق سبحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية ؛ لأن تاريخ البشرية حمل كثيراً من المظالم نتيجة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطى ـ كما نعلم ـ خَيْر العبد للسيد ؛ ولكن العبوديةَ لله تعطى خَيْره سبحانه للعباد ، وفى ذلك قِمّة التكريم للإنسان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ (٩٩)

ونعرف أن العبادة هى إطاعة العابد لأوامر المعبود إيجاباً أو سَلْباً ، وتطبيق « افعل » و « لا تفعل » ، وكثيرٌ من الناس يظنون أن العبادة هي الأمور الظاهرية فى الأركان الخمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ؛ وصوم رمضان ، وحِجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً .

ونقول : لا ، فهذه هى الأسس التى تقوم عليها العبادة . أى : أنها البِنْية التى تقوم عليها بقية العبادة ، وهكذا تصبح العبادة هى ، كُل ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أى : أن حركة الحياة كلها ـ حتى كَنْس الشوارع ، وإماطة[2] الأذى عن الطريق ـ هى عبادة ،

---

(١) يُقال : اجتويت المكان : إذا كرهت المقام فيه وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوا] .

(٢) إماطة الأذى : إبعاده وتنحيته جانباً . [المعجم الوجيز ـ مادة : ميط] .

وكل ما يُقصد به نَفْع الناس عبادة ، كى لا يصبح المسلمون عالةً على غيرهم .

وفى إقامة الأركان إظهارٌ لقوة المسلمين ، حين يُظهرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فَوْر أنْ يسمعَ النداء بـ « الله أكبر » فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .

وحين يصوم المسلم شهراً فى السنة ؛ فهو يُعلن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُبَاحة ؛ وأوّل ما يأتى موعد الإمساك من قَبْل صلاة الفجر بقليل ؛ فهو يمتنع فوراً .

وهذا الامتثال لأوامر الحق سبحانه يُذكّرك بنعمه عليك ؛ فأنت فى يومك العادى لا تقرب المُحرّمات التى أخذتْ وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحدَ من المسلمين يُفكّر فى شُرْب الخمر ؛ ولا أحدَ منهم يُفكّر فى لعب المَيْسر ، وانطبعتْ تلك الأمور ؛ وصارتْ عادة سلوكية فى إلْف ورتَابة عند غالبية المسلمين ممّنْ يُنفّذون شريعة الله ، ويُطبّقون « افعل » و « لا تفعل » .

وعندما يأتى الصوم فأنت تمتنع عن أشياء هى حلال لك طوال العام ، وتقضى أى نهار فى رمضان ونفسُك تستشرف سماع آذان المغرب لِتُفطر .

وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك ليعُوّدك على الكثير من الطاعات التى تصير عند المؤمنين عادةً ؛ وسبحانه يريد أنْ يُديم عليك لذّة التكليف العبادى .

وبعضٌ من الناس يذهبون مذاهب الخطأ عندما يفسرون بأهوائهم قوله الحق :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر]

ويقول الواحد من هؤلاء مخادعاً الغير « لقد وصلت إلى مرتبة اليقين » ، ويمتنع عن أداء الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحجٍّ إلى بيت الله الحرام رغم استطاعته ، ويدَّعِي أن التكليف قد سقط عنه ؛ لأن اليقين قد وصله .

ونقول لمن يدعي ذلك : أتُخادع الله ورسوله ؟ وكُلُّنا يعلم أن رسول الله ﷺ ظَلَّ يُؤدِّي الفرائض حتى آخر يوم في حياته . وكلُّنا يعلم أن اليقين المُتفق عليه والمُتيقن من كل البشر ، ولا خلافَ عليه أبداً هو الموت .

أما اليقين بالغيبيات فهو من خُصوصيات المؤمن ؛ فما أنْ بلغه أمرها من القرآن فقد صدَّقها ، ولم يسأل كيف يتأتَّى أمرُها . والمثَلُ الواضح هو أبو بكر الصديق حينما كانوا يُحدِّثونه بالأمر الغريب من رسول الله ﷺ ، فكان يقول « ما دام قد قال فقد صدق » .

أما الكافر - والعياذ بالله - فهو يشكُّ في كل شيء غيبيّ أو حتى ماديّ ما لم يكن محسوساً لديه ، ولكن ما أنْ يأتيه الموت حتى يعلمَ أنه اليقين الوحيد .

ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت »[1] .

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٣٧٨٧/٥) وتمام الأثر : « ثم لا يستعدون له » .

وكلنا نتيقن أننا سوف نموت ؛ لكنَّا نُزحزح مسألة اليقين هذه بعيداً عنَّا رَغْم أنها واقعةٌ لا محالة . فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هي اللحظة التي لا ينفع فيها شيء إلا عمل الإنسان إنْ كان مؤمناً مُؤدّياً لحقوق الله .

ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تبلغك به .

أما عَيْن اليقين ؛ فهي التي ترى الحدث فتتيقّنه ، أو هو أمر حقيقيّ يدخل إلى قلبك فتُصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدِّقه تصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذِّهْن ليُناقَش من جديد ، وله مصادر علْم ممَّنْ تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذبِ أبداً ؛ وهذا هو « علم اليقين » ؛ فإنْ رأيتَ الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .

والمؤمن يُرتِّب تصديقه وتيقّنه على ما بلغه من رسول الله ﷺ .

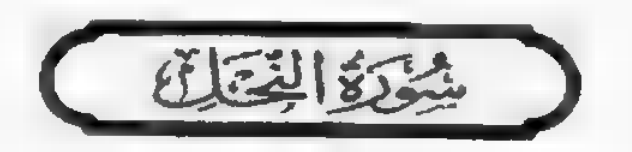
وها هو الإمام عليّ - كرَّم الله وجهه وأرضاه - يقول : « ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التي حدَّثنا بها رسول الله غيباً ما ازددتُ يقيناً » .

وها هو سيدنا حارثة - رضي الله عنه - يقول : « كأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهلَ النار في النار يُعذَّبون ، فيقول له رسول الله ﷺ : « عرفت فالزم »[1] .

وذلك هو اليقين كما آمنَ به صحابة رسول الله ﷺ .

---

(١) أورده ابن حبان في المجروحين (١/١٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، في ترجمة أحمد بن الحسن بن أبان المصري . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به .


سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ ﴾

هكذا تبدأ السورة[1] الجليلة ؛ مُوضِّحةً أن قضاءَ الله - وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شكَّ فيه ولا محَالة ؛ وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ، ولا مَفرَّ منها إنْ هُم استمرُّوا على الكفر .

---

(١) سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۝١٢٦ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾ [النحل] قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٧٨٩) : « وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده » . جاء في تفسير أبي السعود بتصرف في قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١ ﴾ [النحل] قال : إنها الساعة وما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة ، فقد عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل ولابد أن يحققه في نفسه وإثباته منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيانه عبارة تدل عن دنوه واقترابه بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١ ﴾ [النحل] وفيه بلاغة . كلمة ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ۝١ ﴾ [النحل] فعل ماضٍ يدل على زمن مضى ولكن قوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١ ﴾ [النحل] يشير إلى أن أمر الله سابق وواقع لا محالة وله وقته المحدد ، والتعبير بالماضي عن المضارع والعكس ضرب من بلاغة القول في الاستعارة التبعية في الأفعال « المنهاج الواضح في البلاغة » .

وقد سبق أنْ أنذرهم الرسول ﷺ بما نَزَل عليه من آيات الكتاب ؛ أنذرهم في السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوى ، كنصر الإيمان على الكفر ، وأنذرهم مِنْ قَبْل أيضاً ببعض العذاب في الآخرة ، كقوْل الحق سبحانه :

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ[1] فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾ [غافر]

وكذلك قوله الحق :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر]

وهكذا وعد الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يهزِم معسكر الكفر ، وأنْ ينصرَ معسكر الإيمان ؛ وإما أنْ يرى ذلك بعينيه أو إنْ قبض الحق أجلَه فسيراها في الآخرة .

وعن حال الرسول ﷺ قال سبحانه :

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر]

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم في جهنم في اليوم الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ۝١﴾ [النحل]

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذِرون به ، كما قال مرة :

---

(١) توفي الله فلاناً : أماته وقبض روحه . ويسند التوفي لله عز وجل ، أو يسند للملك : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. ۝١١﴾ [السجدة] وقد يُسند التوفّى إلى الموت نفسه . قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .. ۝١٥﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] .

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ[1] الْقَمَرُ ①﴾ [القمر]

أى : اقتربتْ ساعة القيامة التى يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لِمَنْ كفر ، والجنة لِمَنْ آمنَ وعمل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غَيْر مُخيف فى ذاته ، بل مُخيف لِمَا فيه من الحساب والعقاب .

وقيل : إن أهلَ الكُفْر لحظة أنْ سَمِعوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ①﴾ [القمر]

قالوا : « فلننتظر قليلاً : فقد يكون ما يُبلِّغ به محمد صحيحاً » وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تَأْتِ الساعة كما بَشَّر الرسول الكريم ﷺ قالوا : انتظرنا ولم تَأْتِ الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه :

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء]

وهذا حديث عن الأمر الذى سيحدث فَوْرَ قيام الساعة ، فهادنوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أيْنَ الحساب إذن ؟ فنزل قوله تعالى :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ①﴾ [النحل]

وساعة سَمِع الكُلُّ ذلك فَزِعوا ؛ بمن فيهم من المسلمين ؛ وجاء الإسعاف فى قوله من بعد ذلك :

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل]

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٢) كتاب المنافقين .

أى : أن الأمر الذى يُعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعادَه إلا اللهُ سبحانه ؛ واطمأنَّ المسلمون[1] .

وكُلُّ حدث من الأحداث - كما نعلم - يحتاج كُلٌّ منها لظرفيْن : ظرف زمان ؛ وظرْف مكان . والأفعال التى تدلُّ على هذه الظروف إما فعلٌ مَاضٍ ؛ فظرفُه كان قبل أن نتكلَم ، وفعلٌ مضارع . أى : أنه حَلَّ ، إلا إنْ كان مقروناً بـ « س » أو بـ « سوف » .

أى : أن الفعل سيقع فى مستقبل قريب إنْ كان مقروناً بـ « س » أو في المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبوقاً بـ « سوف » ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يُخبرك به - وهو الله سبحانه - إنما يُخبِرك بشيء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبِر به ، والبشر قد يتكلَّمون عن أشياءَ وقعتْ ؛ ويُخبِرون بها بعضَهم البعض .

ولكن المتكلِّم هنا هو الحقُّ سبحانه ؛ وهو حين يتكلَّم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص علْمه أبداً ، وهو علم أزَليٌّ ، وهو قادر على أنْ يأتيَ المستقبل وَفْق ما قال ، وقد أعدَّ توقيت ومكان كُل شيء من قبل أنْ يخلقَ ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أى شيء ؛ فالخلْق صفة ذاتية فيه ؛ وهو مُنزَّه فى كل شيء ؛ ولذلك قال :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ .. ①﴾ [النحل]

أى : أنه العليمُ بزمن وقوع كُلِّ حدَث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قَبْل أنْ يوجد الخَلْق ؛ فهو القائل :

---

(١) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٥٩) . والقرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٩٠) وعزواه لابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ[1] ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .

أى : أنه مُسبَّح به من قَبْل خَلْق السماوات والأرض ، وهو القائل سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحشر]

ولكن هل انتهى التسبيح ؟ لا ، بل التسبيح مُستمِرّ أبداً ، فهو القائل :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة]

إذن : فقد ثبتتْ له « السُّبْحانية » فى ذاته ، ثم وجد الملائكة يُسبِّحون الليلَ والنهارَ ولا يفترُون ، ثم خلق السماء والأرض ، فسبَّح ما فيهما وما بينهما ؛ وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً ـ فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سبِّح كما سبَّح كُلُّ الكون .

ولقائل أنْ يسألَ : وما علاقة « سبحانه وتعالى » بما يُشركون ؟ ونعلم أنهم أشركوا بالله آلهةً لا تُكلِّفهم بتكليف تعبُّدى ، ولم تُنزِل منهجاً ؛ بل تُحلِّل لهم كُلَّ مُحرَّم ، وتنهاهم عن بعض من الحلال ، وتخلوْا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسل مُبلِّغين عن الله من تكليف يحمل مشقَّة الإيمان .

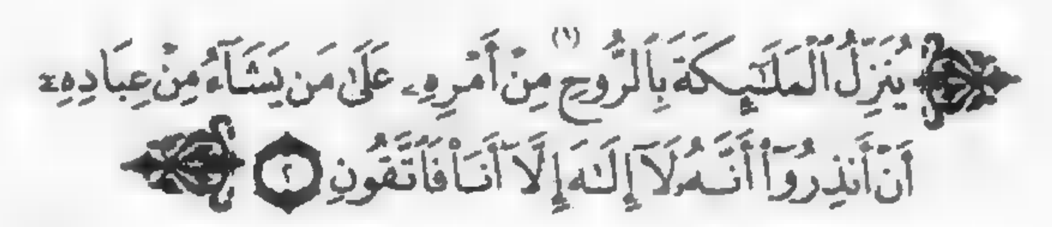
وهؤلاء هم مَنْ سيلقوْنَ الله ، وتسألهم الملائكة : أين هم الشركاء الذين عبدتموهم مع الله ؟ ولن يدفَع عنهم أحدٌ هَوْلَ ما يلاقونه من العذاب .

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشيء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

وهكذا تعرَّفْنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمر ثابتٌ له قَبْل أنْ يُوجَد شيء ، وأمرٌ قد ثبتَ له بعد الملائكة ، وثبتَ له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قسْم آمن وسبَّح ، وقِسْم لم يُسبِّح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشْركون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ[1] مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢ ﴾

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ فالكلمة تُوحي وتوضِّح أن هناك عُلواً يمكن أن ينزلَ منه شيء على أسفل . والمَثلُ الذى أحبَّ أنْ أضربه هنا لأوضحَ هذا الأمر هو قوْل الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ .. ۝١٥١ ﴾ [الأنعام]

أى : أقبلوا لتسمعوا منِّى التكليفَ الذى نزل لكم ممَّنْ هو أعلى منكم ، ولا تظلُّوا فى حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تساموا وخُذوا الأمر ممَّنْ لا هَوىَ له فى أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خَلْق غيبىّ آمنَّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكُلّ ما غاب عن الذِّهْن

(١) بالروح . أى : بالوحى وهو النبوة . وقيل : أرواح الخلق . قاله مجاهد . لا ينزل ملك وإلا ومعه روح . وقيل : بالرحمة . قاله الحسن وقتادة وقيل : بالهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح والأبدان . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٩١] .

ودليله السماع مِمَّنْ نثق بصدقه ، وقد أبلغنا ﷺ ما نزلَ به القرآن وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم ؛ ورغم أننا لا نراهم إلا أننا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق الصَّدُوق محمد ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. ﴿٢﴾ ﴾

[النحل]

فنحن نعلم أنه لا يمكن أنْ ينزلَ شيءٌ من أعلى إلى الأدْنى إلا بواسطة المُقرّبات .

وقد اختار الحق سبحانه ملكاً[1] من الملائكة لِيُبلِّغ رُسُله بالوحي من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

[الأنبياء]

ويقول في آية أخرى :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

وهم من نور ، ولا تصيبهم الأغيار ، ولا شهوةَ لهم فلا يتناكحون ولا يتناسلون ؛ وهم أقربُ إلى الصَّفَاء . وهم مَنْ يُمكِنهم التلقِّي من الأعلى ويبلغون الأدْنى .

---

(١) المقصود هنا جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] قال ابن كثير في تفسيره (٣٤٧/٢) : « هو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف ، وهذا مما لا نزاع فيه » .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن :

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ .. (٢)﴾ [النحل]

والآية الإجمالية التى تشرح ذلك هو قَوْلُ الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي [1] مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)﴾ [الحج]

أى : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقّى منه ليُعْطوا المصطفين من الناس ؛ ليُبلّغ هؤلاء المُصْطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العُلْويات العالية لا يملك الكائن الأدْنى طاقة ليتحمّل ما تتنزّل به الأمور العُلْوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أنْ شبّهْت ذلك بالمُحوّل الذى نستخدمه فى الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأدْنى من المصابيح ، وكلّنا يعلم ما حدث للرسول ﷺ حين تلقّى الوحى عبر جبريل عليه السلام « فَضمّنى حتى بلغ منّى الجهد » ، وتفصّد [2] جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول « زملونى زملونى » و « دثرونى دثرونى » [3] .

---

(١) اصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

(٢) تفصد عرقاً : سال عرقاً . [لسان العرب - مادة : فصد] .

(٣) زمله بالثوب : لفّه به فتزمل به وتلفّف به . ومنه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ [المزمل] نداء يذكر الرسول بقوله « زملونى » عند بدء الوحى . ذكره الله تعالى للإيناس والملاطفة ، وفيه توجيه إلى ترك النوم وترك الراحة والقيام بواجبات الرسالة . [القاموس القويم ١/ ٢٩٠] . وحديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الوحى » من صحيحه « حديث رقم ٣ » من حديث عائشة رضى الله عنها .

ذلك أن طاقة عُلْوية نزلت على طاقة بشرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هي طاقة مُصْطفاة . ثم يألف الرسول الوحي وتخفّ عنه مثل تلك الأعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ[1] ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح]

ثم يفتر[2] الوحي لبعض من الوقت لدرجة أن النبي ﷺ يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحي وهو مَنْ قال « دثّروني دثّروني » ؟

لقد كان فُتور الوحي بسبب أنْ يتعوّد محمد ﷺ على متاعب نُزول المَلَك ؛ فتزولُ متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .

وقال بعض من الأغبياء : « إن ربَّ محمد قد قلاه[3] » .

فينزل قوله سبحانه :

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى]

---

(١) الوزر : همّك الذي أتعبك ، وهو همّ البحث عن الدين الحق . أو : يكون الوزر هو الذنب الذي كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] .

(٢) الفترة : الانكسار والضعف . فتر الشيء : سكن بعد حدّة ولان بعد شدة . والفتر : الضعف . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفي الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب - مادة : فتر] .

(٣) قلى فلاناً يقليه : أبغضه وجفاه . قال تعالى : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] ما أبغضك ولا جفاك . [القاموس القويم ٢/١٣٢] . وعن جندب بن عبدالله البجلي أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) .

وكلمة الروح وردتْ فى القرآن بمعَانٍ متعددة ، فهى مرّة الروح التى بها الحياة فى المادة ليحدث بها الحسّ والحركة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

وهذا النفْخ فى المادة يحدثُ للمؤمن والكافر ، وهناك رُوح أخْرى تعطى حياةً أعلى من الحياة الموقوتة :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أرْقى من الحياة التى نعيش بها ونتحرّك على الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة ؛ رُوح للحسّ والحركة ؛ وروح تُعطى القيم التى تقودنا إلى حياة أخرى أرْقى من الحياة التى نحياها ؛ حياةً لا فناءَ فيها .

ولذلك يُسمِّى الحق سبحانه القرآن روحاً ؛ فيقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]

ويُسمِّى الحق سبحانه الملَك الذى نزل بالقرآن روحاً ، فيقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

[الشعراء]

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أرْقى ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

أى : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موْتَ فيها ولا خَوْف أنْ تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمةُ .

وهنا يُبلّغنا سبحانه أن القرآن نزل مع الملائكة :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

والسَّطْحيون لا يلتفتون إلى أنَّ معنى :

﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

هنا تعنى أنهم يحفظُونه بأمر من الله .

والأمر هنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ هو ما جاء فى الآية الأولى منها :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل]

وهذا الأمر هو نتيجة لِمَا يشاؤه الله من حياة للناس على الأرض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر مُتعدِّدة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعمالهم . أو : المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون ، وإذا أراد منهجاً : فهو يُنزله ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعة ؛ فهو القائل ﴿ أتى أمْرُ الله ﴾ .

وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أمْر الله ﴾ هو ﴿ كُنْ فيكون ﴾ أى : إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود ؛ سواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكُلّ ذلك اسمه أمر ، ولحظةَ أنْ يأمرَ الله ؛ فنحن نَثِقُ أن مأمور الله يبرز ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] ②﴾ [الانشقاق]

أى : أنها لم تسمع الأمر فقط ؛ بل نفذته فَوْر صدوره ؛ دون أدنى ذرة من تخلُّف ، فأمْر الله يُنفَّذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه ، أما أمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى .

وسبحانه يُنزِّل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء ليُنذروا ؛ ولم يأتِ الحق سبحانه بالبشارة هنا ؛ لأن الحديث مُوجَّه للكفار فى قوله :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل]

ونزَّه ذاته قائلاً :

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾ [النحل]

أو : أن الحق يُنبِّه رسوله ، إنْ دخلتَ عليهم تفسِّر لهم مُبْهَم ما لا يعرفون . وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم بمَنْ يصطفى .

---

(١) حقّ له : ثبت له . حُقّت : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتمّ بمواصفات الحق سبحانه ؛ فهو القائل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وعُلم أن الكافرين قد قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال الحق سبحانه في رَدِّه عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فإذا كان الحق سبحانه قد قَسَّم بين الخَلْق أرزاقهم في معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بَعْض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوعَ مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتي هؤلاء في الأمور القِيَميّة المُتعلّقة بالروح وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً » ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضّح لرسوله : بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحي ، فعليك أنْ تُبلّغهم كلمة الله :

﴿ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل]

وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرسول أن يُسْدي لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إله ، ويُوضّح لهم أنْ لا إله إلا هو ؛ وعليهم أنْ يتقوه .

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٢٦) : « يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدى وابن زيد . (واختلفوا في المقصود بهذين الرجلين) . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

وفى هذا حنان من الحق على الخَلْق ، وهو الحق الذى منع الكائنات التى تعجبتْ ورفضتْ كُفْر بَعْضٍ من البشر بالله ؛ وطلبتْ أن تنتقمَ من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دَعُونى وخَلْقى ؛ إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبُهم ؛ وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل]

هو جماعُ عقائد السماء للأرض ؛ وجماعُ التعبُّدات التى طلبها الله من خَلْقه ليُنظِّم لهم حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً .

فكأن :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل]

هى تفسيرٌ لمَا أنزله الله على الملائكة من الرُّوح التى قُلْنا من قبل : إنها الروح الثانية التى يَجِىء بها الوَحْى ؛ وتحملُ منهجَ الله ليضمن للْمُعتنق حياة لا يزول نعيمها ولا المُتنعِّم بها ؛ وهى غَيْر الروح الأولى التى إذا نفخها الحق فى الإنسان ، فالحياة تدبُّ فيه حركةً وحِساً ولكنها إلى الفناء .

وكان الحق سبحانه من رحمته بخَلْقه أنْ أنزلَ لهم المنهج الذى يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أَسْرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أن حذرهم من المصير السيىء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ؛ ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا منْ مُحِبٍّ ؛ فسبحانه يُحب خَلْقه ، ويُحب منهم أنْ يكونوا إليه مخلصين مؤمنين ، ويحب لهم أنْ ينعموا فى آخرة لا أسبابَ فيها ؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة « كُنْ » من المُسبِّب .

فإذا قال لهم ﴿ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا .. ۝ ﴾ [النحل] فهو يُوضِّح أنه لا إله غيره ، فلا تشركوا بي شيئاً ، ولا تكذبوا الرسل وعليكم بتطبيق منهجي الذي يُنظِّم حياتكم وأجازي عليه في الآخرة .

وإياكم أنْ تغترُّوا بأنِّي خلقتُ الأسباب مُسخرة لكم ؛ فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب ؛ فقد أردتُ الدنيا بلاءً واختباراً ؛ وفي الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ ﴾ [غافر]

وظاهر الأمر أن المُلْك لله في الآخرة ، والحقيقة أن المُلْك لله دائماً في الدنيا وفي الآخرة ؛ ولكنه شاء أنْ يجعلَ الأسباب ـ المخلوقة بمشيئته ـ تستجيب للإنسان ؛ فإياك أنْ تظنَّ أنك أصبحتَ قادراً ؛ فأنت في الحياة تملك أشياء ، ويملكك مَلِك أو حاكم مثلك ؛ فسُنَّة الكون أنْ يوجدَ نظامٌ يحكم الجميع .

ولكن الآخرة يختلف الأمر فيها ؛ فلا مُلْكَ لأحد غير الله ، بل إن الأعضاء نفسها لا تسير بإرادة أصحابها بل بإرادة الحق ، تلك الأعضاء التي كانت تخضع لمشيئتك في الدنيا ؛ لا حُكْمَ لك عليها في الآخرة ، بل ستكون شاهدة عليك .

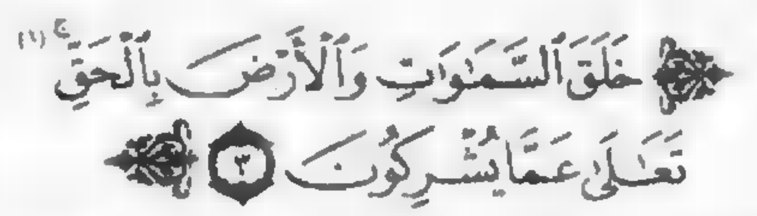
فإن كان الله قد أعطاك القدرة على تحريك الأعضاء في الدنيا ، فإنْ وجَّهتها إلى مأمور الله ؛ فأنت من عباده[1] ، وإنْ لم تُوجهها إلى مطلوب الله ، فأنت من عبيده .

وبعد ذلك يُقدِّم لك سبحانه الحيثية التي تُعزِّز أمره بعبادته

---

(١) العباد : هم عباد الرحمن ، والعبيد كل الناس ، فكل عابد عَبْد وليس كل عبد عابداً ، وقد يرْقَى العبيد إلى مقامات العباد بالعمل الصالح .

وحده ، وأنْ لا إله غيره ؛ فإنه لم يطلب أن نعبده إلا بعد أنْ خلق لنا السماوات والأرض ؛ وكل الكون المُعَد لاستقبال الإنسان بالحق ؛ أى بالشيء الثابت ؛ والقانون الذى ليس فى اختيار أحد سواه سبحانه ، ويقول سبحانه :



أى : تنزَّه سبحانه عمَّا يشركون معه من آلهة ، فلا أحدَ قد ساعده فى خَلْق الكون وإعداده ؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره ؟ وسبحانه مُنزَّه عن أنْ يكون معه آلهة أخرى ، وسبحانه قد خلق لنا من قبل أن يخلقنا ؛ خلق السماوات والأرض وقدَّر الأرزاق ، ولو نظرتَ إلى خَلْقك أنت لوجدت العَالَم الكبير قد انطوى فيك ؛ وهو القائل :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

وأنت مخلوق من ماذا ؟

ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ[2] مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾

---

(١) بالحق : أى للدلالة على قدرته سبحانه ، وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة ، وأن يُحى الخلق بعد الموت . [تفسير القرطبى ٣٧٩٢/٥] .

(٢) الخصيم : أى شديد الخصام . أى : مخاصم لله ولرسوله مبالغ فى إظهار خصومته وعداوته . [القاموس القويم ١٩٦/١] .

والنطفة التي نجيء منها ، وهي الحيوان المنويّ الذي يتزاوج مع البويضة الموجودة في رَحم المرأة فتنتج العلقة ، وسبحانه القائل :

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى[1] (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة]

بل إن القَذْفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الأنسال ما يكفي خَلْقَ الملايين ؛ ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوان المنويّ الواحد نظراً لدقّته المتناهية .

وهذه الدقّة المُتناهية لا يمكن أنْ تُرى إلا بالمجاهر المُكبّرة ، ومطمور في هذا الحيوان المنويّ كُل الخصائص التي تتحد مع الخصائص المَطْمورة في بُويْضة المرأة ليتكوّن الإنسان .

وقد صدق العقاد ـ يرحمه الله ـ حين قال : « إن نصف كستبان الخياطة لو مُلِيء بالحيوانات المنوية لَوُلِد منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم » .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينفُذَ إلى البويضة إلا الحيوانُ المنويّ القوي ؛ ليُؤكّد لنا أنْ لا بقاءَ إلا للأصلح ، فإنْ كان الحيوان المنويّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ؛ وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذَّكَر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مثل ذلك في النبات ؛ فأوّل حبّة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التي نعرفها ؛ وفي تلك الحبّة الأولى أوجد

---

(١) أي . أيحسب الإنسان أن يترك مهملاً غير مأمور وغير منهيّ . [لسان العرب ـ مادة سدا] .

الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أنْ تقومَ الساعة ، وتلك عظمةُ الحق سبحانه فى الخَلْق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خَلْق الإنسان : فهو :

﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧﴾ [السجدة]

وهو من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة[1] .

والحيوان المنوىّ المُسمّى « نُطْفة » هو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأنٌ بهذا التحديد ، وكان فى ذلك إشارةٌ إلى مهمة المرأة كسكَن ؛ لأن البُويْضة تتلقَّى الحيوان المنوىّ وتحتضنه ؛ ليكتمل النمو إلى أنْ يصيرَ كائناً بشرياً :

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭﴾ [المؤمنون]

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ㊱ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ㊲ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً .. ㊳﴾ [القيامة]

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرَّحِم كما أثبت العِلْم المعاصر ، ويقول سبحانه :

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. ⑭﴾ [المؤمنون]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ⑤﴾ [الحج] .

والمُضْغة هى الشىء المَمْضُوغ ؛ ثم يَصِف سبحانه المضغة بأنها :

﴿ مُخَلَّقَةٍ[1] وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ۝٥ ﴾ [الحج]

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المُضْغة المُخلّقة فيها ما يمكن أن يصير عيناً أو ذراعاً ؛ ولكن ماذا عن غير المُخلّقة ؟

ونقول : إنها رصيد احتياطىّ لصيانة الجسم ، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْت فأنت تشترى بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية ـ على سبيل المثال ـ تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار ؛ فما بالنا بالحق الذى خلق الإنسان ؟

لقد جعل الله تلك المُضْغة غير المُخلّقة[2] رصيداً لصيانة ، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف ؛ وتكون زائدة فى الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار .

والمثل هو الجروح التى تصيب الإنسان ، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه ، نجدها تلتئم دون أنْ تتركَ نَدْبة[3] أو علامة ، ذلك أنه قد تَمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التى أودعها الحق سبحانه فى الجسم نفسه .

---

(١) مخلقة : أى مُشكَّلة ومُصوَّرة على هيئة طفل . وغير مخلقة أى . غير مشكّلة ، أى غير تامة التصوير . [القاموس القويم ١/٢٠٧] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٠٦/٣) : « إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط » .

(٣) الندبة : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد . [لسان العرب ـ مادة : ندب] .

والمفاجأة هى أن هذا الإنسانَ المخلوق لله :

﴿ فإذا هُوَ خصيمٌ مُبِينٌ ④ ﴾ [النحل]

ويتمرَّد على خالقه ، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أن هناك إلهاً ؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يجادلونه . والخصيم هو الذى يُجادل ويُنكِر الحقائق ؛ فإذا حُدِّث بشىء غيبى ، يحاول أنْ يدحضَ معقوليته .

ويقول سبحانه فى سورة يس :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ⑰⑰ ﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك ؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاك فعَدَلك ، وفى أىِّ صورة ما شاء ركَّبك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ ﴾

والدِّفءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطى المحرور برودة، وهذا ما يفعله تكييف الهواء فى المنازل الحديثة . ونجد الحق سبحانه هنا قد تكلَّم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو فى آية أخرى يقول :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. ⑧① ﴾ [النحل]

---

(١) السرابيل : جمع سربال ، وهو ما يُلبس من قميص أو درع . [القاموس القويم ١/٣٠٨].

وهذا ما يحدث عندما نسير فى الشمس الحارة ؛ فنضع مِظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن فى الشتاء نلبس قلنسوة أى : نلفّ شيئاً حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشيء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسانُ اللباسَ المناسب للجوّ المناسب .

وفى الأنعام منافع كثيرة ؛ فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجُبْن والسمن ؛ ونجزّ الصوف لنغزل وننسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من ذريتها ؛ وكذلك نأكل لحومها .

و نحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها فى موقع آخر حين قال الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

وهى الضَّأن والمَعْز والإبل والبقر .

ونعلم أن الدِّفْء يأتى من الصُّوف والوَبَر والشَّعْر ، ومَنْ يلاحظ شعر المَعْز يجد كل شَعْرة بمفردها ؛ لكن الوبر الذى نجزه من الجمل يكون مُلبداً ؛ وهذا دليل على دِقّة فَتْلته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قَلْبها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



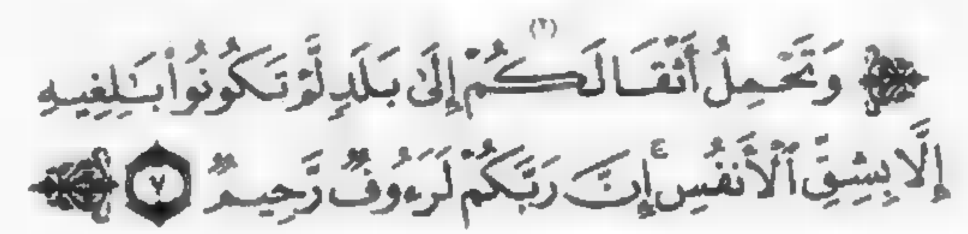
(١) الجمال : الحُسْن ، وما يُتجمّل به ويتزين . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٩٥) : « جمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئى بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها » .

وهنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالدِّفْء والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجَمال فهو من تَرَف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ، فيتحقق السرور في النفس . والدِّفْء والمنافع والأكل هي أمور خاصة لمَنْ يملك الأنعام ؛ أما الجمال فمشاع عَامٌّ للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ؛ أو البقرة المَزْهُوة بالصحة ؛ فأنت ترى نعمة الله التي خلقها لِتسُرّ الناظر إليها .

ونلحظ هذا الجمال في لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول في الريف « سرحت البهائم » أي : خرجتْ من الحظائر لترعى وتأكل . ونلحظ أن الحق سبحانه قد قدَّم الرَّواح أي العودة إلى الحظائر عن السُّروح ؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أنْ ترعى تكون بطونُها ممتلئةً وضُروعها رابيةً[1] حافلة باللبن ؛ فيسعد مَنْ يراها حتى قبل أنْ يطعمَ من ألبانها .

ومَنْ يخرج ببهائمه في الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائبها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومَنْ لا يملك يمكن أنْ يشاهدَ جمال تلك الأنعام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



---

(١) ربا الشيء يربو : زاد ونما . وأربيته : نميته . [لسان العرب - مادة : ربا] .

(٢) الثقل : الحمل الثقيل . والجمع أثقال مثل حِمْل وأحمال . [لسان العرب - مادة : ثقل] . فالأثقال : الأحمال الثقيلة .

ونعلم أن الإنسانَ فى حياته بين أمرين : إما ظَاعِن أى : مسافر ، وإما مقيم . وفى حالة المقيم ، فالأنعام تُحقِّق له الدِّفْء والطعام والملْبس . وعادةً ما يكتفى متوسطُ الحال بأنْ يستقرّ فى مكان إقامته وكذلك الفقير .

أما المُقْتدر الغنىّ : فأنت تجده يوماً فى القاهرة ، وآخر فى الإسكندرية ، أو طنطا ، وقد يسافر إلى الخارج ، وكلُّ ذلك ميسور فى زمن المواصلات الحديثة . وقديماً كانت وسائل المواصلات شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول قوية ، أما مَنْ لم يكن يملك إلا حماراً أعجف[1] فهو لا يفكر إلا فى المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبأ يقول :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ[2] .. ⑲﴾ [سبأ]

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خَيْل ووسائل سفر من دوابّ سليمة وقوية ، تُهيِّىء السفر المريح الذى ينمُّ عن العزِّ والقوة والثراء .

وقوله الحق :

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ .. ⑦﴾ [النحل]

يعنى وضع ما يَثْقل على ما يُثَقّل ، ولذلك فنحن لا نجد إنساناً

---

(١) الأعجف : الهزيل من سوء التغذية . والعجف : غلظ العظام وعراؤها من اللحم . [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(٢) وذلك أن الله تعالى قال : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] .

يحمل دابته ؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقاله على الدابة لِيُخفِّف عن نفسه حَمْل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتبع الكثافة ؛ كما أن الحجمَ يتبع المساحة ؛ فحين تنظر إلى كيلوجرام من الحديد وكيلوجرام من القطن ، فأنت تجد أن حجم كيلوجرام القطن أكبرُ من حجم كيلوجرام الحديد ؛ لأن كثافة الحديد مطمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهي التي تجعله يحتاج حيزاً أكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله في الآية الكريمة :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ .. ⑦ ﴾

[النحل]

ومَنْ يفتش في أساليب القرآن من المستشرقين قد يقول : « إن عَجُزَ الآية غَيْر متفق مع صَدْرها » .

ونقول لمثل صاحب هذا القول : أنت لم تفطن إلى المنّة التي يمتنُّ بها الله على خَلْقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقالَ إلا بمشقّة ؛ فما بالنا بِثقَل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع ؟

إنها نعمة كبيرة أنْ يجدوا ما يحملون عليه أثقالهم وأنفسهم ليصلوا إلى حيث يريدون .

وكلمة ﴿ بِشِقِّ ﴾ [النحل] مصدرها شَق وهو الصَّدْع بين شيئين ؛ ويعني عَزْل متصلين ؛ وسبحانه هو القائل :

﴿ فَاصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ .. ⑨④ ﴾ [الحجر]

---

(١) صدع بالأمر : جهر به في قوة كأنه يشق جدار الصمت والسكون . [القاموس القويم ١/٢٧١] .

وهناك « شَق » وهو الجهد ، و« شقَّة » . والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إمّا نائم ؛ لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته ؛ وأيضاً وهو مُتيقِّظ فأجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة ؛ بل تحتاج إلى طاقة مُتوسِّطة لتعملَ ؛ أما إنْ كان يحمل أشياءَ ثقيلةً فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا[1] قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا[2] لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢) ﴾ [التوبة]

والمعنىّ هنا بالشُّقة هي المسافة التي يشقُّ قطعُها ، ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لمَا جاء بالآية ؛ فالربُّ هو المُتولِّي التربية والمَدَد ، وأيُّ رحلة لها مَقْصِد ، وأيُّ رحلة هي للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للاثنين معاً .

فإن كانت رحلةَ استثمار فدابّتُك يجب أن تكون قويةً لتحمل ما معك من أثقال ، وتحمل عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإنْ كانت الرحلةُ للاعتبار فأنت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة

---

(١) عرض الدنيا : ما كان من مال ، قل أو كثر . والعرض : متاع الدنيا وحطامها . [لسان العرب - مادة : عرض] .

(٢) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه . قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ .. (٤٢) ﴾ [التوبة] لكن السفر إلى تبوك كان عسيراً في وقت العسرة ، وكان شاقاً وغير معروف الهدف . ولهذا تخلف المنافقون . [القاموس القويم ٢/١٦٨] .

والرغبة فى الوصول إلى المكان الذى قصدته .

وهكذا تجد الرأفة مناسبة لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقَّفَ بعضٌ من العلماء عند مَقْصد الرحلة ؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكونَ مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار ؛ وهناك سفر اضطرارى ؛ كالسفر الضرورى إلى الحج مرة فى العمر .

والحق سبحانه يزيل ألم الحِمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رأفته ؛ وهو رحيم لأنه حقَّق لكم أمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ[1] وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التى نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا فى هذه الآية الأنعام التى نستخدمها للتنقّل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها[2] وهى الخَيْل والبِغَال والحمير ؛ ويُذكِّرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن النَّاس تتزيَّن بما تَرْكب ؛

(١) البغال : جمع بغْل . وهو ابن الفرس من الحمار وهو لا يلد . فالشأن في البغل العقم . وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما . [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٠٠) : « سئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها . وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب . وقرأ الآية التى قبلها : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع .. ﴿٥﴾﴾ [النحل] ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هى مباحة . قلت : الصحيح الذى يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل » .

تماماً كما يفخر أبناءُ عصرِنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة .

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس فى المراتب ؛ فكلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركبه ؛ فالخَيْل للسادة والفرْسان والأغنياء ؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البَغْل ؛ فيمكنه أنْ يشترىَ لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانٌ الثلاثةَ ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها ؛ وقد يملك ثالثٌ رُكوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكِنه أنْ يستأجرَ ولو رُكوبة من أىّ نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قلَّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس فى الرزق ، فَمن الذى يقوم بالأعمال التى نُسمِّيها نحن ـ بالخطأ ـ أعمالاً دُونية ، مَنْ يكنس الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُّوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبةُ الناس فى الرزق لَمَا حلَتْ مثل تلك الأعمال ، وراقتْ فى عُيون مَنْ يُمارِسونها ، ذلك أنها تَقيهم شرَّ السُّؤال .

ولَوْلا أن مَنْ يعمل فى تلك الأعمال له بطنٌ تريد أنْ تمتلىء بالطعام ، وأولاد يريدون أنْ يأكلوا ؛ لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرتَ إلى أفقر إنسان فى الكون لوجدتَ فى حياته فترة حقَّق فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يكدُّ عَشْر سنين ؛ ويرتاح بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يكدُّ عشرين عاماً فيُريح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُريح أولاده وأحفاده من بعده . والمهم هو قيمة

ما يُتقنه ، وأن يرضَى بقدر الله فيه ، فيعطيه الله ما دام قد قَبِل قدره فيه .

وأنت إنْ نظرتَ إلى مَنْ فاء الله عليهم بالغِنَى والتَّرف ستجدهم فى بداية حياتهم قد كَدُّوا وتَعِبوا ورَضُوا بقدر الله فيهم ، ولم يحقدوا على أحد ، نجده سبحانه يهديهم طمأنينةً وراحةَ بالٍ .

وشاء سبحانه أنْ يُنوِّع فى مُسْتويات حياة البشر كَيْلا يستنكفَ أحدٌ من خدمة أحد ما دام يحتاج خدماته .

ونجد النصَّ التعبيرى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها هو خَيْل وبِغَال وحمير ؛ وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً بل تأتى من جنسين مختلفين .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المطَاف ؛ بل هناك ما هو أكثر ، فقال :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩ ﴾ [النحل]

وجعل الحق سبحانه البُراق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المُعْجزات قد حدثتْ لأنبياء ؛ فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثير من عربات تجرُّها الجِيَاد إلى سيارات وقطارات وطائرات .

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخيْل ويُربِّيها ويُروِّضها ويجريِّها لجمال منظرها .

وإذا كانت تلك الوسائلُ من المواصلات التى كانت تحمل عنّا

الانتقال ؛ وتلك المُخْترعات التى هدانا الله إياها ؛ فما بالُنَا بالمواصلات فى الآخرة ؟ لابد أن هناك وسائلَ تتناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاعٍ غير موجود فى الدنيا ؛ ولذلك يقول فى الآية التالية :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ[1] وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

والسبيل هو الطريق ؛ والقَصْدُ هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول (طريق قاصد) أى : طريق لا دورانَ فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أنْ نصلَ إلى الغاية بأقلّ مجهود .

ونحن فى لغتنا العاميَّة نسأل جندى المرور « هل هذا الطريق ماشى ؟» رغم أن الطريق لا يمشى ، بل أنت الذى تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصّلاً إلى الغاية . وأنت حين تُعجِزك الأسباب تقول « خلّيها على الله » أى : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسبِّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْده ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهى الجنة ، جزاءً على الإيمان وحُسْن العمل فى الدنيا .

وأنت حين تقارن مَجْرى نهر النيل تجد فيه التفافات وتعرُّجات ؛ لأن الماء هو الذى حفر طريقه ؛ بينما تنظر إلى الرِّيَاح التوفيقى مثلاً فتجده مستقيماً ؛ ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مَقْصد معين .

---

(١) الجائر : المائل عن الحق المنحرف عنه ، فلا يصل سالكه إلى ما يريد . [القاموس القويم ١/١٣٧] .

وحين يكون قصد السبيل على الله ؛ فالله لا هوى له ولا صاحبَ ، ولا ولدَ له ، ولا يحابى أحداً ، وكلُّ الخَلْق بالنسبة له سواء ؛ ولذلك فهو حين يضع طريقاً فهو يضعُه مستقيماً لا عِوجَ فيه : وهو الحق سبحانه القائل :

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]

أى : الطريق الذى لا التواءَ فيه لأىِّ غَرَض ، بل الغرض منه هو الغاية بأيسرِ طريق .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ..۝٩﴾ [النحل]

يجعلنا نعود بالذاكرة إلى ما قاله الشيطان فى حواره مع الله قال :

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ[1] أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص]

وردَّ الحق سبحانه :

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾ [الحجر]

والحق أيضاً هو القائل :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ [الليل]

أى : أنه حين خلق الإنسان أوضح له طريق الهداية ، وكذلك يقول سبحانه :

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[2] ۝١٠﴾ [البلد]

---

(١) أغواه : أضله وأوقعه فى الغى والضلال ، وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤] .

(٢) النجدان : طريق الخير وطريق الشر . والنجد : المرتفع من الأرض . فالمعنى : ألم تعرفه طريق الخير والشر بينين كبيان الطريقين العاليين ، وقيل : النجدان : الثديان .[لسان العرب ـ مادة : نجد] .

أى : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طُرق الحق من الباطل ، وهكذا يكون قوله هنا :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايتُه موضوعة من الله سبحانه ، والطريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الحق الذى لا هَوى له ، والخَلْق كلهم سواء أمامه .

وهكذا .. فعلى المُفكِّرين ألاَّ يُرهِقوا أنفسهم بمحاولة وَضْع تقنين من عندهم لحركة الحياة ، لأن واجدَ الحياة قد وضع لها قانون صيانتها ، وليس أدلّ على عَجْز المفكرين عن وضع قوانين تنظم حياة البشر إلا أنهم يُغيِّرون من القوانين كل فَتْرة ؛ أما قانون الله فخالد باقٍ أبداً ، ولا استدراكَ عليه .

ولذلك فمِنَ المُريح للبشر أنْ يسيروا على منهج الله والذى قال فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أنْ يُطبِّقوه ؛ وما تركه الله لنا نجتهد فيه نحن .

وقوله الحق :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : أنه هو الذى جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التى وضعها سبحانه . ذلك أن من السُّبل ما هو جائر ؛ ولذلك قال :

﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]

ولكى يمنع الجَوْر جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

بينما السبيل العادلة المستقيمة هي السبيل المُتكفّل بها سبحانه ، وهي سبيل الإيمان ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر أي : يُطيل المسافة عليك ، أو يُعرِّضك للمخاطر ، أو توجد بها مُنْحنيات تُضل الإنسانَ ، فلا يسيرُ إلى الطريق المستقيم .

ونعلم أن السبيل تُوصِّل بين طرفين (من وإلى) وكل نقطة تصل إليها لها أيضاً (من وإلى) وقد شاء الحق سبحانه ألاّ يقهرَ الإنسانَ على سبيل واحد ، بل أراد له أنْ يختار ، ذلك أن التسخير قد أراده الله لغير الإنسان ممَّا يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم مَنْ يأتيه طائعاً ومَنْ يعصي أوامره ، وكل البشر مَجْموعون إلى حساب ، ومَن اختار طريق الطاعة فهو مَنْ يذهب إلى الله مُحِباً ، ويُثْبِت له المحبوبية التي هي مراد الحق من خَلْق الاختيار ، لكن لو شاء أنْ يُثْبتَ لنفسه طلاقة القَهْر لخلَقَ البشر مقهورين على الطاعة كما سخَّر الكائنات الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب ؛ ولذلك يقول في آخر الآية :

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾ [النحل]

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ[1] كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أى : الإنس والجن ، كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قوالبَ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[2] (١٠) ﴾

وقوله :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (١٠) ﴾ [النحل]

يبدو قولاً بسيطاً ؛ ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل التى تُقطِّر المياه وتُخلِّصها من الشوائب لَعلمْنَا قَدْر العمل المبذول لنزول الماء الصافى من المطر .

والسماء ـ كما نعلم ـ هى كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب الذى يجىء نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار ، فيتكوّن البخار الذى يتصاعد ، ثم يتكثّف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك ؛ وينزل المطر على الأرض .

---

(١) الطير صافات : أى باسطات اجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : أى صفَّت اجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب ـ مادة : صفف] .

(٢) تسيمون : ترعون إبلكم . أسام الدواب : أرسلها للرعى . [القاموس القويم ١ / ٣٣٧] .

ونعلم أن الكرة الأرضية مكوّنة من محيطات وبحار تُغطّى ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبُع الكرة الأرضية ؛ فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط فى مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التى تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمى لِتُكوِّن نهر النيل لنستفيد نحن منه .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[3] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النحل]

ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً ؛ لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يشربَ الماء المالح الموجود فى البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أنْ جعل مياه البحار والمحيطات مالحةً : فالملْح يحفظ المياه من الفساد .

---

(١) أزجى الشيء : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [الإسراء] . أى : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر شديده وهيِّنه . وودقت السماء : أمطرت . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

(٣) البرَد : حبّات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً .

وبعد أن تُبخِّر الشمسُ المياه لتصير سحاباً ، ويسقط المطر يشرب الإنسانُ هذا الماء الذى يُغذِّى الأنهار والآبار ، وكذلك ينبت الماء الزرع الذى نأكل منه .

وكلمة ﴿ شجر ﴾ تدلُّ على النبات الذى يلتفُّ مع بعضه . ومنها كلمة « مشاجرة » والتى تعنى التداخل من الذين يتشاجرون معاً .

والشجر أنواع : فيه مغروس بمالك وهو ملْك لمَنْ يغرسه ويُشرِف على إنباته ، وفيه ما يخرج من الأرض دون أنْ يزرعه أحد وهو ملْكية مشاعة ، وعادة ما نترك فيه الدَّواب لترعى فتأكل منه دون أنْ يردَّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)﴾ [النحل]

من سَام الدابة التى ترْعى فى الملْك العام ، وساعة ترعى الدابة فى الملْك العام فهى تترك آثارها من مَسَارب[1] وعلامات . ويُسمُّون الأرض التى يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان بأنها « روضة أُنُف»[2] بمعنى أن أحداً لم يَأتِ إليها أو يَقْربها ؛ كأنها أنفت أنْ يقطف منها شيء .

---

(١) المسارب : مواضع الآثار . ومنها مسارب الحيات : مواضع آثارها إذا انسابت فى الأرض على بطونها . [لسان العرب ــ مادة : سرب] .

(٢) يقال : روضة أنف وكأس أنف : لم يُشرب بها قبل ذلك . كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . والأنف : الكلأ الذى لم يُرْع ولم تطأه الماشية . [لسان العرب ــ مادة أنف] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهكذا يُعلمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبته ، وهنا يخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التي لها أثر في الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات .

والزيتون - كما نعلم - يحتوى على مواد دُهْنية : والعنب يحتوى على مواد سكرية ، وكذلك النخيل الذى يعطى البلح وهو يحتوى على مواد سُكرية ، وغذاء الإنسان يأتى من النشويات والبروتينات .

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يُوضّح أنه قد أعطى الإنسان مُكوّنات الغذاء : فهو القائل :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ[1] الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين]

أى : أنه جعل للإنسان فى قُوته البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التى تصون حياته .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٦) : « قال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول : محلة التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام . والثانى طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة وهو البلد الأمين وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ » .

وحين يرغب الأطباء في تغذية إنسان أثناء المرض ؛ فهم يُذيبون العناصر التي يحتاجها للغذاء في السوائل التي يُقطّرونها في أوردته بالحقْن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة ؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .

ومَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكوّن من نوعين ؛ غذاء يملأ البطن ؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلاً يملأ البطن ، ويمدُّها بالألياف التي تساعد على حركة الأمعاء ، ولكن الكُسْب يُغذّى ويضمن السِّمنة والوَفْرة في اللحم .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ.. ⑪ ﴾ [النحل]

فعليك أنْ تستقبلَ هذا القول في ضَوْء قَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ[1] أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ⓺④ ﴾ [الواقعة]

ذلك أنك تحرثُ الأرض فقط ، أما الذي يزرع فهو الحق سبحانه ؛ وأنت قد حرثتَ بالحديد الذي أودعه الله في الأرض فاستخرجْتَه أنت ؛ وبالخشب الذي أنبته الله ؛ وصنعتَ أنت منهما المحراث الذي تحرث به في الأرض المخلوقة لله ، والطاقة التي حرثتَ بها ممنوحة لك من الله .

---

(١) الزرع : الإنبات . يقال : زرعه الله . أي : أنبته ونماه حتى يبلغ غايته .. [لسان العرب - مادة : زرع] .

ثم يُذكِّرك الله بأن كُلَّ الثمرات هي من عطائه ، فيعطف العام على الخاص ؛ ويقول :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١١) ﴾ [النحل]

أي : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات ؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهي أكثر من أن تُعَد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾ [النحل]

أي : على الإنسان أنْ يُعملَ فكره في مُعْطيات الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطيات ، ويُحدِّد وَضْعه ليجد نفسه غير فاعل ؛ وهو قابل لأنْ يفعل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذكِّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكأن الحق سبحانه يريد لنا أنْ تتساندَ أفكارنا ؛ فَمْن عنده لَقْطة فكرية تؤدي إلى الله لابُدَّ أنْ يقولها لغيره .

ونجد في القرآن آيات تنتهي بالتذكُّر[1] والتفكُّر[2] وبالتدبُّر[3] وبالتفقُّه[4] ، وكُلٌّ منها تُؤدي إلى العلم اليقيني ؛ فحين يقول « يتذكرون » فالمعنى أنه سبق الإلمام بها ؛ ولكن النسيان محاها ؛ فكان منْ مهمتك أنْ تتذكَّر .

---

(١) ذكر الشيء ذكراً وذُكْراً ، وذكرى ، وتذكاراً : حفظه . وتذكره : استحضره . وتذكَّره . وتذكر : جرى على لسانه بعد نسيانه . [المعجم الوجيز ص ٢٤٥] .

(٢) تفكر في الأمر : افتكر . التفكير : إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلها . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

(٣) تدبر الأمر : نظر فيه وفكَّر . [المعجم الوجيز ص ٢٢٠] .

(٤) تفقه : صار فقيهاً . وتفقه الأمر : تفهَّمه وتفطَّنه . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

أما كلمة « يتفكرون » فهي أُمّ كل تلك المعاني ؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين ؛ أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

وهذا يعني ألاَّ تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أنْ تنظرَ إلى المعطيات الخلفية كي تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفتَ ، فالمهمة مُكوَّنة من أربع مراحل : تفكُّر ، فتدبُّر ؛ فتفقُّه ؛ فمعرفة وعِلْم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾[1]

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ؛ والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم نسَق واحد ، والتسخير يعني قَهْر مخلوق لمخلوق ؛ ليُؤدِّي كُلٌّ مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر ؛ كُلٌّ له مهمة ، فالليل مُهمته الراحة .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . وقوله (مُسخَّرات) أي : مُسيَّرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

قال الحق سبحانه :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص]

والنهار له مهمة أنْ تكدحَ في الأرض لتبتغي رِزْقاً من الله وفَضْلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدِّفْء ، وهي تعطيك دون أنْ تسألَ ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنعَ عن عطاء قَدَّره الله .

وهي ليست مِلْكاً لأحد غير الله ؛ بل هي من نظام الكون الذي لم يجعل الحق سبحانه لأحد قدرةً عليه ، حتى لا يتحكّم أحدٌ في أحدٍ ، وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وإياك أنْ تتوهَّم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هي مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ[1] (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

أي : أن الليل والنهار وإنْ تقابلا فليسا متعارضين ؛ كما أن الذكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمة كل منهما بل لتتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل ليُوضّح لنا هذا التكامل فيقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

---

(١) الغشاء : الغطاء . غشَّيت الشيء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] . فالليل يغشى الناس بظلمته ويغطى على ضوء النهار .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

وأىُّ إنسان إنْ سهر يومين متتابعين لا يستطيع أنْ يقاومَ النوم ؛ وإن أدَّى مهمة فى هذين اليومين ؛ فقد يحتاج لراحة من بعد ذلك تمتدُّ أسبوعاً ؛ ولذلك قال الله :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا[1] ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ]

والإنسان إذا ما صلَّى العشاء وذهب إلى فراشه سيستيقظ حَتْماً من قبل الفجر وهو فى قمّة النشاط ؛ بعد أنْ قضى ليلاً مريحاً فى سُبَاتٍ عميق ؛ لا قلقَ فيه .

ولكن الإنسان فى بلادنا استورد من الغرب حثالة الحضارة من أجهزة تجعله يقضى الليل ساهراً ، ليتابع التليفزيون أو أفلام الفيديو أو القنوات الفضائية ، فيقوم فى الصباح مُنْهكاً ، رغم أن أهل تلك البلاد التى قدَّمتْ تلك المخترعات ؛ نجدهم وهم يستخدمون تلك المخترعات يضعونها فى موضعها الصحيح ، وفى وقتها المناسب ؛ لذلك نجدهم ينامون مُبكّرين ، ليستيقظوا فى الفجر بهمّة ونشاط .

ويبدأ الحق سبحانه جملة جديدة تقول :

﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [النحل]

نلحظ أنه لم يَأتِ بالنجوم معطوفةً على ما قبلها ، بل خَصَّها الحق سبحانه بجملة جديدة على الرغم من أنها أقلُّ الأجرام ، وقد لا نتبيَّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها ولكنَّا نجد الحق يُقسِم بها فهو القائل :

---

(١) يُشبِّه الليل باللباس لأنه ساتر . [القاموس القويم ٢/١٨٨] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٦٣) : « أى يغشى الناس ظلامه وسواده . وقال قتادة : (لباساً) أى : سكناً . وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ] أى . جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات » .

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾

[الواقعة]

فكلُّ نجم من تلك النجوم البعيدة له مُهمة ، وإذا كنتَ أنت فى حياتك اليومية حين ينطفىء النور تذهب لترى : ماذا حدث فى صندوق الأكباس الذى فى منزلك ؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدَّم العلم ليصنعَ لك المصباح الكهربائى . وكيف مدَّتْ الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك .

وإذا كنتَ تجهل ما خَلْف الأثر الواحد الذى يصلك فى منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)﴾ [الواقعة]

وهو القائل :

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

وقد خصَّها الحق سبحانه هنا بجملة جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن لكلٍّ منها منازلَ ، وهى كثيرة على العَدِّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوؤه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصَّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبينَ أن لله سراً فى كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفتَ إلى أن تركيبات الأشياء التى تنفعنا مواجهةً وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيِّل الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾ [النحل]

ونعلم أن الآيات هي الأمورُ العجيبة التي يجب ألاَّ يمرَّ عليها الإنسان مراً مُعرضاً ؛ بل عليه أنْ يتأملَها ، ففي هذا التأمل فائدة له ؛ ويمكنه أنْ يستنبطَ منها المجاهيل التي تُنعِّم البشر وتُسعِدهم .

وكلمة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تعني إعمالَ العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبةً خاصة ؛ وهو يستنبط من المُحسَّات الأمورَ المعنوية ، وبهذا يأخذ من المعلوم نتيجةً كانت مجهولةً بالنسبة له ؛ فيَسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمةً يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أنْ يستنبطَ ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا ذَرَأَ[1] لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾

وكلمة ﴿ ذَرَأَ ﴾ تعني أنه خلق خَلْقاً يتكاثر بذاته ؛ إما بالحَمْل للأنثى من الذَّكَر ؛ في الإنسان أو الحيوان والنبات ؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما في الطيور .

وهكذا نفهم الذَّرْءَ بمعنى أنه ليس مطلقَ خَلْق ؛ بل خلق بذاته في

(١) ذرأ الله الخلق يذرؤهم : خلقهم وبثَّهم وكثَّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسلُ بذاته حين يجتمع زوجان ونتجا مثيلاً لهما ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَتَبَارَكَ[1] اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يُعطيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخَلْقه ؛ فهو قد خلق آدم ثم أوجدهم من نسله . والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخَلْق الله ؛ فهم لا يخلقون من معدوم ؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم مَنْ لا وجودَ له ؛ وهو بذلك أحسنُ الخالقين .

والمَثَل الذى أضربه دائماً هو الحبة التى تُنبت سبْعَ سنابل وفى كل سُنْبلة مائة حَبّة ؛ وقد أوردها الحق سبحانه ليشوِّق للإنسان عملية الإنفاق فى سبيل الله[2] ، وهذا هو الخَلْق المادىّ الملموس ؛ فمن حَبّة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل]

أى : ما خلق لنا من خَلْق متكاثر بذاته تختلف ألوانه . واختلاف الألوان وتعدُّدها دليل على طلاقة قدرة الله فى أن الكائنات لا تخلق على نَمَطٍ واحد .

---

(١) تبارك الله : تقدّس وتنزّه عن كل نقص ، أو كَثُر خيره على عباده . [القاموس القويم ١/٦٥] .

(٢) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة] .

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر في قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر]

وأنت تمشى بين الجبال ؛ فتجدها من ألوان مختلفة ؛ وعلى الجبل الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقات مُتعدّدة ، وهكذا تختلف الألوان بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فلَنا أن نعرفَ أن العلماء هنا مقصودٌ بهم كُلّ عالم يقف على قضية كونية مَرْكوزة في الكون أو نزلتْ من المُكوِّن مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلّى أسرار الله في خلقه . وقد أراد ﷺ أن يفرق فَرْقاً واضحاً في هذا الأمر ، كي لا يتدخَّل علماء الدين في البحث العلميّ التجريبيّ الذى

(١) الجدد : الطرائق تكون في الجبال جمع جدة . وهي الطريقة في السماء والجبل . وقوله عز وجل : ﴿ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ... (٢٧) ﴾ [فاطر] أى طرائق تخالف لون الجبل . [لسان العرب - مادة . جدد] .

(٢) غربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/ ٥٠] .

يُفيد الناس ، ووجد ﷺ الناس تُؤبِّر[1] النخيل ؛ بمعنى أنهم يأتون بطَلْع الذُّكورة ؛ ويُلقِّحون النخيل التى تتصف بالأنوثة ، وقال : لو لم تفعلوا لأثمرتْ . ولما لم تثمر النخيل ، قَبِل رسول الله ﷺ الأمر ؛ وأمر بإصلاحه وقال القولةَ الفصل « أنتم أعلَمُ بشئون دنياكم »[2] .

أى : أنتم أعلم بالأمور التجريبية المعملية ، ونلحظ أن الذى حجز الحضارة والتطوُّر عن أوربا لقرون طويلة ؛ هو محاولة رجال الدين أنْ يحجُروا على البحث العلمى ؛ ويتهموا كُلّ عالم تجريبيّ بالكفر .

ويتميز الإسلام بأنه الدين الذى لم يَحُلْ دون بَحْث أى آية من آيات الله فى الكون ، ومن حنان الله أنْ يُوضّح لخَلْقه أهمية البحث فى أسرار الكون ، فهو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

أى : عليك أيُّها المؤمن ألاَّ تُعرِض عن أىِّ آية من آيات الله التى فى الكون ؛ بل على المؤمن أنْ يُعمِلَ عقله وفكْره بالتأمُّل ليستفيد منها فى اعتقاده وحياته . يقول الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

---

(١) أبر النخل والزرع يأبره : أصلحه . وتأبير النخل : تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : ابر] .

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك « أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الرديء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

أما الأمور التى يتعلَّق بها حساب الآخرة : فهى من اختصاص العلماء الفقهاء .

ويذيل الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل]

اى : يتذكَّرون شيئاً مجهولاً بشىء معلوم .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى التسخير ، فيقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً[1] تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ[2] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

والتسخير كما علمنا من قَبْل هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع الكائن أنْ يتخلَّف عنها ، ولا اختيارَ له فى أنْ يؤدِّيها أو لا يُؤدِّيها . ونعلم أن الكون كله مُسخَّر للإنسان قبل أنْ يُوجدَ ؛ ثم خلق الله الإنسان مُخْتاراً .

وقد يظن البعض أن الكائنات المُسخَّرة ليس لها اختيار ، وهذا خطأ ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْهُ فى بداية وجودها ، ولنقرأ قوله الحق :

---

(١) الحلية : يعنى بها اللؤلؤ والمرجان . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩١) .

(٢) مخرت السفينة : شقَّت الماء بصدرها وسُمِع لها صوت . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا ..(٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خيَّر خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التى هى ما دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرَّة واحدة ؛ لذلك لا يجب أنْ يُقال : إن الحق سبحانه هو الذى قهرها ، بل هى التى اختارتْ من أول الأمر ؛ لأنها قدرتْ وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكأنها قالت لنفسها : فلأخرَج من باب الجَمال ؛ قبل أن ينفتحَ أمامى باب ظلم النفس .

ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان :

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فقد ظلم الإنسانُ نفسَه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة ؛ لأنه قدر وقت التحمُّل ولم يقدر وقت الأداء ، وهو جَهُول لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .

وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أنْ يتخلَّف عنها ؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لِمُهمة له أنْ يُؤدِّيها أو يتخلَّف عنها .

وأوضحنا أن المُسخَّرات كان لها أنْ تختارَ من البداية ، فاختارتْ أن تُسخَّر وألاَّ تتحملَ الأمانة ، بينما أخذ الإنسانُ المهمةَ ، واعتمد على عقله وفِكْره ، وقَبِل أن يُرتِّب أمور حياته على ضوء ذلك .

---

(١) الشَّفق : الخوف . والشفقة : رقة من نصح أو حب يؤدى إلى خوف . [لسان العرب - مادة : شفق] .

ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كي يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار ؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجرى على الإنسان ولا اختيارَ له فيها ؛ كأن يمرضَ أو تقع له حادثة أو يُفلس .

ولذلك أقول : إن الكافر مُعقَّل لاختياره ؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرَّد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفى الآية التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ .. (١٤) ﴾ [النحل]

فهذا يعنى أنه هو الذى خلق البحر ، لأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض ؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أى : أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضاً من الطعام فيقول :

﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾

[النحل]

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتى المَدُّ أحياناً ثم يَعْقبه الجَزْر ؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطىء ، أو قد تحمل موجة عفيّة بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطىء .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجودَ بعض من الأسماك على الشاطىء هو الذى نبَّه الإنسان إلى أهمية أنْ يحتالَ

ويصنع السِّنارة ؛ ويغزل الشبكة ؛ ثم ينتقل من تلك الوسائل البدائية إلى التقنيّات الحديثة في صيد الأسماك .

لكن الحلية التي يتم استخراجها من البحر فهي اللؤلؤ ، وهي تقتضي أن يغوصَ الإنسان في القاع ليلتقطها . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أسرار كنوزه فيقول :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ[1] ﴿٦﴾ ﴾ [طه]

وكل كنوز الامم توجد تحت الثَّرى . ونحن إنْ قسمنا الكرة الأرضية كما نقسم البطيخة إلى قِطَع كالتي نُسمِّيها « شقة البطيخ » سنجد أن كنوز كل قطعة تتساوى مع كنوز القطعة الأخرى في القيمة النفعية ؛ ولكن كُلّ عطاء يوجد بجزء من الارض له ميعاد ميلاد يحدده الحق سبحانه .

فهناك مكان في الأرض جعل الله العطاء فيه من الزراعة ؛ وهناك مكان آخر صحراوي يخاله الناس بلا أيّ نفع ؛ ثم تتفجَّر فيه آبار البترول ، وهكذا .

وتسخير الحق سبحانه للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة التي هو عليها ؛ بل قد تجد له أشياء ومهام أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى عليه السلام ؛ وصار كل فِرْق كالطَّوْد[2] العظيم.

---

(١) الثرى : التراب الندى او التراب مطلقاً . قال تعالى : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه] . أي : ما تحت جميع طبقات الأرض . [القاموس القويم ١٠٧/١] .

(٢) يقول تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] . والطود العظيم : الجبل الكبير . قال عطاء الخراساني : هو الفج بين الجبلين . [تفسير ابن كثير ٣٣٦/٣] .

ومن قبل ذلك حين حمل اليمّ[1] موسى عليه السلام بعد أن ألقته امه فيه بإلهام من الله :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحملَ موسى إلى الشاطيء فَوْر انْ تُلْقيَه امه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر في مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحُلىّ . ونعلم أن ماءَ البحر مالح ؛ عكس ماء النهر وماء المطر ؛ فالمائيّة تنقسم إلى قِسْمين ؛ مائية عَذْبة ، ومائية مِلْحية .

وقوله الحق عن ذلك :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[2] سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[3] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢) ﴾

[فاطر]

ويسمُّونهم الاثنين على التغليب في قوله الحق :

﴿ مَرَجَ[4] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن]

والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح ، وكيف يختلطان ، ولكن

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] وهو خليج السويس وماؤه ملح وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى . ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم ٢/٣٧٢] .

(٢) الفرات : أشد الماء عذوبة . وقد فَرُتَ الماء : عَذُب . [لسان العرب - مادة : فرت] . وشراب سائغ : عَذْب يسهل مدخله في الحلق . [لسان العرب - مادة : سوغ] .

(٣) الملح الأجاج : الشديد الملوحة والمرارة . [لسان العرب - مادة : أجج] .

(٤) مرج الشيء : خلطه . أي خلطهما حالة كونهما يلتقيان . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض ، وأنت لو حفرتَ فى قاع البحر لوجدتَ ماء عَذْباً ، فالحق سبحانه هو الذى شاء ذلك وبيَّنه فى قوله :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ.. (٢١)﴾

[الزمر]

وهنا يقول سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤)﴾ [النحل]

واللحم إذا أُطلق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام ، أما إذا قُيِّد بـ « لحم طرى » فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآنى ؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طَرِّياً دائماً .

ونجد مَنْ يشترى السمك وهو يَثْنى السمكة ، فإنْ كانت طريّة فتلك علامةٌ على أنها صالحةٌ للأكل ، وإنْ كانت لا تنثنى فهذا يعنى أنها فاسدة ، وأنت إنْ أخرجتَ سمكة من البحر تجد لحمها طَرِّياً ؛ فإنْ ألقيتَها فى الماء فهى تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء ؛ أما إنْ كانت ميتة فهى تنتفخ وتطفو .

لذلك نهى النبى ﷺ عن أَكْل السمك الطَّافى لأنه المَيْتة ، وتقييد اللحم هنا بأنه طرىّ كى يخرجَ عن اللحم العادى وهو لَحْم الأنعام ؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلفَ ألاّ يأكل لَحْماً ؛ ثم أكل سمكاً فهو لا يحنث ؛ لأن العُرْف جرى على أن اللحم هو لَحْم الأنعام .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية عن تسخير البحر :

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً ؛ لأنها رفاهية ؛ أما السمك فقال عنه مباشرة :

﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤) ﴾ [النحل]

والأكل أمر ضروري لذلك تكفّله الله وأعطى التسهيلات في صَيْده ، أما الزينة فلكَ أنْ تتعبَ لتستخرجه ، فهو تَرَفٌ . وضروريات الحياة مَجْزُولة ؛ أما تَرَف الحياة فيقتضي منك أنْ تغطسَ في الماء وتتعبَ من أجله .

وفي هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أنْ يرتقيَ في معيشته ؛ فَلْيُكثِر من دخله ببذل عرقه ؛ لا أنْ يُترِف معيشته من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

﴿ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾ [النحل]

والحلْية كما تعلم تلبسها المرأة . والملْحظ الأدنى هنا أن زينةَ المرأة هي من أجْل الرجل ؛ فكأن الرجلَ هو الذي يستمتع بتلك الزينة ، وكأنه هو الذي يتزيّن . أو : أن هذه المُسْتخرجات من البحر ليست مُحرّمة على الرجال مثْل الذهب والحرير ؛ فالذهب والحرير نَقْد ؛ أما اللؤلؤ فليس نَقْداً .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصحّ أنْ تُصنعَ من تلك الحلية عَصاً أو أي شيء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

ولم تكن هناك بواخر كبيرة كالتى فى عصرنا هذا بل فُلْك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول مَنْ صنع الفُلْك ، وسَخِر منه قومه ؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لَمَا سَخِروا منه .

وبطبيعة الحال لم يكُنْ هناك مسامير لذلك ربطها بالحبال ؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[1] (١٣) ﴾ [القمر]

وكان جَرْى مركب نوح بإرادة الله ، ولم يكُنْ العِلْم قد تقدَّم ليصنع البشر المراكب الضخمة التى تنبأ بها القرآن فى قوله الحق :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[2] (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ونحن حين نقرؤها الآن نتعجَّب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر : فالقرآن عالم بما يَجِدّ ؛ لا بقهريات الاقتدار فقط ؛ بل باختيارات البشر أيضاً .

وقوله الحق :

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

والمَاخِر هو الذى يشق حلزومه الماء ، والحَلْزوم هو الصدر . ونجد مَنْ يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادةً لتكون رأس الحربة التى تشق المياه بخرير .

---

(١) الدسار : المسمار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة ، وجمعه دسر . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

(٢) الأعلام جمع علم وهو الجبل . فهو يصف السفن بالجبال فى كبرها . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٢) : « أى : كالجبال فى كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع » .

وفى هذه الآية امتنّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُلِىّ ، وسَيْر الفلْك فى البحر ؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ ؛ فيقول :

﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

وكان البواخر وهى تشقّ الماء ويرى الإنسان الماءَ اللين ، وهو يحمل الجسم الصلْب للباخرة فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسانَ من مكان إلى مكان .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ [النحل]

ولا يُقال ذلك إلا فى سَرْد نعمة آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشكر من العقل العادى والفطرة العادية ، وشاء سبحانه أنْ يتركَ الشُكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) ﴾

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلِقت على مراحل ، ويشرح ذلك قوله سبحانه :

---

(١) ماد يميد : تحرك واهتز . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[1] ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[2] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

وهكذا علمنا أن جِرْم الأرض العام قد خُلِق أولاً ؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة ؛ ولأن الحركة هي التي تأتي بالمَيدان ـ التأرجُح يميناً وشمالاً ـ وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق في الأرض الرواسي لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة ، والرَّاسي هو الذي يَثبت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال ، ولكنه خلقَ الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض .

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾ [النمل]

وكلمة ﴿ أَلْقَىٰ ﴾ تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وُضِع ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً .. (١٥) ﴾ [النحل]

---

(١) الأنداد : جمع نِدّ . وهو الضد والشبيه . ويريد بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله . [لسان العرب ـ مادة : ندد] .

(٢) الأقوات جمع قوت ، وهو الرزق . قال ابن كثير في تفسيره (٤/٩٣) : « هو ما يحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس » .

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بفعل يناسب الأنهار ، ومن العجيب أن الأسلوب يجمع جماداً في الجبال ، وسيولة في الأنهار ، وسبلاً أي طرقاً ، وكُلُّ ذلك :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل]

أي : أن الجَعْل كلّه لعلنا نهتدي .

ونعلم أن العرب كانوا يهتدون بالجبال ، ويجعلون منها علامات ، والمثل هو جبل « هرشا » الذي يقول فيه الشاعر :

خُذُوا بَطْنَ هرشا أو قَفَاهَا فإنَّهُ ... كِلاَ جَانِبِي هرشا لَهُنَّ طَرِيقُ

وأيضاً جبل التوباد كان يُعتبر علامة .

وكذلك قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ..﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم]

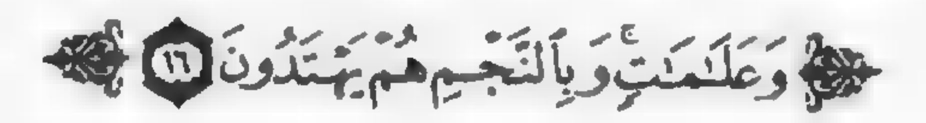
وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنها علاماتٌ نهتدي بها إلى الطرق وإلى الأماكن ، وتلك من المهام الجانبية للجبال .

أو :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل]

باتعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم ، كي تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



أى : أن ما تقدم من خلْق الله هو علامـات تدلُّ على ضرورة أنْ تروا المنافع التى أودعها الله فيما خلق لكم : وتهتدوا إلى الإيمان بإله موجِد لهذه الأشياء لصالحكم .

وما سبق من عـلامات مَقَرُّه الأرض ، سواء الجـبال أو الأنهار أو السُّبل ؛ وأضـاف الحق سبـحانه لهـا فى هذه الآية علامـة توجد فى السماء ، وهى النجوم .

ونعلم أن كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم . وتكلم عنها الحق سبـحانه هنا كتسخـير مُخْتص ؛ ولم يُدخِلهـا فى التسخـيرات المتـعددة ؛ ولأن نجـماً يقـود لنجم آخـر ، وهناك نجـوم لم يصلنا ضوؤها بعد ، وننتفع بآثارها من خلال غيرها[1] .

ونعلم أن قـريشاً كـانت لها رحـلتان فى العـام : رحلة الشتـاء ، ورحلة الصيف . وكـانت تسلك سبلاً متـعددة ، فتهتـدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك لابد أن يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٨١٦/٥) : « قال ابن العـربى . أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بـمطالعها ومغاربـها ، والفرق بين الجنوبى والشمـالى منها ، وذلك قليل فى الآخرين . وأما الثريا فلا يهتدى بها إلا من يهتدى بجميع النجوم . وإنمـا الهدى لكل أحد بالجَدْى والفرقـدين ، لأنهـما من النجـوم المنحـصرة المطالع الظاهرة السـمت الثابتـة فى المكان ، فإنهـا تدور على القطب الثابت دوراناً محصلاً . فهى أبـداً هَدْىُ الخلق فى البر إذا عميت الطرق ، وفى البحـر عند مجرى السـفن ، وفى القبلة إذا جُهِل السـمْت ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سَمْت الجهة » .

قد فضّل الحق هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أنْ تُؤدى المعنى ؛ هى : « يهتدون بالنجم » و« بالنجم يهتدون » والثالث : هو الذى استخدمه الحق فقال :

﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم ؛ لأنها تسافر كل عام رحلتين ، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة .

والضمير « هم » جاء ليعطى خصوصيتين ؛ الأولى : أنهم يهتدون بالنجم لا بغيره ؛ والثانية : أن قريشاً تهتدى بالنجم ، بينما غيرُها من القبائل لا تستطيع أن تهتدى به .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ونعلم أن الكلام الذى يلقيه المتكلم للسامع يأخذ صوراً متعددة ؛ فمرّة يأخذ صورة الخبر ، كأن يقول : مَنْ لا يخلق ليس كَمَنْ يخلق . وهذا كلام خبرىّ ، يصح أنْ تُصدّقه ، ويصحّ ألاّ تُصدّقه .

أما إذا أراد المتكلم أن يأتى منك أنت التصديق ، ويجعلك تنطق به ؛ فهو يأتى لك بصيغة سؤال ، لا تستطيع إلا أنْ تجيبَ عليه بالتأكيد لِمَا يرغبه المتكلّم .

ونعلم أن قريشاً كانت تعبد الأصنام ؛ وجعلوها آلهة ؛ وهى لم تكلمهم ، ولم تُنزِل منهجاً ، وقالوا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[1] .. ③﴾ [الزمر]

فلماذا إذن لا يعبدون الله مباشرة دون وساطة ؟ ولماذا لا يرفعون عن أنفسهم مشقة العبادة ، ويتجهون إلى الله مباشرة ؟

ثم لنسأل : ما هي العبادة ؟

نعلم أن العبادة تعني الطاعة في « افعل » و « لا تفعل » التي تصدر من المعبود . وبطبيعة الحال لا توجد أوامر أو تكاليف من الأصنام لِمَنْ يعبدونها ، فهي معبودات بلا منهج ، وبلا جزاء لِمَن خالف ، وبلا ثواب لِمَنْ أطاع ، وبالتالي لا تصلح تلك الأصنام للعبادة .

ولنناقش المسألة من زاوية أخرى ، لقد أوضح الحق سبحانه أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر كل الكائنات لخدمة الإنسان الذي أوكل إليه مهمة خلافته في الأرض[2] .

وكلُّ تلك الأمور لا يدعيها أحد غير الله ، بل إنك إنْ سألتَ الكفار والمشركين عمَّن خلقهم ليقولن الله .

قال الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ⑧⑦﴾ [الزخرف]

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . زلف إليه : قرب ودنا . [القاموس القويم ١/٢٨٨] . والمعنى كما قاله قتادة والسدى : أى ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٥) .

(٢) قال تعالى فى قرآنه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ③⓪﴾ [البقرة] .

ذلك أن عملية الإيجاد والخَلْق لا يجرؤ أحدٌ أنْ يدَّعيها إنْ لم يكُنْ هو الذى أبدعها ، وحين تسألهم : مَنْ خلق السماوات والأرض لقالوا : إنه الله[1] .

وقد أبلغهم محمد ﷺ أن الله هو الذى خلق السماوات والأرض ، وأن منهجه لإدارة الكون يبدأ من عبادته سبحانه .

وما دام قد ادَّعى الحق سبحانه ذلك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه ؛ فالدعوة تثبُت له إلى أنْ يوجد معارض ، ولم يوجد هذا المُعَارض أبداً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لم يَقُل الحق سبحانه « أتجعلون مَنْ لا يخلق مثْل من يخلق » . بل قال :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ ﴾ [النحل]

ووراء ذلك حكمة ؛ فهؤلاء الذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله ؛ وتوهَّموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام ؛ ولذلك جاء القول الذى يناسب هذا التصوُّر .

والحق سبحانه يريد أنْ يبطل هذا التصوُّر من الأساس ؛ فأوضح أن مَنْ تعبدونهم هم أصنام من الحجارة وهى مادة ولها صورة ، وأنتم صنعتموها على حَسْب تصوُّركم وقدراتكم .

وفى هذه الحالة يكون المعبود أقلَّ درجةً من العابد وأدنى منه ؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لِمَنْ يعبدها ضراً ولا نفعاً .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ۝٦١ ﴾ [العنكبوت]

ثم : لماذا تدعون الله إنْ مسكُم ضُرٌّ ؟

إن الإنسان يدعو الله في موقف الضر ؛ لأنه لحظتها لا يجرؤ على خداع نفسه ، أما الآلهة التي صنعوها وعبدوها فهي لا تسمع الدعاء :

﴿ إن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ [فاطر]

فكيف إذن تساوون بين مَنْ لا يخلق ، ومن يخلق ؟ إن عليكم أنْ تتذكّروا ، وأنْ تتفكّروا ، وأن تُعْملوا عقولكم فيما ينفعكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا[1] إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾

وهذه الآية سبقتْ في سورة إبراهيم ؛ فقال الحق سبحانه هناك :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وكان الحديث في مجال مَنْ لم يعطوا الألوهية الخالقة ، والربوبية الموجدة ، والمُمدّة حَقَّها ، وجحدوا كل ذلك . ونفس الموقف هنا حديث عن نفس القوم ، فيُوضّح الحق سبحانه :

---

(١) لا تحصوها : لا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق . [قاله القرطبي في تفسيره ٥/٣٧٠٥] .

أنتم لو استعرضتم نِعَم الله فلن تحصوها ، ذلك أن المعدود دائماً يكون مكرر الأفراد ؛ ولكن النعمة الواحدة فى نظرك تشتمل على نِعَم لا تُحصَى ولا تُعَد ؛ فما بالك بالنِّعم مجتمعة ؟

أو : أن الحق سبحانه لا يمتنُّ إلا بشىء واحد ، هو أنه قد جاء لكم بنعمة ، وتلك النعمة أفرادها كثير جداً .

ويُنهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

أى : أنكم رغم كُفْركم سيزيدكم من النعم ، ويعطيكم من مناط الرحمة ، فمنكم الظلم ، ومن الله الغفران ، ومنكم الكفر ومن الله الرحمة .

وكأنَّ تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية التى فى سورة إبراهيم حيث قال هناك :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فهو سبحانه غفور لجحدكم ونُكْرانكم لجميل الله ، وهو رحيم ، فيوالى عليكم النِّعَم رغم أنكم ظالمون وكافرون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾

والسِّر ـ كما نعلم ـ هو ما حبَسْته فى نفسك ، أو ما أسررْتَ به لغيرك ؛ وطلبتَ منه ألاَّ يُعلمه لأحد . والحق سبحانه يعلم السِّر ، بل يعلم ما هو أخْفَى فهو القائل :

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦﴾ [طه]

أى : أنه يعلم ما نُسره فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سراً قبل أن نُسرَّه فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السِّر فقط ؛ بل يعلم العلَن أيضاً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ⑳﴾

أى : أنهم لا يستطيعون أنْ يخلقوا شيئاً ؛ بل هم يُخْلقون ، والأصنام كما قُلْنا من قبل هى أدنى ممَّنْ يخلقونها ، فكيف يستوى أنْ يكونَ المعبود أدْنَى من العابد ؟ وذلك تسفيهٌ لعبادتهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لحظةَ أنْ حطَّم الأصنام ، وسأله أهله : مَنْ فعل ذلك بآلهتنا ؟ وأجاب :

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. ⑥③﴾ [الأنبياء]

فقالوا له : إن الكبير مجرَّد صنم ، وأنت تعلم أنه لا يقدر على شيء .

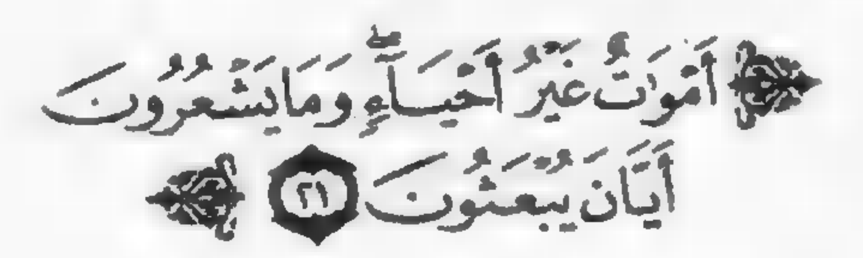
ونجد القرآن يقول لأمثال هؤلاء :

﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ[1] (٩٥) ﴾ [الصافات]

فهذه الآلهة - إذن - لا تخلق بل تُخلق ، لكن الله هو خالق كل شيء ، وسبحانه القائل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

ويذكر الحق سبحانه من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام :



وهم بالفعل أموات : لأنهم بلا حِسٍّ ولا حركة ، وقوله :

﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ .. (٢١) ﴾ [النحل]

تفيد أنه لم تكُنْ لهم حياة من قَبْل ، ولم تثبت لهم الحياة في دورة من دورات الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام ، فهم لا يخلقون شيئاً ، بل هم مخلوقون بواسطة مَنْ نحتُوهم ، وتلك الأصنام والأوثان لن تكون لها حياة في الآخرة ، بل ستكون وَقُوداً للنار .

---

(١) نحته : براه واقتطع منه أجزاء ، ويكون ذلك في الأشياء الصلبة كالحجر والخشب . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

وبطبيعة الحال لن تشعرَ تلك الحجارةُ ببعْث مَنْ عبدوها .

ويُصفِّي الحق سبحانه من بعد ذلك المسألة العقدية ، فيقول :

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ[2] وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) ﴾

وقَوْله الحق :

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. (٢٢) ﴾ [النحل]

تمنع أنْ يكونَ هناك أفراد غيره مثله ، وقد يتصوَّر البعض أنها تُساوى كلمة « أحد » . وأقول : إن كلمة « أحد » هى منع أن يكونَ له أجزاء ؛ فهو مُنزَّه عن التَّكْرار أو التجزيء .

وفى هذا القول طَمْأنةٌ للمؤمنين بأنهم قد وصلوا إلى قِمَّة الفهم والاعتقاد بأن الله واحد .

أو : هو يُوضِّح للكافرين أن الله واحدٌ رغم أنوفكم ، وستعودون

---

(١) أزواجهم : نظراءهم وأضرابهم وقرناءهم . [لسان العرب ـ مادة : زوج] . « قال عمر ابن الخطاب : أزواجهم : أشباههم يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر » . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٨١٩/٥) : « أى : لا تقبل الوعظ ، ولا ينجع فيها الذكر » .

إليه غَضَباً ، وبهذا القول يكشف الحق سبحانه عن الفطرة الموجودة فى النفس البشرية التى شهدتْ فى عالم الذَّرّ أن الله واحد لا شريك له ، وأن القيامة والبعث حَقٌّ .

ولكن الذين لا يؤمنون بالله وبالآخرة هم مَنْ ستروا عن أنفسهم فطرتهم ، فكلمة الكفر كما سبق أنْ قلنا هى ستر يقتضى مستوراً ، والكفر يستر إيمانَ الفطرة الأولى .

والذين يُنكرون الآخرة إنما يَحْرِمون أنفسهم من تصوُّر ما سوف يحدث حَتْماً ؛ وهو الحساب الذى سيجازى بالثواب والحسنات على الأفعال الطيبة ، ولعل سيئاتهم تكون قليلة ؛ فيجبُرها الحق سبحانه لهم وينالون الجنة .

والمُسْرِفون على أنفسهم ؛ يأملون أن تكون قضيةُ الدين كاذبة ، لأنهم يريدون أن يبتعدوا عن تصوُّر الحساب ، ويتمنَّوْنَ الاَّ يوجدَ حساب .

ويَصِفُهم الحق سبحانه :

﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : أنهم لا يكتفُون بإنكار الآخرة فقط ؛ بل يتعاظمون بدون وجه للعظمة .

و « استكبر » أى : نصَّب من نفسه كبيراً دون أنْ يملكَ مُقوِّمات الكبر ، ذلك أن « الكبير » يجب أن يستندَ لِمُقوِّمات الكِبَر ؛ ويضمن لنفسه أنْ تظلَّ تلك المُقوِّمات ذاتية فيه .

ولكنَّا نحن البشر أبناءُ أغيارٍ ؛ لذلك لا يصحُّ لنا أنْ نتكبَّر ؛

فالواحد منّا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه ، فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية في أيٍّ منّا ؛ وقد تُسلب ممَّنْ فاء الله عليه بها ؛ ولذلك يصبح من اللائق أنْ يتواضعَ كُلٌّ منّا ، وأنْ يستحضرَ ربّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق في التكبُّر ؛ وهو سبحانه الذي تبلغ صفاته ومُقوّماته منتهى الكمال ، وهي لا تزول عنه أبداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وساعة نرى ﴿ لا جرم[1] ﴾ فمعناها أنَّ ما يأتي بعدها هو حَقٌّ ثابت ، فـ « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهي كَسْر شيء مُؤمَّن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم » أي : أن ما بعدها حَقٌّ ثابت .

وما بعد ﴿ لا جرم ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسِرون وما يُعلِنون .

وكُلُّ آيات القرآن التي ورد فيها قوله الحق ﴿ لا جرم ﴾ تُؤدّي هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لا جرمَ أنَّ لهمُ النّارَ وأنّهم مُفْرَطُونَ[2] ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) لا جرم : قال الفراء : هي في الأصل بمعنى لابُدّ ولا محالة ، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى حقاً [المصباح المنير ص٥٤] .

(٢) مُفْرطُون : متروكون منسيون في النار قاله مجاهد . وقال مجاهد : مبعدون . وقال قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . [تفسير القرطبي ٥/٣٨٤٦] .

وكذلك قوله الحق :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾ [النحل]

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ يحمل معنى « لا بُدَّ » ، وهذا يعنى أن قوله الحق :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. (٢٣) ﴾ [النحل]

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسِرون وما يُعلِنون ، ولا مناصَ من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حلَّلَ العلماء اللفظ ليصِلوا إلى أدقِّ أسراره .

وعِلْم الله لا ينطبق على الجَهْر فقط ، بل على السِّر أيضاً ؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأعمال . ويُنهِي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾ [النحل]

وإذا سألنا : وما علاقةُ عِلْم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا في أنفسهم :

﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه ليُخبِرهم بما قالوه في أنفسهم ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبلغهم صادقٌ في البلاغ عن الله ، ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتأبَّوْا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ[1] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وقوله الحق :

﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

يُوضّح الاستدراك الذى أجراه الله على لسان المُتكلّم ؛ ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين بِرَبٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً .

وهذا دليل على إيمانهم بربٍّ خالق ؛ ولكنهم يعترضون على محمد ﷺ وما أُنزِل إليه من الله .

و :

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

والأساطير : هى الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أقرُّوا بالألوهية ، ورفضوا أيضاً القول المُنْزل إليهم .

ومنهم من قال :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ ﴾

[الفرقان]

---

(١) الأساطير : جمع أسطورة وهى الأحاديث التى لا أصل لها . أو هى جمع أسطار أو جمع سطر : أى كتابات وغلبت على الباطل منها . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سيأتى تبيانه من بعد ذلك ، وهم الجانب المُضَادّ لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠) ﴾ [النحل]

ووراء ذلك قصة تُوضّح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب مُعجز ، بدأت أخبار رسول الله ﷺ تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلّ قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفَّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله ؛ فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل « ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولاً ؟» .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ، يُحرِّف ويُجدِّف[1] » . والهدف طبعاً أنْ يصدَّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا أنزل ربُّكم ؟ يردُّون « إنه يُردِّد أساطير الأولين » .

(١) التجديف : هو الكفر بالنعم . جدَّف الرجل بنعمة الله : كفرها ولم يقنع بها . قال أبو عبيد : يعنى كفر النعمة واستقلال ما أنعم الله عليك . [لسان العرب ـ مادة : جدف] .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدلُّ على أنها إجابة مُتفق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يَصرفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ فشبَّهوا الذِّكْر المُنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم - على سبيل المثال - النضر ابن الحارث من قصص القدماء التي تتشابه مع قصص عنترة ، وأبي زيد الهلالي التي تُروى في قُرَانا . وهذه هي الموقعة الأولى في الأخذ والرد .

ويُعقِّب الحق سبحانه على قولهم هذا :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

لترى كيف يُوضِّح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة ؛ وإذا أسرفتْ على نفسها في تلك الجوانب ؛ فهي قد تُسرف في الجانب الأخلاقي ؛ والجانب الاجتماعي ؛ وغير ذلك ، فتأخذ وِزْر كُلّ ما تفعل .

ويُوضِّح هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضِل نفساً غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلَّتها إلا ما نتجَ عن الإضلال ؛ فيقول :

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾ [النحل]

ذلك أن النفس التى تَمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار فى مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أنْ يُحمِّل حتى المُضِل أوزاراً لم يكُنْ هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾ [النحل]

أى : أن المُضِلّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلّهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفى هذا مُطْلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تَمَّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات ؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم .

أما الأوزار والسيئات التى ارتكبوها بأنفسهم دون أنْ يدفعهم لذلك مَنْ أضلُّوهم ؛ فهم يتحمَّلون تَبِعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التى ارتكبها .

وقد حسم رسول الله ﷺ ذلك حين قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رُغَاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أو شاة تَيْعَر[١] » .

وقِسْ على ذلك من سرق فى الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٣٢) ، والبخارى فى صحيحه (٢٥٩٧) من حديث أبى حميد الساعدى . ومعنى تيعر أى : تصيح . والخوار صوت البقرة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ٢٥ ﴾ [النحل]

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألاَّ تُلهينا الدنيا عن أهمِّ قضية تشغل بال الخليقة ، وهي البحث عن الخالق الذى أكرم الخَلْق ، وأعدَّ الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه ؛ فهم أميون لم يسبق أنْ جاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ٧٨ ﴾

[البقرة]

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أنْ يبحثوا ، وأنْ يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبةَ الشديدة ستكون لِمَنْ كان عندهم عِلْم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. ٧٩ ﴾ [البقرة]

ويَصِف الحق سبحانه مَنْ يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار مَنْ أضلوهم :

﴿ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ ﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحملون من آثام : فهم لَمْ يكتفوا بأوزارهم ، بل

صَدُّوا عن سبيل الله ، ومنعُوا الغير أنْ يستمعَ إلى قضية الإيمان .

ومن نتيجة ذلك أنْ يبيح مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً مِمَّا حرم الله ؛ فيتحمل مَنْ صدَّهم عن السبيل وِزْر هذا الإضلال .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« شَرُّكم مَنْ باع دينه بِدُنْياه ، وشَرٌّ منه مَنْ باع دينه بِدُنْيا غيره » [١] .

فمَنْ باع الدين ليتمتع قليلاً ؛ يستحق العقاب ؛ أما مَنْ باع دينه ليتمتعَ غيرُه فهو الذى سيجد العقاب الأشدَّ من الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ [٢] عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ [٣] وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ويأتى الحق سبحانه هنا بسيرة الأولين والسُّنن التى أجراها سبحانه عليهم ، ليسلي رسوله ﷺ ؛ ويُوضِّح له أن ما حدث معه ليس بِدْعاً ؛ بل سبق أنْ حدث مع مَنْ سبق من الرسل . ويُبلغه أنه

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : « الخاسر من عمَّر دنياه بخراب آخرته ، والخاسر من استصلح معاشه بفساد دينه ، والمغبون حقاً من رضى بالدنيا من الآخرة » .

(٢) خَرَّ : سقط من علوّ إلى سفل بصوت . وخرَّ البناء : سقط . [لسان العرب - مادة خرر] .

(٣) من فوقهم : أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . [تفسير القرطبى ٣٨٢٢/٥] .

لم يبعث أىّ رسول إلا بعد تَعُمّ البَلْوى ويَطم الفساد ، ويفقد البشر المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يؤمنون ويعملون الصالحات ، ويتواصون بالحقّ وبالصبر .

والمَثلُ الواضح على ذلك ما حدث لبنى إسرائيل ؛ الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

فانصبَّ عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلّ أمة لا تتناهى عن المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

والمكر تبييت خفىّ يُبيّته الماكر بما يستر عن المَمْكُور به . ولكن حين يمكر أحد بالرسل ؛ فهو يمكر بمَنْ يُؤيّده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم اللهُ رسولَه بالمكر ؛ فهو يُلغى كل أثر لهذا التبييت ؛ فقد علمه مَنْ يقدر على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

وطبَّق الحق سبحانه ذلك على رسوله ﷺ ؛ حين مكر به كفار قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه ؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا

خروجه للهجرة[1] ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بأىِّ وسيلة ؛ لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسل لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [النحل]

أى : أنهم إنْ جعلوا مكرهم كالبناية العالية ؛ فالحقُّ سبحانه يتركهم لإحساس الأمن المُزيف ، ويحفر لهم منْ تحتها ، فيخرّ عليهم السقف الذى من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثَل المعنوى بأمرٍ مُحَسٍّ .

وقوله الحق :

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. ﴿٢٦﴾﴾ [النحل]

يُوضِّح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا للسقف ، وهى فوقية شاءها الله ليأتيهم :

﴿الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل]

وهكذا يأتى عذاب الله بَغْتة ؛ ذلك أنهم قد بيَّتوا ، وظنوا أن هذا التبييت بخفاء يَخْفَى عن الحىِّ القيوم .

ولَيْتَ الأمرَ يقتصر على ذلك ؛ لا بل يُعذِّبهم الله فى الآخرة أيضاً :

---

(١) اجتمعت قريش على قتل رسول الله ﷺ فأخذوا من كل قبيلة شاباً فتياً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو هاشم الأخذ بثاره ، فأتاه جبريل قائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك . ولزم المشركون بابه ينتظرون نومه ليقتلوه ، ولكنه ﷺ خرج عليهم وفى يده حفنة من التراب فنثرها على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس] . فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٨٣] بتصرف .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ[1] وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ[2] فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وهكذا يكون العذاب فى الدنيا وفى الآخرة ، ويلْقوْن الخزْى يوم القيامة . والخزْى هو الهوان والمَذلَّة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ؛ ولا يتجلَّد أمامه أحدٌ ؛ فالخِزْى قشعريرة تَغْشَى البدن ؛ فلا يُفلت منها مَنْ تصيبه .

وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام ؛ فالخزْى معنى نفسى ، والمعانى النفسية تنضح على البشرة ؛ ولا يقدر أحد أنْ يكتمَ أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التى عاش بها ذلك الذى بيَّت ومكرَ .

ويُوضِّح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله عن القرية التى كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً[3] كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[4] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) أخزاه : أهانه وفضحه . [القاموس القويم ١/١٩٢] . « يخزيهم . أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم » ، قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٢) .

(٢) تشاقون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [لسان العرب ـ مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التى نقلها ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٩) والقرطبى (٥/٣٩٢١) وساق القرطبى قولاً عاماً أنها أى قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغُد العيش : اتسع وطاب ، وقال تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

أى : كان الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكان الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزى فكُلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدَّعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبُّره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ .. (٢٧) ﴾ [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة ، وجعلتم من المؤمنين شُقَّة أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب » والمقصود هنا أنْ جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّة تُعادونها ، وأخذتُم جانب الباطل ، وتركتُم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾ [النحل]

وكان هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين آتاهم الله العلم .

والعلم ـ كما نعلم ـ يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقَل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقَل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسُل إلى الأمم التى كلَّفَ الحق سبحانه رسله أنْ يُبلِّغوهم منهجه .

وكما شهدتْ الدنيا سقوط المناهج التى اتبعوها من أهوائهم ، وسقوط مَنْ عبدوهم من دون الله سيشهد اليوم الآخر الخزْى والسوء وهو يحيط بهم ، وقد يكون الخزْى من هَوْل الموقف العظيم ، ويحمى الله مَنْ آمنوا به بالاطمئنان .

ونعلم أن الرسول ﷺ قد قال : « ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد »[1] .

وكما بلَّغَ رسولُ الله أمته واستجابتْ له ؛ فقد طلب منهم أيضاً أن يكونوا امتداداً لرسالته ، وأنْ يُبلِّغوها للناس ، ذلك أن الحق سبحانه قد منع الرسالات من بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وصار من مسئولية الأمة المحمدية أنْ تُبلِّغ كل مَنْ لم تبلغه رسالة الرسول ﷺ .

وقد قال ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2]

والحق سبحانه هو القائل[3] :

---

(١) ورد هذا القول فى أحاديث كثيرة منها حديث عبدالله بن مسعود الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٨) قال : خطبنا رسول الله ﷺ فأسند ظهره إلى قبة أدم ، فقال : ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة . اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ علىَّ . فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء] فقال : « حسبك الآن » . فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) . وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين ولفظه « رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى فرفعت رأسى فرأيت دموعه ﷺ تسيل » .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ .. (٤٢) ﴾ [النساء]

أى : يتمنَّوْنَ أنْ يصيروا تُرَاباً ، كما قال تعالى في موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ [النبأ]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ[1] مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾

يقول تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

أى : تتوفَّاهم في حالة كَوْنهم ظالمين لأنفسهم ، وفي آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لحَظِّ نفسه ولصالحها .. فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيك .. ولكن كيف ذلك ؟

---

(١) أى : الاستسلام . أى : أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت . [تفسير القرطبي ٥/٣٨٢٢] .

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهلٌ التصدى له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التى بين جَنْبَيْك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدِّى له ، والتخلّص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أنْ تمنعَ صاحب حَقٍّ حَقَّه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حقَّها ؟

نقول : حين تجوع ، ألاَ تأكل ؟ وحين تعطش ألاَ تشرب ؟ وحين تُرْهق من العمل ألاَ تنام ؟

إذن : أنت تعطى نفسك مطلوباتها التى تُريحها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نِمْتَ وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفى النهاية كانت النتيجة فشلاً فى العمل أو خسارة فى التجارة .... الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسانُ نفسه بما فاتها من منافع فى الدنيا ، وقِسْ على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جُزْئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هى نهاية كل شىء ، أم بنهايتها يبتدىء شىء ؟ بنهايتها يبتدىء شىء ، ونسأل : الشىء الذى سوف يبدأ ، هل هو صورة مكرورة لما انتهى فى الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهى فى الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حَظِّى منه على قَدْر قدراتى ، وقدراتى لها إمكانات محدودة .. أما الذى سيبدأ - أى فى الآخرة - ليس بمُنْتهٍ بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من

نعيم يأتى على قَدْر إمكانات المنعِم ربك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطى نفسك متعةً فى الدنيا الزائلة المنقطعة ، تُفوّت عليها المتعة الباقية فى الآخرة .. وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

نعود إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

أثبتت هذه الآية التوفِّى للملائكة .. والتوفِّى حقيقةً لله تعالى ، كما جاء فى قوله :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكأن الله تعالى هو الذى يتوفّى الأنفُسَ رغم أنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

وقال :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .. (١١) ﴾ [السجدة]

وقال :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام]

إذن : جاء الحَدثُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة عزرائيل مرة ، ومن مُساعديه من الملائكة مرة أخرى . إذن : الأمر إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الآمر .

وقوله تعالى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

معنى التوفّى من وفّاه حقّه أى : وفّاه أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وفّيتك دَيْنك .. أى : أخذت ما لك عندى .

﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨)﴾ [النحل]

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِي ﴾ يعنى ظالمين و ﴿ أَنفُسِهِم ﴾ جمع ، وحين يُقَابَل الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً أى : أن كلاً منهم يظلم نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ .. (٢٨)﴾ [النحل]

أى : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبّرهم وعجرفتهم فى الدنيا .. ذهب عنهم كل هذا بذهاب الدنيا التى راحتْ من بين أيديهم .

وما داموا ألقوا السَّلم الآن ، إذن : فقد كانوا فى حرب قبل ذلك كانوا فى حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشّقاق فى قوله تعالى :

﴿تُشَاقُّونَ .. (٢٧)﴾ [النحل]

أى : تجعلون هذا فى شِقٍّ ، وهذا فى شِقٍّ ، وكأن الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جَلَد[1] لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨)﴾ [النحل]

هذا كقوله تعالى فى آية أخرى :

---

(١) الجلد : القوة والشدة . والجلد : الصلابة والجلادة . [لسان العرب ـ مادة : جلد] .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ[1] إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

والواقع أنهم بعد أنْ ألقَوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاعَ عن أنفسهم :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨)﴾ [النحل]

وتعجب من كَذِب هؤلاء على الله في مثل هذا الموقف ، على مَنْ تكذبون الآن ؟!

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿بَلَىٰ .. (٢٨)﴾ [النحل]

وهي أداةٌ نفي للنفي السابق عليها ، ومعلومٌ أن نَفْي النفي إثبات ، فـ ﴿ بلى ﴾ تنفي :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ (٢٨)﴾ [النحل]

إذن : معناها .. لا .. بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾ [النحل]

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتَفِ بالعلم فقط ، بل دوّن ذلك عليهم وسجّله في كتاب سَيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى :

---

(١) قال ابن عباس معنيين في تأويل كلمة (فتنتهم) : الأول : معذرتهم . الثاني : حجتهم . نقلهما السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٥٨) .

﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء]

وقال :

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[1] فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها .. ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشريّ الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها .. وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما نرقى إمكانات العقل البشرى إلى الإمكانات الإلهية التى لا حدود لها .

فلا وجه - إذن - لأنْ ننكر قدرة الملائكة « رقيب وعتيد»[2] فى تسجيل الأعمال فى كتاب يحفظ أعماله ويُحصى عليه كل كبيرة وصغيرة .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾

سبق أنْ قُلْنا فى شرح قوله تعالى فى وصف جهنم :

---

(١) طائره : عمله وما قُدِّر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال الحسن : أى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٧] .

(٢) يقول تعالى فى سورة ق : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق] .

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر]

أى : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً .. فبابٌ لأهل الربا .. وبابٌ لأهل الرِّشوة .. وباب لأهل النفاق وهكذا .. ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصى !! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر .. حقاً ما أتعس هؤلاء !

وهنا يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النحل]

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذى خُصِّص له .

ثم يقول سبحانه :

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل]

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى فى موضع آخر :

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل]

فتكبَّر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كِبْرهم هذا غير ذاتىّ ؛ لأن الذى يتكبر حقاً يتكبَّر بما فيه ذاتياً لاَ يسْلُبُه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشىء لا يملكه فتكبّره غيرُ حقيقىّ ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبَّروا به فى الدنيا ، وبذلك لا يكون لأحد أنْ يتكبَّر لأن الكبرياءَ الحقيقى لله عزَّ وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) ﴾

وقد سبق أنْ تحدثنا عن قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ[1] الْأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

فهذه مشاهد ولقطات تُبيِّن الموقف الذى انتهى بأنْ أقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآياتُ نزلتْ فى جماعة كانوا داخلين مكة .. وعلى أبوابها التى يأتى منها أهل البوادى ، وقد قسَّم الكافرون أنفسهم على مداخل مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبى الجديد.

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحيَّنون الفرصة ويخرجون على مشارف مكة بحجة رَعْى الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء السائلين ليخبروهم خبر النبى ﷺ وخبر دعوته[2] .

مما يدلُّ على أن الذى يسأل عن شىء لا يكتفى بأول عابر يسأله ، بل يُجدِّد السؤال ليقف على المتناقضات .. فحين سألوا الكافرين قالوا :

---

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة ، فهى الأحاديث لا نظام لها أو لا أصل لها ، أو هى حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهى أكاذيب لا تصدّق بزعمهم . [القاموس القويم ٣١٣/١] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٨٢٤/٥) ، والسيوطى فى الدر المنثور (١٢٥/٥) .

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

﴿ قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠) ﴾ [النحل]

هذا لنفهم أن الإنسانَ إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفى بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر :

﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

وحينما سألوا أهلَ الإيمان والتقوى :

﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠) ﴾ [النحل]

ونلاحظ هنا فى ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا (٣٠) ﴾ [النحل]

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يُبيِّن هُويَّتهم ، وهذا يدلُّنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويُدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضعافاً لا يقدرون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف ـ موقف السؤال إلى أنْ تصل إلى الوجهة الصواب ـ حينما عَتَب الحق تبارك وتعالى على نبى من أنبيائه هو سيدنا داوود ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا

---

(١) تسور السور : تسلَّقه وعلاه . [القاموس القويم ١/ ٣٣٥] .

بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[1] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي[2] فِي الْخِطَابِ (٢٣) ﴾

[ص]

فماذا قال داود عليه السلام ؟

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ .. (٢٤) ﴾ [ص]

وواضحٌ فى حكم داود عليه السلام تأثُّره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكُنْ عنده شيء ، ألم يظلم أخاه بأخْذ نعجته ؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وأدخل فيه حيثية أخرى ، وهنا خطأ إجرائى فى عَرْض القضية ؛ لأن (تسع وتسعون) هذه لا دَخْل لها فى القضية .. بل هى لاستمالة القاضى وللتأثير على عواطفه ومشاعره ، ولبيان أن الخَصْم غنى ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود - عليه السلام - خطأه فى هذه الحكومة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ... (٢٤) ﴾ [ص]

أى : اختبرناه كى نُعلِّمه الدرس تطبيقاً .. أيحكم بالحق ويُراعى جميع نواحى القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربّه وخَرَّ له راكعاً مُنيباً .

---

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شيء . وأشط فى حكمه : جار وظلم . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٢) أكفلنيها : معناه اجعلنى أنا أكفلها وانزل أنت عنها . قاله الزجاج . [لسان العرب - مادة : كفل] . وعزنى فى الخطاب : أى غلبنى فى الاحتجاج . [لسان العرب - مادة : عزز] .

قال تعالى :

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود ـ عليه السلام ـ أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثانى فى الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

ما هو الخير ؟ الخير كُلُّ ما تستطيبه النفس بكل مَلَكَاتها .. لكن الاستطابة قد تكون موقوتة بزمن ، ثم تُورِث حَسْرة وندامة .. إذن : هذا ليس خيراً ؛ لأنه لا خيرَ فى خير بعده النارُ ، وكذلك لا شرَّ فى شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خَيْراً دائماً فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة ، فلو أخذنا مثلاً متعاطى المخدرات نجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائلة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما ينقلب هذا الخير فى نظره إلى شر عاجل فى الدنيا وآجل فى الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير فى نفسك وكيفيته وعاقبته .. وهذا هو الخير فى قوله تعالى :

﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

إذن : هو خير تستطيبه النفس ، ويظل خيراً فى الدنيا ، ويترتب عليه خير فى الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة .. ثم فسَّره الحق تبارك وتعالى فى قوله سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النحل]

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاَّ يترك الدنيا وأسبابها ، فربما أخذها منك الكافر وتغلَّب عليك بها ، أو يفتنك في دينك بسببها ، فمَنْ يعبد الله أَوْلى بسرِّه في الوجود ، وأسرارُ الله في الوجود هي للمؤمنين ، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمنَ الفتنة من الكافرين في دُنْياك .. ولا يـ ـى ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النحل]

أى : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليدُ العليا بما اجتهدوا ، وبما عَملوا في دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسانُ نفسه وينفع غيره ، وكلما اتسعت دائرة النفع منه للناس كانت يدك هي العليا ، وكان ثوابك وخَيْرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبي ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »[1] .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٢٠) ومسلم في صحيحه (١٥٥٢) كتاب المساقاة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

الإحسان فى الدنيا وهى الأمن .. فمَنْ عاش فى الدنيا مستقيماً لم يقترف ما يُعَاقب عليه تجدْه آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر أو مكروه تجده آمناً لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خُذْ مثلاً اللص تراه دائماً مُتوجِّساً[1] خائفاً ، تدور عَيْنه يميناً وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقَّب وراح يقول فى نفسه : لعله يقصدنى .. أما المستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة فى الدنيا أن يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته ولا يُرهق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أرْخِصوه ، قالوا : وكيف لنا ذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإذَا غَلاَ شَىءٌ عَلَىَّ تركْتُه ... فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذَا غَلاَ

ولا تَقُلْ : النفس توَّاقة إليه راغبة فيه ، فهى كما قال الشاعر :

وَالنفْسُ رَاغِبةٌ إذَا رغَّبْتَها ... وَإذَا تُرَدّ إلى قَليل تَقْنَعُ

وفى حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولمَّا ينضج الطعام ، ولم تُعَد المائدة وهو جائع ، فيأكل أىَّ شىء موجود وتنتهى المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنعُ النفسُ بما نالتْه .

ولكى يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته لا بُدَّ له أنْ يوازن بين

---

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . والوجْس : الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك . والتوجس : التسمع إلىَ الصوت الخفى . [لسان العرب ـ مادة : وجس] .

دَخْله ونفقاته ، فمَنْ كان عنده عُسْر فى دَخْله ، أو ضاقت عليه منافذ الرزق لا بُدَّ له من عُسْر فى مصروفه ، ولا بُدَّ له أنْ يُضيِّق على النفس شهواتها ، وبذلك يعيش مستوراً ميسوراً ، راضى النفس ، قرير العين .

والبعض فى مثل هذه المواقف يلجأ إلى الاستقراض للإنفاق على شهوات نفسه ، وربما اقترض ما يتمتع به شهراً ، ويعيش فى ذلة دَهْراً ؛ لذا من الحكمة إذن قبل أن تسأل الناس القرض سَلْ نفسك أولاً ، واطلب منها أن تصبر عليك ، وأن تُنظرك[1] إلى ساعة اليُسْر ، ولا تُلجئك إلى مذلّة السؤال .. وقبل أن تلوم مَنْ منعك لُمْ نفسك التى تأبَّتْ عليك أولاً .

وما أبدع شاعرنا الذى صاغ هذه القيم فى قوله :

إذَا رُمْتَ أنْ تستقرضَ المالَ مُنفقاً ... على شَهَواتِ النفسِ فى زَمَنِ العُسْر

فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها ... عليْكَ وإنظاراً إلى سَاعةِ اليُسْر

فَإنْ فعلَتْ كنتَ الغنى ، وإنْ أبَتْ ... فكُل مَنُوع بعدها واسِعُ العُذْر

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل]

والخير فى الآخرة من الله ، والنعيم فيها على قَدْر المنعِم تبارك وتعالى ، دون تعب ولا كَدٍّ ولا عمل .

---

(١) الإنظار : الإمهال والتأخير . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب - مادة : نظر] .

ومعلوم أن كلمة : ﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ۝ ﴾ [النحل]

التى فسّرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ.. ۝ ﴾ [النحل]

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء فى قول الكافرين :

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ ﴾ [النحل]

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير فى الاثنين ، إلا أن أحدهما زاد فى الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله ﷺ :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »[1] .

لذلك لما قال :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ۝ ﴾ [النحل]

قال : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. ۝ ﴾ [النحل]

أى : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها حسنة الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

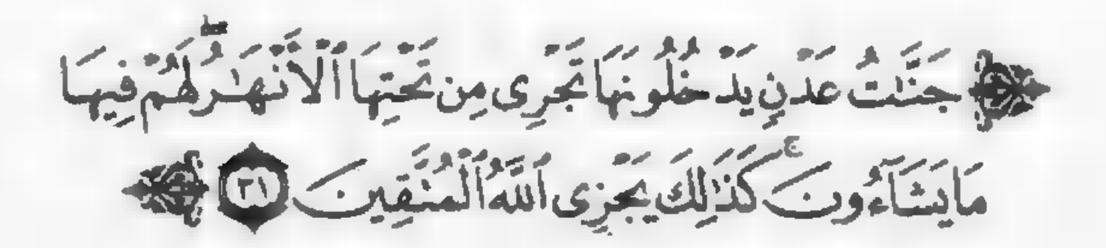
﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [النحل]

أى : دار الآخرة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) كتاب القدر . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار المتقين كأنها برقية ، فقال سبحانه :



والجنات : تعني البساتين التي بها الأشجار والأزهار والثمار والخضرة ، مما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .. ليس هذا وفقط .. هذه الجنة العمومية التي يراها كل مَنْ يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ ويُدْخلكُمْ جنَّات تجْرِي من تحْتِهَا الأَنْهَارُ ومساكنَ طيِّبَةً في جنَّات عدْنٍ ذَلِكَ الْفوْزُ الْعظِيمُ ⑫ ﴾ [الصف]

إذن : هنا قَدْر مشترك للجميع :

﴿ جنَّاتُ عدْنٍ يدْخلُونها تجْرِي من تحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ㉛ ﴾ [النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جنَّاتُ عدْنٍ .. ㉛ ﴾ [النحل]

أي : جنات إقامة دائمة ؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا حاجة له إلى غيرها .. هَبْ أنك دخلْتَ أعظم حدائق وبساتين العالم - هايد بارك مثلاً - فقصارى الأمر أنْ تتنزَّه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك الملَل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه النزهة .. أما الجنة فهي جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٣١)﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة]

ومعنى « تجرى تحتها » أى : أنها تجرى تحتها ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٣١)﴾ [النحل]

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١)﴾ [النحل]

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيئتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلتَ على إنسان رقيق الحال فلك مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلتَ على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لَكَ مشيئة أعلى .. وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشاء منه ، فإذا كان المشاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شىء تكون مشيئتُك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليستْ كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدَّد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حَسْبَ مراتبهم ومراكزهم .

ويُرْوى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها ابنةُ الملك ، ولو كنت طلبتَ منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمتُ أن وراء الألف عدداً لَطلبْته .. فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبي ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآني :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١) ﴾ [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) ﴾ [الزخرف]

قال : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قَلْب بشر »[1] .

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾ [النحل]

أى : هكذا الجزاء الذى يستحقونه بما قدموا في الدنيا ، وبما حَرَموا منه أنفسهم من مُتَع حرام .. وقد جاء الآن وقْتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأدْوم ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ[2] فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(٢) أسلف : قدَّم أو فعل من قبْل . قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠) ﴾ [يونس] أى : ما قدمت وما عملت فى الزمن الماضى فى الدنيا . [القاموس القويم ٣٢٣/١] .

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ[1] يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

أى : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

أى : تأتى لقبْض أرواحهم ، وهنا نَسَب التوفّى إلى جملة الملائكة ، كأنهم جنود ملَك الموت الأصيل عزرائيل ، وقد سبق أنْ قُلْنا : إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التوفّى إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى مَلك الموت :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة]

ومرّة ينسبه إلى نفسه سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

ذلك لأن الله سبحانه هو الآمر الأعلى ، وعزرائيل مَلَكُ الموت الأصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنفِّذون أوامره .

وقوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

تقابل الآية السابقة :

---

(١) ذكر المفسرون فى معنى قوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. (٣٢) ﴾ [النحل] ستة أقوال : **الأول** : طاهرين من الشرك . **الثانى** : صالحين . **الثالث** : زاكية أفعالهم وأقوالهم . **الرابع** : طيبى الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . **الخامس** : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . **السادس** : أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلِّط . [تفسير القرطبى ٣٨٢٦/٥] .

والطيّب هو الشيء الذى يوجد له خيرٌ دائم لا ينقطع ولا ينقلب خَيْره هذا شراً ، وهو الشيء الذى تستريح له النفس راحة تنسجم منها كل ملكاتها ، بشرط أن يكون مستمراً إلى خَيْرٍ منه ، ولا يستمر إلى خَيْرٍ منه وأحسن إلا طَيِّب القيم وطَيِّب الدين ، أما غير ذلك فهو طيب موقوتٌ سرعان ما يُهجر .

ولذلك حينما يدَّعى اثنان المحبة فى الله نقول : هذه كلمة تُقال ، ومِصْداقها أنْ ينمو الودُّ بينكما كل يوم عن اليوم الذى قبله : لأن الحب للدنيا تشوبه الأطماع والأهواء ، فترى الحب ينقص يوماً بعد يوم ، حَسْب ما يأخذ أحدهما من الآخر ، أما المتحابان فى الله فيأخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإنْ رأيت اثنين يزداد وُدّهما فاعلم أنه وُدٌّ لله وفى الله ، على خلاف الوُد لأغراض الدنيا فهو وُدٌّ سرعان ما ينقطع .

هل هناك أطيب من أنهم طهّروا أنفسهم من دَنَس الشرك ؟ وهل هناك أطيبُ من أنهم أخلصوا عملهم لله ، وهل هناك أطيب من أنهم لم يُسْرفوا على أنفسهم فى شىء ؟

وحَسْب هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتى مَلَكُ الموت يمرُّ عليهم شريط أعمالهم ، ومُلَخّص ما قدّموه فى الدنيا ، فيرَوْن خَيْراً ، فتراهم مُستبشرين فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه أبيضَ الوجه مُشْرقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة ؛

ذلك لما عاينه من طيب عمله ، ولما يستبشر به من الجزاء عند الله تبارك وتعالى .

وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشقاوة ، وما هُمْ عليه ساعةَ الغرغرة من سواد الوجه ، وسُوء الخاتمة ، والعياذ بالله .

﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : حينما تتوفَّاهم الملائكة يقولون لهم سلام ؛ لأنكم خرجتم من الدنيا بسلام ، وستُقبِلون على الآخرة بسلام ، إذن : سلام الطيبين سلامٌ موصول من الدنيا إلى الآخرة ، سلامٌ مُترتِّب على سلامة دينكم فى الدنيا ، وسلامة إقبالكم على الله ، دون خوف فى الآخرة .

وهناك سلام آخر جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر]

ثم يأتى السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى ؛ لأن كل هذه السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى :

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

وهل هناك أفضل وأطيب من هذا السلام الذى جاء من الحق تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هنا من سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطيبين وهم

---

(١) الزمر : جمع زمرة ، وهى الفوج والجماعة. [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

فى الجنة ، ونحن نعرف أن أهل الأعراف هم قوم تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم فحُجزوا على الأعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضى أن للميزان كفتين نكرهما الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾ [القارعة]

هاتان حالتان للميزان ، فأين حالة التساوى بين الكفتين ؟ جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ .. ۝٤٦ ﴾ [الأعراف]

أى : يعرفون أهل الجنة وأهل النار :

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦ ﴾ [الأعراف]

ووجه العجب هنا أن أهل الأعراف فى مأزق وشدّة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويُبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم .

---

(١) معناه : فهو ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقيل : معناه : فأمه التى يرجع إليها ويصير فى المعاد إليها هاوية . وهى اسم من أسماء النار . [تفسير ابن كثير ٤/٥٤٣] .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل]

أى : لأنكم دفعتم الثمن ؛ والثمن هو عملكم الصالح فى الدنيا ، واتباعكم لمنهج الحق تبارك وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف :

« لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف نُوفِّق بين الآية والحديث؟

الله تعالى يُوحى لرسوله ﷺ الحديث كما يُوحى له الآية ، فكلاهما يصدر عن مِشْكَاة واحدة ومصدر واحد[2] .. على حَدِّ قوله تعالى :

﴿وَمَا نَقَمُوا[3] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فالحَدَثُ هنا واحد ، فلم يُغْنِهم الله بما يناسبه والرسول بما يناسبه ، بل هو غناء واحد وحَدَث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ بين الآية والحديث .. كيف ؟

الحق تبارك وتعالى كلَّف الإنسانَ بعد سِنِّ الرُّشْد والعقل ، وأخذ يُوالى عليه النعم منذ صِغَره ، وحينما كلَّفه كلَّفه بشىء يعود على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٤٥٩١) من حديث المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه » .

(٣) نقم منه : عاقبه . ونقم الشىء : أنكره وعابه وكرهه . [القاموس القويم : مادة نقم] .

الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد ذلك يُجازيه على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد في الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله في الآخرة هو مَحْضُ الفضل من الله ، ولو أطاع العبدُ ربَّه الطاعة المطلوبة منه في الأفعال الاختيارية التكليفية لما وَفَّى نِعَم الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء في الجنة فَضْلاً من الله ومنَّة .

أو : أنهم حينما قالوا :

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل]

يريدون أن عملهم سبب عاديّ لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله .. فتجمع الآية بين العمل والفضل معاً ؛ لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يُقوِّي هذا بقوله تعالى :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يَفِي بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وفي الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل » .

وأخيراً .. هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم ؟ لا .. بل بمنهج وضعه لهم ربهم تبارك وتعالى .. إذن : بالفضل لا بمجرد العمل .. ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا .. فإذا تفوَّق الولد كان كل شيء لصالحه : النجاح والهدية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بعد أن عرضتْ الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادتْ لهؤلاء الذين قالوا ﴿ أساطير الأولين ﴾ الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْد والتربُّص والإيذاء .

وهذا استفهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون ؟! بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صَدَدْتُم الناس عنها ، ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون أنْ تَرَوْا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيَحُلأن بكم لا محالة :

إما أنْ تأتيكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتى أمرُ ربِّك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أنْ تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيْراً ؟! فلن يأتيكم خير أبداً .. كما قال تعالى فى آيات أخرى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ①﴾ [القمر]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء]

إذن : إنما ينتظرون أحداثاً تأتى لهم بشَرٍّ : تأتيهم الملائكة لقبْض أرواحهم فى حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يُلْقون السَّلَم رَغْماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة[1] الكبرى وهى القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ٣٣ ﴾ [النحل]

أى : ممَّن كذَّب الرسل قبلهم .. يعنى هذه مسألة معروفة عنهم من قبل :

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .. ٣٣ ﴾ [النحل]

أى : وما ظلمهم الله حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا ، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب ؛ لأن العذاب لم يحُلّ بهم بعد .

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٣٣ ﴾ [النحل]

وهذا ما نُسمِّيه بالظلم الأحمق ؛ لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظُلْم النفس فلا يعود عليها بشيء ؛ وذلك لأنهم أسرفوا على أنفسهم فى الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك فوَّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) طم الأمر : اشتد . وسمى يوم القيامة بالطامة لشدته وعظم هوله . [القاموس القويم ١/٤٠٧] .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم[1] مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) ﴾

أى : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وسُمِّى ما يُفعل بهم سيئة ؛ لأن الحق تبارك وتعالى يُسمِّى جزاء السيئة سيئة فى قوله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وهذه تُسمَّى المشاكلة[2] ، أى : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَمِلُوا ﴾ العمل هو مُزَاولة أىِّ جارحة من الإنسان لمهمتها ، فكُلُّ جارحة لها مهمة ، الرِّجْل واليد والعَيْن والأذن .. الخ . فاللسان مهمته أن يقول ، وبقية الجوارح مهمتها أنْ تفعل . إذن : فاللسان وحده أخذ النصف ، وباقى الجوارح أخذتْ النصف الآخر ؛ ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعوّل الأساسي .

فكلمة الشهادة : لا إله إلا الله لابُدَّ من النطق بها لنعرف أنه

---

(١) حاق به الشيء : نزل به وأحاط به . قال الزجاج فى معنى الآية : أى : أحاط بهم العذاب الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون به . [لسان العرب ـ مادة : حيق] .

(٢) المشاكلة : مصطلح فى بديع القرآن ومعناه : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً ، والأول كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] . فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . [الإتقان فى علوم القرآن ٢/ ٢٨١] .

مؤمن ، ثم يأتي دَوْر الفعل ليُساند هذا القول ؛ لذا قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ③ ﴾ [الصف]

وبالقول تبلُغ المناهج للآذان .. فكيف تعمل الجوارح دون منهج ؟ ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وَضْعاً خاصاً بين باقي الحواس ، فهي أول جارحة في الإنسان تؤدي عملها ، وهي الجارحة التي لا تنقضي مهمتها أبداً .. كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن ، وبها يتم الاستدعاء والاستيقاظ من النوم .

وإذا استقرأت آيات القرآن الكريم ، ونظرت في آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑦⑧ ﴾ [النحل]

ثم هي آلة الشهادة يوم القيامة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ .. ②⓪ ﴾ [فصلت]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ①① ﴾ [الكهف]

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أي : عطلنا الأذن التي لا تعطل حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار في كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى في تكوينهم الجارحي شيئاً معيناً لما استقر لهم نوم طوال ٣٠٩ أعوام .

ويقول الحق تعالى :

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾ [النحل]

بماذا استهزأ الكافرون ؟ استهزأوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

وقالوا :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجَّلوا العذاب فقالوا :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقالوا :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحد من عدوه أن يُنزِل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً ؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدروا على هذا العذاب الذى تستهزئون به . فقال :

---

(١) معناه : أئذا متْنا وصرْنا تراباً وعظاماً فضللْنا فى الأرض فلم يتبين شىء من خلقنا . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) الكسفة : القطعة من الشىء . يقال : أعطنى كسفة من ثوبك . [تفسير القرطبى ٤٠٥٩/٥] .

﴿ وَحَاقَ بِهِم .. (٣٤) ﴾ [النحل]

أى : أحاط ونزل بهم ، فلا يستطيعون منه فراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) ﴾ [البروج]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) ﴾

نلاحظ أنه ساعة أنْ يأتىَ الفعل نصاً فى مطلوبه لا يُذكر المتعلق به .. فلم يَقُلْ : أشركوا بالله .. لأن تلك معلوم ، والإشراك معناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٣٥) ﴾ [النحل]

إنهم هنا يدافعون عن أنفسهم ، وهذه هى الشماعة التى يُعلّق عليها الكفار خطاياهم ـ شماعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا .

فيقول المسرف على نفسه : ربُّنا هو الذى أراد لى كذا ، وهو

الذى يهدى ، وهو الذى يُضل ، وهو الذى جعلنى أرتكب الذنوب ، إلى آخر هذه المقولات الفارغة من الحق - والنهاية : فلماذا يعذبنى إذن ؟

وتعالوا نناقش صاحب هذه المقولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ، والقضية غير واضحة أمامه .. ولكى نزيل عنه هذا الغموض نقول له : ولماذا لم تقُل : إذا كان الله قد أراد لى الطاعة وكتبها علىَّ ، فلماذا يثيبنى عليها .. هكذا المقابل .. فلماذا قُلْت بالأولى ولم تقُلْ بالثانية ؟!

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشر والعذاب ، فوقفتْ فى عقلك .. أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذِكْرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك .. هل كلها خير ؟ أم هل كلها شرّ ؟ أمَا منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ؟

والإجابة هنا واضحة . إذن : لا أنت مطبوع على الخير دائماً ، ولا أنت مطبوع على الشرّ دائماً ، لذلك فأنت صالح للخير ، كما أنت صالح للشر .

إذن : هناك فَرْق بين أن يخلقك صالحاً للفعل وضدّه ، وبين أنْ يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضده ، ولما خلقك صالحاً للخير وصالحاً للشر أوضح لك منهجه وبيَّنَ لك الجزاء ، فقال : اعمل الخير .. والجزاء كذا ، واعمل الشر .. والجزاء كذا .. وهذا هو المنهج .

ويحلو للمسـرف على نفسه أنْ يقولَ : إن الله كتـبه علىَّ .. وهذا عجيب ، وكأنّى به قـد اطّلع على اللوح المحفوظ[1] ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً فـراحَ فشربها ؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمـر هكذا لكنتَ طائعاً بشُـرْبك هذا ، لكن الأمـر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كُتبت عليك إلا بعد أنْ فعلتَ ، والفعل منك مسبـوق بالعزم على أنْ تفعلَ ، فهل اطلعتَ على اللوح المـحفوظ كى تعرف ما كتبه الله عليك ؟

وانتبـه هنا واعلم أن الله تعـالى كـتب أزلاً ؛ لأنه علم أنك تفـعل أجلاً ، وعِلْم الله مُطْلَق لا حدودَ له .

ونضرب مـثلاً ـ ولله المـثل الأعلى ـ الوالد الذى يلاحظ ولده فى دراسته ، فيـجده مُهملاً غيـر مُجدٍّ فيتوقـع فشلـه فى الامتحان .. هل دخل الوالد مع ولـده وجـعله يكتب خطأ ؟ لا .. بل تـوقّع له الفـشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُـسْبقاً وأزلاً ؛ لأنه يعلـم ما يفعله العبـد أصلاً .. وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخـرى لهذا المنهج حينما وجَّه المؤمنين إلى الكعـبة بعد أنْ كانت وجْـهتهم إلى بيت المقـدس ، فقال تعالى :

---

(١) اللوح المحفوظ : شىء لا يعلمه إلا الله ، فيه ما قدَّره الله وقضاه على الخلائق .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ[1] فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

ثم أخبر نبيه ﷺ بقوله :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

جاء الفعل هكذا في المستقبل : سيقول .. إنهم لم يقولوا بَعْد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلَى على مسامع الجميع غير خاف على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسكتُوا ولم يُبادروا بهذه المقولة ، ويُفوِّتوا الفرصة بذلك على محمد ﷺ وعلى صِدْق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا ويُوجِّهوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة في القرآن الكريم .

---

(١) أخرج ابن ماجه في سننه (١٠١٠) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء ، وعلم الله من قلب نبيه ﷺ أنه يهوى الكعبة ، فصعد جبريل ، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ، ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] . فأتانا آت فقال : إن القبلة قد صرفت إلى الكعبة . وقد صلينا ركعتين إلى بيت المقدس ونحن ركوع فتحولنا . فبنينا على ما مضى من صلاتنا ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] .

وهذه الآية : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

تشرح وتُفسِّر قول الله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ .. (١٤٨) ﴾ [الأنعام]

فهنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لنعلم أنه لا يستطيع أحد معارضة قَوْل الله تعالى ، أو تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

﴿ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن أنفسهم فقط ؟ ما الحكمة في دفاعهم عن آبائهم هنا ؟ الحكمة أنهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد ، وسوف يجعلونها حُجَّة حينما يقولون :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم[1] مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا حُجَّة لهؤلاء الذين يُعلِّقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر ، وأن الله تعالى كتب عليهم المعصية ؛ لأننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الأباطيل ، ومنهم مَنْ تأخذه الجرأة على الله عز وجل فيُشبِّه هذه القضية بقول الشاعر :

أَلْقَاهُ في اليَمِّ مكتوفاً وقَالَ لَهُ إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تبتلَّ بالمـاء

(١) أي : وراءهم سائرون متخذين إياهم قدوة ، ومهتدين بهديهم .

وما يفعل هذا إلا ظالم !! تعالى الله وتنزّه عن قَوْل الجُهّال والكافرين ، وأيضاً هناك مَنْ يقول : إن الإنسان هو الذى يخلق الفعل ، ويعارضهم آخرون يقولون : لا بل ربّنا هو الذى يخلق الفعْل .

نقول لهم جميعاً : افهموا ، ليس هناك فى الحقيقة خلافٌ .. ونسأل : ما هو الفعل ؟ الفعل توجيه جارحة لحدث ، فأنت حينما تُوجِّه جارحة لحدث ، ما الذى فعلته أنت ؟ هل أعطيت لليد مثلاً قوة الحركة بذاتها ؟ أم أن إرادتك هى التى وجَّهَتْ حركتها ؟

والجارحة مخلوقة لله تعالى ، وكذلك الإرادة التى حكمتْ على الجارحة مخلوقة لله أيضاً .. إذن : ما فعلته أنت ما هو إلا أن وجّهْتَ المخلوق لله إلى مَا لا يحب الله - فى حالة المعصية - وإلى ما يحبه الله فى حالة الطاعة .

كذلك لا بُدّ أنْ نلاحظ أن لله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية .. فالمراد الكونىّ هو ما يكون فعلاً ، كُلُّ ما تراه فى الكون أراد الله أن يكون . والمراد الشرعى : هو طَلَبُ الشىء لمحبوبيته .

ولنأخذ مثلاً لتوضيح ذلك : كُفْر الكافر ، أراد الله كَوْنياً أن يكون ، لأنه خلقه مختاراً وقال :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وطالما خلقك الله مختاراً تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان ، أو تتوجه إلى الكفر ، ثم كفرتَ . إذن : فهل كفرتَ غَصْباً عنه وعلى

غير مُراده سبحانه وتعالى ؟ حاشا لله ومعنى ذلك أن كُفْر الكافر مُراد كونيّ ، وليس مراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كفر المؤمن ، المؤمن حقيقة لم يكفر . إذن : هو مراد شرعي وكذلك مراد كوني ، وهكذا ، فلا بُدَّ أن نُفرِّق بين المراد كونياً والمراد شرعياً .

ولذلك لما حدثت ضجة في الحرم المكي منذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين ، قال بعضهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وها هو الحال قَتْل وإزعاج للآمنين فيه ؟!

والحقيقة أن هؤلاء خلطوا بين مراد كوني ومراد شرعي ، فالمقصود بالآية : فَمنْ دخله فأمِّنوه . أي : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلَب من الله تبارك وتعالى ، وهو مراد شرعي قد يحدث وقد لا يحدث .. أما المراد الكوني فهو الذي يحدث فعلاً . وبذلك يكون ما حدث في الحرم مراداً كونياً ، وليس مراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل]

وقد ورد توضيح هذه الآية في قوله تعالى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ[1] وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة]

ثم يقول تعالى مقرراً :

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النحل]

أى : هذه سُنَّة السابقين المعاندين .

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل]

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج « افعل أو لا تفعل » . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفعْل وقادر على التَّرْك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المكْره فلا يتعلق به حكم ؛ لأنه فى حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبه ، وكذلك المجنون والصغير الذى لم يبلغ التعقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكْم .. لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لآلة الترجيح فى الاختيار .. وهى العقل .

وحينما يكون الإنسان محلَّ تكليف عليه أنْ يجعلَ الفيصل فى :

---

(١) البحيرة : الناقة إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها أى : شقوها وأعفوها أن ينتفع بها ، ولم يمنعوها من ماء ولا مرعى .

السائبة : الناقة التى تُسيَّب فتترك مهملة لنذر ونحوه .

الوصيلة : الناقة تبكر بأنثى ثم تثنى بأنثى فتعد مباركة لا تُذبح . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٠].

الحامى : من الإبل الذى طال مُكثه عند أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فحموا ظهره وتركوه. [المعجم ـ مادة : حما] .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ۝ ٣٥ ﴾ [النحل]

بلاغ المنهج بافعل ولا تفعل ؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا بقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلِّغ ﷺ ، فقال تعالى في حَقّ هؤلاء :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ ١٩ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم .. ۝ ٢٠ ﴾ [الزخرف]

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝ ٢١ ﴾ [الزخرف]

وخاطبهم سبحانه في آية أخرى :

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝ ٣٧ ﴾ [القلم]

وكلمة ﴿ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : لا بُدّ أن يُبلِّغ المكلّف ، فإنْ حصل تقصير في ألاَّ يُبلِّغ المكلَّف يُنسَب التقصير إلى أهل الدين الحق ، المنتسبين إليه ، والمُنَاط بهم تبليغ هذا المنهج لمنْ لَمْ يصلْه . وقد وردت الأحاديث الكثيرة في الحَثّ على تبليغ دين الله لمن لم يصلْه الدين .

كما قال ﷺ : « بلِّغُوا عنِّي ولو آية »[1] وقوله ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعَاهَا ثم أدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى من سامع »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٦١) ، وأحمد في مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٠٢) ، والدارمي (١/١٣٦) والترمذي في سننه (٢٦٦٩) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٣٧) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة في سننه (٢٣٢) والحميدي (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾

فالحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى .. فقوله :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

أى : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربَّى ودَرَج ، يعرفون خِصَاله وصِدْقه ومكانته فى قومه .

أما قوله تعالى :

﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

فـ « فى » هنا تفيد الظرفية . أى : فى الأمة كلها ، وهذه تفيد التغلغل فى جميع الأمة .. فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون أخرى ، بل لا بُدَّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة :

﴿أَرْسَلْنَا .. (٢٦)﴾ [الحديد]

ومرة أخرى يقول :

﴿بَعَثْنَا .. (٣٦)﴾ [النحل]

وهناك فرق بين المعنيين فـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسِل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم ـ عليه السلام ـ حيث علّمه الله الأسماء كلها ، ثم أهبطه من الجنة إلى الأرض ، وقال :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة]

وقال في آية أخرى :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾ [طه]

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم ـ عليه السلام ـ والمفروض أن يُبلّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض في أبنائه أن يُبلّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلّغ للمنهج فتنطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتي هكذا فجأة لجماعة من الجماعات ، بل هي موجودة منذ أول الخلق .

فالرسالات إذن بَعْثٌ لمنهج إلهى ، كان يجب أنْ يظلَّ على ذكر من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلّغ فلا يُبلّغ ، وقد تصيب المبلَّغ فلا يلتزم بالبلاغ ؛ لذلك يجدد الله الرسل .

وقد وردت آياتٌ كثيرة فى هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ[1] فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضَعُون لأنفسهم القوانين التى تُنظِّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدِّد الجرائم ويُعاقب عليها ؟ فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ .

ومن هنا تأتى أهمية وَضْع القوانين ونشرها فى الصحف والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أنْ نعاقبَ إنساناً على جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسولان ، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط متعاصريْن ؟ ألم يكُنْ شعيب وموسى متعاصريْن ؟ فما علة ذلك ؟

---

(١) خلا : مضى وذهب وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

نقول : لأن العالَم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكُلّ جماعة منعزلة فى مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة فى أرض لا تدرى بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكُلّ جماعة بيئتُها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنْكَرات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطفِّفون[1] الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكْران دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كُلّ فى بلد على حدَة .

لكن رسالة محمد ﷺ كانت على موعد مع التقاءات الأمكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً فى أمريكا فنعلم بها فى نفس اليوم .. إذن : أصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أنْ يُرْسلَ ﷺ للناس كافة ، وللأزمنة كافة .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

أى : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كففْتُ القماش أى : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهبَ منه شيءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

---

(١) طفف المكيال : بخسه ونقصه . [المعجم الوجيز ـ مادة : طفف] .

هذه هى مهمة الرسل :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، وبنهى عن أمر فلا يُفعل ؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعى الالوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذى جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ وعن أىِّ شىءٍ تنهانا ؟

فهنا أمْر بالعبادة ونَهْى عن الطاغوت ، وهذا يُسمُّونه تَحْلِيةٌ وتَخْلِيةٌ : التحلية فى أنْ تعبدَ الله ، والتخلية فى أنْ تبتعدَ عن الشيطان .

وعلى هذين العنصرين تُبْنَى قضية الإيمان حيث نَفْى فى : « أشهد أن لا إلهَ » .. وإثبات فى « إلا الله » ، وكأن الناطق بالشهادة ينفى التعدُّد ، ويُثبت الوحدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشرك ، وحلَّيْتَ نفسك بالوحدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها فى الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية ؛ ولذلك نجد فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : خلِّى عن العذاب .

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : حلِّى بالنعيم .

وقوله سبحانه :

﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

أى : ابتعدوا عن الطـاغوت .. فيكون المقابل لهـا : تقرَّبوا إلى الله و ﴿ الطَّاغُوت ﴾ فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذِّرْوة فى الطغيان وزادَ فيه .. وفَرْق بين الحدث المجرَّد مثل طغى ، وبين المبـالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذى يَزيده الخضـوعُ لباطله طُغْياناً إلى باطل أعلى .

ومثال ذلك : شاب تمرَّد على مجتمعه ، وأخذ يسرق الشىء التافه القليل ، فـوجد الناس يتـقرَّبـون إليه ويُداهنونه اتقـاء شره ، فـإذا به يترقَّى فـى باطله فيشـترى لنفسه سـلاحاً يعتـدى به على الأرواح ، ويسرق الغالى من الأمـوال ، ويصل إلى الذروة فى الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديـات تتحملهـا العاقلة[1] وتقوم بهـا عن الفاعل الجانى ، ذلك لمـا وقع عليهـا من مسئـولية تَرْك هذا الجـانى ، وعدم الأخذ على يده وكَفّه عن الأذى .

ونلاحظ فى هذا اللفظ (الطاغـوت) أنه لما جمعَ كلَّ مبـالغة فى الفعل نجـده يتأبَّى على المطاوعة ، وكأنه طاغـوت فى لفظه ومعناه ، فنراه يدخل على المـفرد والمثنى والجـمع ، وعلى المذكـر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغـوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان

(١) العاقلة : هم العصبة ، وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . [لسان العرب ـ مادة : عقل] .

طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصِّيَغ .

إذن : الطاغوت هو الذى إذا ما خضع الناس لظُلْمه ازداد ظلماً .

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَخَفَّ[1] قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف]

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨) ﴾ [القصص]

ويُحكَى فى قصص المتنبِّئين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة ، فأمرهم ألاَّ يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لأمره بالاً لعله ينتهى ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدَّعى النبوة ، فجاءوا بالأول ليرى رأيه فى النبى الجديد : ما رأيك فى هذا الذى يدعى النبوة ؟! أيكم النبى ؟ فقال : إنه كذاب فإنى لم أرسل أحداً !! ظن أنهم صدقوه فى ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ فى القرآن ثمانى مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتأنيث ، ومرة وردتْ للمؤنث فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧) ﴾ [الزمر]

ومرة وردتْ للمذكر فى قوله تعالى :

---

(١) استخفه : استضعف عقله وسخَّره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحُمْق . [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] . والمقصود به فى الآية فرعون .

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. (٦٠)﴾ [النساء]

وفى اللغة كلمات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، مثل قَوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. (١٤٦)﴾ [الأعراف]

وقوله :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِى .. (١٠٨)﴾ [يوسف]

فكلمة « سبيل » جاءت مرّة للمذكّر ، ومرّة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ .. (٣٦)﴾ [النحل]

وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنها حُجَّة يقول من خلالها : إن الهداية بيد الله ، وليس لنا دَخْل فى أننا غير مهتدين .. إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن .. يقول تعالى :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت]

لو كانت الهداية بالمعنى الذى تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضّلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط ،

ولهم حقّ الاختيار ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتى للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذى أقبل على الله بإيمان به زاده هُدىً وآتاه تقواه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]

وقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية فى الأولى ، وأثبتها له فى الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدَّث عنه واحد هو الرسول ﷺ ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحْدِثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟!

لا بد أن تكون الجهة مُنفكّة .. فى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]

أى : لا تستطيع أنْ تُدخِل الإيمان فى قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدى إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، ويَصْرف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ .

وكأن الله تعالى فى خدمة عبيده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسّره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قَلْب الكافر بالكفر .

إذن : تأتى الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما فى الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشَرْح الصدر للإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد]

فقوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

أى : هداية إيمان ومعونة بأن مكّن المنهج فى نفسه ، ويسَّره له ، وشرح به صدره .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

حقَّتْ : أى أصبحتْ حقاً له ، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم ، وما وجبتْ لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

أيُّهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمَّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أنْ حُرِموا الهداية .

ونذكر هنا مثالاً كثيراً ما كررناه ليرسخَ فى الأذهان ـ ولله المثل

الأعلى - هَبْ أنك سائر في طريق تقصد بلداً ما ، فصادفك مُفْترق لطرق متعددة ، وعلامات لاتجاهات مختلفة ، عندها لجأتَ لرجل المرور : من فضلك أريدُ بلدة كذا ، فقال لك : من هنا . فقلت : الحمد لله ، لقد كِدْتُ أضلّ الطريق ، وجزاكَ الله خَيْراً .

فلمّا وجدك استقبلتَ كلامه بالرضا والحب ، وشكرْتَ له صنيعه أراد أنْ يُزيد لك العطاء . فقال لك : لكن في هذا الطريق عقبةٌ صعبة ، وسوف أصحبُك حتى تمرَّ منها بسلام .

هكذا كانت الأولى منه مُجرّد دلالة ، أما الثانية فهي المعونة ، فلمّا صدَّقْته في الدلالة أعانكَ على المدلول .. هكذا أمْرُ الرسل في الدلالة على الحق ، وكيفية قبول الناس لها .

ولك أنْ تتصور الحال لو قُلْتَ لرجل المرور هذا : يبدو أنك لا تعرف الطريق .. فسيقول لك : إذن اتجه كما تُحِب وسِرْ كما تريد .

وكلمة « الضلالة » مبالغة من الضلال وكأنها ضلال كبير ، ففيها تضخيمٌ للفعل ، ومنها قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا .. ۝٧٥ ﴾ [مريم]

ثم يُقيم لنا الحق - تبارك وتعالى - الدليلَ على بَعْثة الرسل في الأمم السابقة لنتأكد من إخباره تعالى ، وأن الناسَ انقسموا أقساماً بين مُكذِّب ومُصدّق ، قال تعالى :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [النحل]

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

فأمر الله تعالى بالسياحة فى الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٣٦)﴾ [النحل]

وهل نحن نسير فى الأرض ، أم على الأرض ؟

نحن نسير على الأرض .. وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربُّنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويُثبت العلم صدْق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظنُّ أن الأرض هى هذه اليابسة التى نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوى) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدونه لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوى جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير فى الأرض ، كما نطق بذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه العزيز .

ونقف أمام ملْحظ آخر في هذه الآية :

﴿ فسيرُوا في الأرْضِ فانظُرُوا .. (١٣٧) ﴾ [آل عمران]

وفي آية أخرى يقول :

﴿ قُلْ سيرُوا في الأرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام]

ليس هذا مجرد تفنُّن في العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أي : يأتي النظر بعد السَّيْر مباشرة .. أما في العطف بثُم فإنها تفيد الترتيب مع التراخي . أي : مرور وقت بين الحدثيْن ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أماتَهُ فأقْبرَهُ (٢١) ثُمَّ إذَا شاءَ أنشرَهُ[1] (٢٢) ﴾ [عبس]

وقول الحق سبحانه :

﴿ فانظُرُوا .. (٣٦) ﴾ [النحل]

فكأن الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بُدَّ - إذن - من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التي أصبحتْ أثراً بعد عَيْن .

وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفد إليها السُّياح من شتى دول العالم المتقدم ؛ ليروْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعجزهم ويُحيِّرهم ، ولم يستطيعوا فَكَّ طلاسمه حتى الآن .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إذَا شاءَ أنشرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] بعثه من قبره . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

ومع ذلك لم يترك الفراعنة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ، أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى ؛ مما يدل على أن هؤلاء القوم أُخذوا أَخْذة قوية اندثرتْ معها هذه المراجع وهذه المعلومات ، كما قال تعالى :

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم]

وقد ذكر لنا القرآن من قَصَص هؤلاء السابقين الكثير كما في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

وقال :

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ[3] عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الفجر]

هذا ما حدث للمكذِّبين في الماضي ، وإياكم أنْ تظنُّوا أن الذي يأتي بعد ذلك بمنجىً عن هذا المصير .. كلا :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) الركز : الحسّ والصوت الخفيّ تسمعه من بعيد . [لسان العرب ـ مادة : ركز] .

(٢) يعني : يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . [تفسير ابن كثير ٤/٥٠٨] .

(٣) قال الفراء : هذه الكلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط جرى به الكلام والمثل . وهو عندهم غاية العذاب . [لسان العرب ـ مادة : سوط] .

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يُسلِّى الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ ، ويثبت له حِرْصَه على أمته ، وأنه يُحمِّل نفسه فى سبيل هدايتهم فوق ما حمَّله الله ، كما قال له فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذبين المعاندين ، فيقول تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَن يُضِلُّ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدعُه إلى كفره ، بل ويطمس على قلبه غيْرَ مأسُوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله إلى ما يريد .

﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) باخع : مهلك . بخع نفسه : قتلها هماً وغيْظاً وحزْناً .

إذن : المسألة ليستْ مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلِّصهم منها ، كما قال تعالى :

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾ [الشعراء]

إذن : لا يهدى الله مَن اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعذِّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصُره فيه .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ[1] بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

سبحان الله !! كيف تُقسِمون بالله وأنتم لا تؤمنون به ؟! وما مدلول كلمة الله عندكم ؟.. هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن موضوع الإيمان غير واضح في عقولهم ؛ لأن كلمة الله نفسها دليلٌ على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة في اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً .. فالتلفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .

---

(١) ذكر الواحدى في سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من المسلمين على مشرك دَيْن فتقاضاه ، فكان فيما تكلم به المسلم : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا . فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت . فنزلت الآية [أسباب النزول للواحدى ص ١٦٠] ، [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٩] .

إذن : توجد المعانى أولاً ، ثم توضع للمعانى أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده ؟ يكون قبله .. فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتم ؛ لأن كلمة الله لفظ موجود فى اللغة ، ولا بُدّ أن لها معنىً سبق وجودها .

إذن : فالإيمان سابقٌ للكفر .. وجاء الكفر منطقياً ؛ لأن معنى الكفر : السَّتْر .. والسؤال إذن : ماذا ستر ؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

أى : مبالغين فى اليمين مُؤكّدينه ، وما أقربَ غباءَهم هنا بما قالوه فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

فليس هذا بكلام العقلاء . وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :

﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأنْ قالوا :

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ بَلَىٰ ﴾ .

وهى أداة لنفى النفى السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفى النفى إثبات ، إذاً « بلى » تنفى النفى قبلها وهو قولهم :

﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨)﴾ [النحل]

فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (٣٨)﴾ [النحل]

والوَعْد هو الإخبار بشيء لم يأتِ زمنه بعد ، فإذا جاء وَعْدٌ بحدث يأتي بَعْد ننظر فيمَنْ وعد : أقادرٌ على إيجاد ما وعد به ؟ أم غير قادر ؟

فإن كان غيرَ قادر على إنفاذ ما وعد به لأنه لا يضمن جميع الأسباب التي تعينه على إنفاذ وعده ، قُلْنا له قُلْ : إنْ شاء الله .. حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تَفِ بوعدك التمسْنا لك عُذْراً ، وحتى لا تُوصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبتَ الأمر إلى مشيئة الله .

والحق - تبارك وتعالى - لا يمنعنا أن نُخطِّط للمستقبل ونعمل كذا ونبني كذا .. خَطِّط كما تحب ، واعْدُدْ للمستقبل عدّته ، لكن أردف هذا بقولك : إنْ شاء الله ؛ لأنك لا تملك جميع الأسباب التي تمكِّن من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

ونضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك أردتَ أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه في أمر ما .. هل ضمنت لنفسك أن تعيش لغد ؟ وهل ضمنت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً ؟ وهل ضمنتَ ألاَّ يتغير الداعي الذي تريده ؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب ألَمَّ بك

عائق منعك من الذهاب . إذن : يجب أن نُردف العمل في المستقبل بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ ما يَعد به ؛ لأنه لا قوة تستطيع أن تقفَ أمام مُراده ، ولا شيءَ يُعجزه في الأرض ولا في السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً) أنْ يُوفّيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [النحل]

أي : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

وقال : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

فقد استبعد الكفار أمر البعث ؛ لأنهم لا يتصورون كيف يبعث الله الخلْق من لَدُن آدم - عليه السلام - حتى تقوم الساعة .. ولكن لِمَ تستبعدون ذلك ؟ وقد قال تعالى :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ (٢٨) ﴾ [لقمان]

فالأمر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على حدة .. لا .. ليس في الأمر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً .

---

(١) رفت الشيء ، جعله رفاتاً : أي دقه وكسّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

ونضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - فنحن نرى مثل هذه الأوامر فى عالم البشر عندما يأتى المعلّم أو المدرب الذى يُدرِّب الجنود نراه يعلّم ويُدرِّب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً وبكلمة واحدة يقولها يمتثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندى وأوقفه كما يريد ؟! لا .. بل بكلمة واحدة تَمَّ له ما يريد .

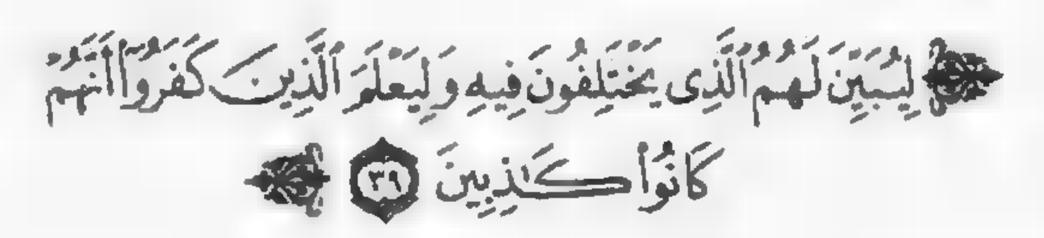
وكأن انضباط المأمور وطاعته للآمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات فى الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى .. هى كلمة واحدة بها يتم كل شىء .. فليس فى الأمر مُعَالجة ، لأن المعالجة أنْ يُباشر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا .. بل بالأمر الانضباطى : كنْ .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النحل]

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه :



فمعنى قوله تعالى :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. (٣٩) ﴾ [النحل]

أى : من أمر البعث ؛ لأن القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء ؛ ولذلك كنت فى جدالى للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفترين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا .. فماذا فعلتُم بهم ؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة ١٩١٧ ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء ؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتى فَصْل الخطاب فى قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) ﴾ [النحل]

أى : كاذبين فى قولهم :

﴿ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

وذلك علم يقين ومعاينة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدى التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين فى قَسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يموت وبالغوا فى الأَيْمان وأكَّدوها ؛ ولذلك يقول تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الواقعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضمّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهي (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومُزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً ، كل واحد منتظرٌ دورَه ، منتظر الإشارة ؛ ولذلك جاء في الخبر : « أمور يبديها ولا يبتديها » .

فالأمر يتوقف على الإذن : اظهر يظهر .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين .. تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذى وُضِع فيها ، ثم تنفجر دون تدخُّل من صانعها .. مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها في الإذن .. وإن كان الأمر في حقِّه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

---

(١) الحنث : الخُلْف في اليمين . وهو أيضاً الذنب العظيم والإثم . وقيل : هو الشرك . [لسان العرب - مادة : حنث] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ[1] فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظلم والاضطهاد في سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحِّي الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لأمر يقينيّ .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذي أنكره الكافرون وألحُّوا في إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النحل]

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسيء ، ومنهم من يُحسن ، فهل يعتقدون - في عُرْف العقل - أن يترك الله مَنْ أساء ليُعربد في خلْق الله دون أن يُجازيه ؟

ذلك يعني أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمنَّوا البعث ، أمَا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعي أنْ يُنكروا البعث ،

(١) بوأه : أسكنه . وبوأه في الأرض : مكَّن له فيها . والمعنى : أي ننزلهم منزلة حسنة بالنصر وإغداق النعم عليهم في الدنيا . [القاموس القويم ١/٨٨] .

ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأمانى الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذى يدفعهم إلى التضحية فى سبيل هذا الإيمان .. إذن : لا بُدَّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينتشر الإسلام فى بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظَانٌّ أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا .. هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة .. إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبارَ الصناديدَ العتاة .

وكان من الممكن أن ينصرَ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلى كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحةُ الإيمانية فى مكّة أولاً ؛ لأن مكة مركز السيادة فى جزيرة العرب ، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أىّ قبيلة فى الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه[1] .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالوا : إن الإسلام استضعفَ جماعة من الناس ، وأغرَاهم بالقول حتى آمنوا به . لا ،

---

(١) يدل على هذا قوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿١٩﴾﴾ [التوبة] .

فالصيحة الإسلاميةُ جاءت في أُذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين أمّنهم الله في رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه في بلد السادة ؟ نقول : لا .. الصيحة في أذن الباطل تكون في بلد السادة في مكة ، لكن نُصْرة الدين لا تأتي على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتي في المدينة .

وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد في مكة فرضتْ الإيمان بمحمد .. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد ﷺ هو الذي خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانتْ لها قريش نفسها .

وما دامت هناك معركة ، فمَن المطحون فيها ؟ المطحون فيها هو الضعيف الذي لا يستطيع أنْ يحميَ نفسه .. وهؤلاء هم الذين ظُلموا .. ظُلموا في المكان الذي يعيشون فيه ؛ ولذلك كان ولا بُدَّ أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .

وقد جاء رَفْع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل .. فكانت المرحلة الأولى أن ينتقلَ المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نَشْر دينهم ، بل إلى دار أَمْن فقط يأمنون فيها على دينهم .. مجرد أَمْن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .

ولذلك استعرض رسول الله ﷺ البلاد كلها لينظر أيَّ الأماكن تصلح دار أَمْن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم

يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه »[1] .

وتكفى هذه الصفة فى ملك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففى هذه المرحلة من نُصْرة الدين لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسَّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقَوْا برسول الله ﷺ وبايعوه على النُّصْرة والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهى هجرةٌ - هذه المرة - إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره فى رُبُوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

ومادة هذا الفعل : هجر .. وهناك فَرْق بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ فى مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى أنه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يُكرهه على الهجرة .. أى المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهى تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية بنحوه (١/٣٢١) .

ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التى حدثتْ من القوم هى التى اضطرتْه للهجرة .. وهذا ما حدث فى هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلاَّ بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظُّلْم ، فكأنهم بذلك شاركوا فى الفعل ، فلو لم يتعرَّضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبى[1] :

إذَا ترحلْتَ عن قومٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقهم فَالراحِلُون هُمُوا

يعنى : إذا كنت فى جماعة وأردْتَ الرحيل عنهم ، وفى إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما يُيسِّر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركوك ترحل مع مقدرتهم ، فالراحلون فى الحقيقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة ؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذى يتمنى كل مسلم الإقامة فى جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا

---

(١) هو : أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) ، قال الشعر صبياً ، ادعى النبوة فى بادية السماوة وسجنه أمير حمص حتى تاب ورجع عن دعواه . وفد على الحكام والولاة فمدحهم شعراً وحظى عندهم ، زار حلب ومصر وبغداد وفارس وقتل بالنعمانية على يد فاتك بن أبى جهل عام (٣٥٤ هـ) عن ٥١ عاماً . (الأعلام ١/١١٥) .

عليه ، وطبيعى إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ، ثم يعودون للإقامة ثانية فى مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. ﴿٤١﴾﴾ [النحل]

ونلاحظ فى الحديث الشريف الذى يوضح معنى هذه الآية :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها[1] فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] .

فما الفرق هنا بين : هاجر فى الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذى هاجر إليه أفضل من الذى تركه ، وكأن الذى هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر فى الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً فى الله .. إقامتهم نفسها فى مكة وتحمُّلهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت أيضاً فى الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدلَّ ذلك على أن إقامتهم الأولى لم تكن لله .. إذن : معنى الآية :

---

(١) أخرج سعيد بن منصور من قول ابن مسعود أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . [أورده ابن حجر فى فتح البارى ١/١٠] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. ﴿٤١﴾﴾ [النحل]

أى : أن إقامتهم كانت لله ؛ وهجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]

أى : إذا لم تكونوا فى مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفى الآية الأخرى :

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون]

ذلك لأنهم كانوا فى خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر .. أى : أنتم فى خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملمح آخر فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. ﴿٤١﴾﴾ [النحل]

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع .. لكن هل هى خاصة بمَنْ نزلت فيهم الآية ؟ أم هى عامة فى كُلِّ مَنْ ظُلِم فى أىِّ مكان ـ فى الله ـ ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى عامة فى كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت[1] فى نفر من الصحابة منهم : صُهيب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم ممَّن اضطروا إلى الهجرة فراراً بدينهم .

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٠) ، والقرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٣١) .

ونعلم قصة صهيب رضى الله عنه ـ وكان رجلاً حداداً ـ لما أراد أنْ يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السِّنّ ، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم ، وإنْ كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندى مال .. خذوه واتركونى أهاجر ، فرضَوْا بذلك ، وأخذوا مال صُهَيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له ﷺ : « ربح البيع يا صُهَيْب »[1] أى : بيعة رابحة .

ويقول له عمر ـ رضى الله عنه : « نِعْم العبدُ صُهيب ، لو لم يخَفِ الله لم يَعْصِه » .

وكأن عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حُبّاً فى الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أنْ يُعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .. (٤١) ﴾ [النحل]

نُبوِّىء ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦) ﴾ [الحج]

أى : بيَّنا له مكانه ، ونقول : باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعى فى مناكب الأرض فى زراعة أو تجارة ، ثم يأوى ويبوء إلى بيته ، إذن : باء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدَّه الله له .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٥١ ، ١٥٢) من حديث صهيب رضى الله عنه ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٣٩٨) .

فإنْ كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحلهم ونُنزلهم منزلةً أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مُضطهدين في مكة ، فأصبحوا آمنين في المدينة ، وإنْ كانوا تركوا بلدهم فسوف نُمهّد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنُون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزّة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الأوثان والأصنام .. هذه هي الحسنة في الدنيا .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١) ﴾ [النحل]

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أنْ تفارقها ، وإما أن تُفارقك ، وقد أنجز الله وَعْده للمؤمنين في الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانتْ لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا في الشرق في فارس ، وفي الغرب في الرومان ، وفي نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإنْ كانت هذه هي حسنة الدنيا المعجّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١) ﴾ [النحل]

أي : أن ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه في الدنيا .

ولذلك كان سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا أعطى أحد الصحابة

نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « بارك الله لك فيه .. هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أكبر من هذا »[1]

فهذه حسنة الدنيا .

﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

وساعة أنْ تسمعَ كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التي بوأهم الله إياها هي (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم في الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغةُ أفعل التفضيل أقلَّ في المدح من غير أفعل التفضيل .. فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) في حين أن الأكبر صفةٌ من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفي شعار ندائنا لله نقول : الله أكبر ولا نقول : الله كبير .. ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً .. إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول في الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا في حَقِّ المؤمن كبيرة من حيث هي وسيلة للآخرة .

فإياك أنْ تظنَّ أن حركةَ الدنيا التي تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هي كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تأكل وتشرب وتتقوّى ، وبها تجمع المال لتسدَّ به حاجتك ، وتُؤدِّي الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدي الله أكبر .

---

(١) أورد هذا الأثر القرطبي في تفسيره (٣٨٢٢/٥) ، وابن كثير في تفسيره (٥٧٠/٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٣٢/٥) وعزاه لابن جرير الطبري ولابن المنذر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⑩ ﴾ [الجمعة]

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة ؛ لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة ، والمزرعة التى تُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .. إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسَى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفهُ من أن تكونَ غاية فى حدِّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ④① ﴾ [النحل]

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أنْ يُراد به الكافرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا فى عمل الخير .

وأخيراً قد يُراد به المؤمن الذى لم يهاجر .. ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .

وهذه الأوْجه التى يحتملها التعبير القرآنى دليل على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تربيب الفوائد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحاً لحال المهاجرين ، فقد ظُلِموا واضْطهدوا وأُوذُوا فى سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن دينهم ، بل صبروا وتحمَّلوا ، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم ، وتركوا بلدهم وأرضهم فى سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم اتكالاً على أن الله تعالى لن يُضيّعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآنى هكذا ﴿ صَبَرُوا ﴾ بصيغة الماضى ، فقد حدث منهم الصبر فعلاً ، كأن الإيذاء الذى صبروا عليه فترة مضتْ وانتهت ، والباقى لهم عِزَّة ومنَعة وقوة لا يستطيع أحد أنْ يضطهدهم بعد ذلك ، وهذه من البشارات فى الأداء القرآنى .

أما فى التوكل ، فقال تعالى فى حقهم :

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل]

بصيغة المضارع ؛ لأن التوكُّل على الله حدث منهم فى الماضى ، ومستمرون فيه فى الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن .

وبعد ذلك تكلَّم القرآن الكريم عن قضية وقف منها الكافرون أيضاً موقف العناد والمكابرة والتكذيب ، وهى مسألة إرسال الرسل ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً . وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغي أن يكون ملكاً فقالوا :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً .. (٢٤) ﴾ [المؤمنون]

وكأنهم استقلُّوا الرسالة عن طريق بشر ؛ وهذا أيضاً من غباء الكفر وحماقة الكافرين ؛ لأن الرسول حين يُبلِّغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك .. فيأمر بالصلاة ويُصلِّي ، وبالزكاة ويُزكِّي ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول وفقط ، لا بل بالسلوك العمليّ النموذجيّ .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول عن رسول الله ﷺ : « كان خُلقه القرآن »[1]

وكان قرآناً يمشي على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذي جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى في حقِّه ﷺ :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

فكيف نتصور أن يكون الرسول ملكاً ؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشر ؟ قد يؤدى الملك مهمة البلاغ ، ولكن كيف يُؤدِّى مهمة القدوة والتطبيق العملى النموذجى ؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خلْق جُبِلوا على طاعة الله :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

ومن أين تأتيه منافذ الشهوة وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ؟

فلو جاء ملَك برسالة السماء ، وأراد أن ينهى قومه عن إحدى المعاصى ، ماذا نتوقع ؟ نتوقع أن يقول قائلهم : لا .. لا أستطيع ذلك ، فأنت ملك ذو طبيعة علوية تستطيع ترْك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعة الأسْوة تقتضى أن يكون الرسول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين .

ومن هنا كان من امتنان الله على العرب ، ومن فضله عليهم أنْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة]

فهو أولاً من أنفسكم ، وهذه تعطيه المباشرة ، ثم هو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية .. بل من بيئتكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قريش ؛ ذلك لتكونوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناته ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق

والأمانة ، وتأتمنونه على كل غالٍ ونفيس لديكم لعلمكم بأمانته ، فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكذب ؟!

لذلك ردَّ عليهم الحق تبارك وتعالى في آية أخرى فقال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فالذي صدَّكم عن الإيمان به كَوْنه بشراً !!

ثم نأخذ على هؤلاء مأخذاً آخر ؛ لأنهم تنازلوا عن دعواهم هذه بأنْ يأتيَ الرسول من الملائكة وقالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

فهذا تردُّد عجيب من الكفار ، وعدم ثبات على رأى .. مجرد لَجَاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً .

ويرد عليهم القرآن :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فلو كان في الأرض ملائكة لنزَّلنا لهم ملكاً حتى تتحقَّق الأُسْوة .

إذن : لا بُدَّ في القدوة من اتحاد الجنس .. ولنضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك رأيتَ أسداً يثور ويجول في الغابة مثلاً يفترس كُلَّ ما أمامه ،

---

(١) يقصدون مكة والطائف . وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي . قال ابن كثير في تفسيره (١٢٧/٤) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » .

ولا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض له .. هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً ؟ لا .. إنما لو رأيتَ فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء .. ألاَ تحب أن تكون فارساً ؟ بلى أحب .

فهذه هي القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا تصلح القدوة .

وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

أي : أنك يا محمد لَسْتَ بدْعاً[1] في الرسل ، فَمَنْ سبقوك كانوا رجالاً طيلة القرون الماضية ، وفي موكب الرسالات جميعاً .

وجاءتْ هنا كلمة ﴿ رجالاً ﴾ لتفيد البشرية أولاً كجنس ، ثم لتفيد النوع المذكَّر ثانياً ؛ ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه .. يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع .. أما المرأة فمبنية على التستُّر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأُسْوة للناس ، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا في طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب دور النبوة ، ولا تتمشَّى مع مهمة النبي ، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد لأنها حائض أو نُفَساء .

كذلك جاءت كلمة ﴿ رِجَالاً ﴾ مُقيَّدة بقوله :

﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

---

(١) بدع : بديع أو عجيب . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] أي : ما كنت غريباً ولا عجيباً ، ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

فالرسول رجل ، ولكن إياك أنْ تقول : هو رجل مثلى وبشر مثلى .. لا هناك مَيْزة أخرى أنه يُوحَى إليه ، وهذه منزلة عالية يجب أنْ نحفظها للأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

أى : إذا غابتْ عنكم هذه القضية ، قضية إرسال الرسل من البشر - ولا أظنها تغيب - لأنها عامة فى الرسالات كلها . وما كانت لتخفَى عليكم خصوصاً وعندكم أهل العلم بالأديان السابقة ، مثل ورقة بن نوفل وغيره ، وعندكم أهل السِّيَر والتاريخ ، وعندكم اليهود والنصارى .. فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشرية الرسل .

فهذه قضية واضحة لا تُنكر ، ولا يمكن المخالفة فيها .. وماذا سيقول اليهود والنصارى ؟ .. موسى وعيسى .. إذنْ بشر .

وقوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

يوحى بأنهم يعلمون ، وليس لديهم شكٌّ فى هذه القضية .. مثل لو قلتَ لمخاطبك : اسأل عن كذا إنْ كنتَ لا تعرف .. هذا يعنى أنه يعرف ، أما إذا كان فى القضية شكٌّ فنقول : اسأل عن كذا دون أداة الشرط .. إذن : هم يعرفون ، ولكنه الجدال والعناد والاستكبار عن قبول الحق .

﴿ بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ[1] وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق .. فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أنْ يتعلّق بالفعل (نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى : فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ، فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور .

والبينات : هي الأمر البيِّن الواضح الذى لا يشكُّ فيه أحد .. وهو إما أن يكون أمارة ثُبوت صِدْق الرسالة كالمعجزة التى تتحدى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها .. أو : هي الآيات الكونية التى تلفتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم .

---

(١) الزُّبُر : الكتب . والزَّبْر : الكتابة . وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يُكتب عادة إلا الشيء النفيس مخافة أنْ يضيعَ ، وليس هنا أنفَسُ مما يأتينا من منهج الله ليُنظِّم لَنا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب ـ قديماً ـ كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم علمٌ بالسهم ومَنْ أول صانع لها ، وعن القوس والرَّحْل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألاَ يسألون عن آيات الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خَلْقها تدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

كلمة الذكر وردتْ كثيراً في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة ، وأصْل الذكر أنْ يظلَّ الشيءُ على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضدّه النسيان .. إذن : عندنا ذِكْر ونسيان .. فكلمة « ذكر » هنا معناها وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم ـ عليه السلام ـ أخذ العهد على كُلِّ ذرَّة فيه ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وأخْذ العهد على آدم هو عَهْد على جميع ذريته ، ذلك لأن في كُلّ واحد من بني آدم ذَرَّة من أبيه آدم .. وجـزءاً حياً منه نتيـجة التوالُد والتناسُل منْ لَدُن آدم حتى قيام الساعة ، ومـا دُمْنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

وكان كلمة (ذكر) جاءت لتُذكِّرنا بالعهد المطمور في تكويننا ، والذي ما كان لنا أنْ ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لتذكُّرنا بعهد الله لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ومن هنا سَمَّينا الكتب المنزلة ذكراً ، لكن الذكْـر يأتي تدريجياً وعلى مراحل .. كلُّ رسول يأتي ليُذكِّر قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة .. أما الرسـول الخاتم ﷺ الذي جاء للناس كافّة إلى قيـام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقي الذي لا ذِكْر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تأتي كلمـة (الذكْر) بمعنى الشَّرَف والرِّفْعة كمـا في قوله تعالى للعرب :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقـد أصبح للعرب مـكانة بالقـرآن ، وعاشت لـغتـهم بالقـرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتي الذكْر من الله للعبد ، وقد يـأتي من العبد لله تعالى كما في قوله سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

والمعنى : فاذكرونى بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابى .

وإذا أطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأنه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرسُل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أنْ تقومَ الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أى كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (علَم بالغلبة) .

والذكْر هو القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، وهو معجزته الخالدة فى الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسُل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص [1] وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد ﷺ فمعجزته هى نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السِّر فى أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحفْظ كتابه ، كما قال تعالى :

---

(١) الأكمه : المولود أعمى . وقد يكون حادثاً بعد بصر . والأبرص : من أصابه مرض البرص ، وهو مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه . [القاموس القويم مادتا : كمه ، برص] .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾

[المائدة]

ومعنى استُحفظوا : أى طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا أمْرٌ تكليف قد يُطَاع وقد يُعصى ، والذى حدث أن اليهود عَصَوْا وبدّلوا وحرَّفوا في التوراة .. أما القرآن فقد تعهَّد الله تعالى بحفْظه ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتَم الذى سيصاحب البشرية إلى قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو الحديث الشريف ، فللرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلاميّ وحديثه الشريف الذى جاء من مشكاة القرآن مبيّنا له ومُوضّحا له .. كما قال ﷺ :

« ألاَ وإنّى قد أُوتيتُ القرآن ومثله معه ، يُوشك رجل شبعان يتكيء على أريكته يُحدِّث بالحديث عنّي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حلّلْناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، ألاَ وإنّه ليس كذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) ، وأبو داود في سننه (٤٥٩١) ، وابن حبان (٩٧ ـ موارد الظمآن) من حديث المقدام بن معديكرب .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلاَّ لَطالتْ المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُد عن مُرَاده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أنْ يُبيِّنه للناس ، ويشرحه ويُوضِّح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءتْ به السُّنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُثَاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لابُدَّ أن نُفرِّق هنا بين سُنِّية الدليل وسُنِّية الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنِّية الدليل تعني وجود فَرْض ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهي فَرْض .

أما سُنِّيَة الحكم : فهي أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُثَاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبيِّن لنا الرسول بسلوكه وأُسْوته حُكْماً ننظر : هل هي سُنِّيَة الدليل فيكون فَرْضاً ، أم سُنِّية الحكم فيكون سُنّة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنْ واظب عليه والتزمه فهو فَرْض ، وإنْ لم يواظب عليه فهو سُنّة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُنَاولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهي ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيـان .. ولابُدَّ أن نفرِّق بين العطائين : العطاء القرآنى ، والعطاء النبوى .

ويجب أن نعلم هنا أن من المَيِّزات التى مُيِّز بها النبى ﷺ عن سائر إخوانه من الرُّسُل ، أنه الرسول الوحيد الذى أمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فقط وانتهتْ المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى فى حقِّه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ۝٧ ﴾ [الحشر]

إذن : أخذ مَيْزة التشريع ، فأصبحت سُنَّته هى التشريع الثانى بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤ ﴾ [النحل]

يتفكرون : فى أى شىء ؟ يتفكرون فى حال الرسول ﷺ قبل البعثة ، حيث لم يُؤْثَر عنه أنه كان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤْثَر عنه أنه كان كاتباً مُتعلِّماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكُّر والتدبُّر فى هذا الأمر .

فليس ما جاء به محمد عبقرية تفجَّرت هكذا مرَّة واحدة فى الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيعى للعبقريات يأتى فى أواخر العقْد الثانى وأوائل العقْد الثالث من العمر .

ولا يُعقل أنْ تُؤجَّل العبقرية عند رسول الله إلى هذا السن وهو يرى القوم يُصْرعون حوله .. فيموت أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم

تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جَدُّه ، فمَنْ يضمن له الحياة إلى سنّ الأربعين ، حيث تتفجّر عنده هذه العبقرية ؟!

إذن : تفكّروا ، فليستْ هذه عبقرية من محمد ، بل هي أمْر من السماء ؛ ولذلك أمره ربُّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

فكان عليكم أنْ تفكّروا في هذه المسألة .. ولو فكرتُمْ فيها كان يجب عليكم أنْ تتهافتوا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرَّبتم عليه لا كذباً ولا خيانة ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان ليْصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التي تستقبل المحسَّات وتُميِّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التي ستكون هي المبادىء التي يعيش الإنسان عليها ، والتي ستكون عبارة عن معلومات مُخْتزنة . أما الفكر فهو أن تفكر في هذه الأشياء لكي تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حُرية التفكير وحرية العقل في أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قَسْرية يفسدَ العالم بدونها ، فالذي يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا .. والباقي الذي لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفشل فيه لا يضر .

فما أراده الله حكْماً قسْرياً فرضه بنصٍّ صريح لا خلافَ فيه ، وما أراده على وجوه متعددة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه

أوجهاً متعددة ، ولا يؤدى الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكرى يتحكم فى المحسَّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتّاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أنْ يعبد الله به ، ولكن آفة الناس فى الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رَمْى مخالفيهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فلَهُ أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر[1] .. ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعايش الجميع وتُحترم الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والنظر ؛ ذلك لأنهم خَلْقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أنْ يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخَلْق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكأنه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَج الخصومة ، وإنْ كنتم لا تؤمنون بالبعث فى الآخرة ، وبما أُعدّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عُجِّل لهم من عذاب فى الدنيا .

(١) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٦) ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٥٢) .

انظروا للذين سبقوكم من الأمم المكذِّبة وما آلَ إليه مصيرهم ، أم أنتم آمنون من العذاب ، بعيدون عنه ؟!

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل]

عبارة عن همزة الاستفهام التى تستفهم عن مضمون الجملة بعدها .. أما الفاء بعدها فهى حَرْف عَطْف يعطف جملة على جملة .. إذنْ : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفى الأنبياء السابقين من العذاب ، فأمِنُوا مكر الله ؟

أى : أن أَمْنهم لمكر الله ناشىءٌ عن جهلهم بما وقع للمكَذِّبين من الأمم السابقة .

ثم يقول تعالى :

﴿ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل]

المكر : هو التبييت الخفىّ للنيْل ممَّنْ لا تستطيع مجابهته بالحق ومجاهرته به . فأنت لا تُبيِّت لأحد إلا إذا كانت قدرتُك عاجزة عن مُصَارحته مباشرة ، فكونُك تُبيِّت له وتمكر به دليل على عَجْزك ؛ ولذلك جعلوا المكر أول مراتب الجُبْن ؛ لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه

عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكْر عظيماً يكون الضعف كذلك .

وهذا ما نلحظه من قوله تعالى فى حَقّ النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف]

وقال فى حَقّ الشيطان :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء]

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْدهُن عظيماً إذن : ضَعْفُهن أيضاً عظيم ، وكذلك فى كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أنْ يملكك الضعيف ؛ ذلك لأنه إذا تمكَّن منك وواتَتْه الفرصة فلن يدعكَ تُفلت منه ؛ لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن أن تُتاحَ له الفرصة مرة أخرى ؛ لذلك لا يضيعها على عكس القوىّ ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أتيحَتْ له الفرصة وربما فوَّتها لقُوته وقُدرته على خَصْمه ، وتمكّنه منه فى أىّ وقت يريد ، وفى نفس المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعيفة فإذَا أصَابتْ فُرْصةً قتلَتْ كذلكَ قُدرةُ الضُّعَفاء

إذن : قدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القوىّ فليستْ كذلك .

ثم لنا وقْفة أخرى مع المكْر ، من حيث إن المكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بنى الإنسان ، فإذا ما تعرضْتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حيْطة ، وأحكم منك مكْراً ، فربما لا يُجدى مكرُك به ، بل ربما غلبك هو بمكْره واحتياطه ، فكيف الحال إذا كان الماكر بك هو ربّ العالمين تبارك وتعالى ؟

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿ وَلَا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. ۝٤٣ ﴾ [فاطر]

فمكْر العباد مكشوف عند الله ، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحتاط منه أحد ؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين .

والمكْر السّيء هو المكْر البطّال الذى لا يكون إلا فى الشر ، كما حدث من مكْر المكذّبين للرسل على مَرّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيْداً يُبطل حقّاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكْر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرّض الرسول ﷺ لمراحل متعددة من الكيْد والمكْر والخديعة ، وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهي أن يُوئس الكفار من الانتصار عليه ﷺ ، فقد بيّتوا له ودبّروا لقتله ، وحاكوا فى سبيل ذلك الخطط ، وقد باءت خُطتهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفى مكيدة أخرى حاولوا أن يَسْحروه[2] ﷺ ، ولكن كشف الله أمرهم وخيَّب سَعْيهم .. إذن : فأىّ وسيلة من وسائل نَحْض هذه الدعوة لم تنجحوا فيها ، ونصره الله عليكم ، كما قال تعالى :

---

(١) حاق به الشيء : نزل به وأصابه وأحاط به . [القاموس القويم ١/١٨١] .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سُحِر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، سحره لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر فى بئر ذروان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) وأحمد فى مسنده (٦/٥٠ ، ٩٦) .

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١)﴾ [المجادلة]

وقوله تعالى :

﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ .. (٤٥)﴾ [النحل]

الخَسْف : هو تغييب الأرض ما على ظهرها .. فانخسفَ الشيء أيْ : غاب في باطن الأرض ، ومنه خُسوف القمر أي : غياب ضَوْئه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص]

وهذا نوع من العذاب الذي جاء على صُور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم :

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

هذه ألوان من العذاب الذي حاقَ بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقيهم عبرة وعظة ، وأنْ يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقيهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥)﴾ [النحل]

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكْر الله وللعذاب الواقع بهم ، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطُر لهم على بال ، وطالما لم تخطُرْ لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أَخْذهم يسيراً ، كما قال تعالى :

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. ۝ ﴾ [الحشر]

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ[1] ۝ ﴾

التقلُّب : الانتقال من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخر دليلُ القوة والمقدرة ، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه وعَتَاده وجميع ما يملك ؛ لينشيء له حركةً حياة جديدة في مكانه الجديد .

إذن : التقلُّب في الحياة مظهر من مظاهر القوة ، بحيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله في رحلة تقلُّبه .. ولا شكَّ أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوى .

ولذلك نرى في قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبأ :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا[2] فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. ۝ ﴾ [سبأ]

فهؤلاء قوم جمع الله لهم ألواناً شتى من النعيم ، وأمَّن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم . ولكنهم وللعجب طلبوا من الله أن يُباعد بين أسفارهم ، كأنهم أرادوا أنْ يتميزوا عن

---

(١) أي : ليسوا ببعيدين عن الله ولن يفلتوا من عقابه سبحانه .

(٢) قدر كل شيء ومقداره : مقياسه . وقدر الشيء بالشيء قدَّره : قاسه . [لسان العرب - مادة : قدر] . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥٣٣) : « أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه » .

الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿ بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. ⑲ ﴾ [سبأ]

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خَوْض هذه المسافات .

إذن : الذى يتقلّب فى الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظَعْن[1] وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به فى مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : المال فى الغربة وطن .. ومَنْ كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ⑲⑥ ﴾ [آل عمران]

فلا يخيفنك انتقالهم بين رحلتى الشتاء والصَّيْف ، فالله تعالى قادر أن يأخذهم فى تقلُّبهم .

وقد يُراد تقلُّبهم فى الأفكار والمكْر السيء بالرسول ﷺ وصحابته كما فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. ④⑧ ﴾ [التوبة]

فقد قعدوا يُخطّطون ويمكُرون ويُدبِّرون للقضاء على الدعوة فى مَهْدها .

ويقول تعالى :

﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ④⑥ ﴾ [النحل]

المعجز : هو الذى لا يمكّنك من أنْ تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجِزوا الله

---

(١) الظعن : السير والترحال .

تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه ؛ لأنهم مهما بيَّتوا فتبييتهم وكَيْدهم عند الله .. أما كيْد الله إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

فمَنْ لا يستطيع أن يغلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر عليه المنهج الذي جِئْتَ به .

وقد يكون العجز أمام القوىّ دليلَ قوة ، كما عجز العرب أمام تحدِّى القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليلَ قوتهم في المجال الذي تحدَّاهم القرآن فيه ؛ لأن الله تعالى حين يتحدَّى وحين يُنازل لا ينازل الضعيف ، لا بل ينازل القوى في مجال هذا التحدِّى .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

التخوُّف : هو الفزع من شيء لم يحدث بعد ، فيذهب فيه الخيال مذاهبَ شتَّى ، ويتوقع الإنسان ألواناً متعددة من الشر ، في حين أن الواقع يحدث على وجه واحد .

هَبْ أنك في انتظار حبيب تأخَّر عن موعد وصوله ، فيذهب بك الخيال والاحتمال إلى أمور كثيرة .. يا تُرى حدث كذا أو حدث كذا ، وكل خيال من هذه الخيالات له أثر ولذعة في النفس ، وبذلك تكثر المخاوف ، أما إن انتظرتَ لتعرفَ الواقع فإنْ كان هناك فزع كان مرة واحدة .

ولذلك يقولون فى الأمثال : (نزول البلا ولا انتظاره) ذلك لأنه إنْ نزل سينزل بلون واحد ، أما انتظاره فيُشيع فى النفس ألواناً متعددة من الفزع والخوف .. إذن : التخوُّف أشدُّ وأعظم من وقوع الحدث نفسه .

وكان هذا الفزع يعترى الكفار إذا ما علموا أن رسول الله ﷺ بعث سرية من السَّرايا ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشيع الله الفزع فى نفوسهم جميعاً ، فى حين أنها خرجتْ لناحية معينة[1] .

وبعض المفسرين قال : التخوُّف يعنى التنقُّص بأنْ ينقص الله من رُقْعة الكفر بدخول القبائل فى الإسلام قبيلةً بعد أخرى ، فكلٌّ واحدة منها تنقص من رقعة الكفر .. كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى فى تذييل هذه الآية :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾ [النحل]

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد ؟ فالعقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أنْ نعلمَ أن هذا هو عطاء الربوبية الذى يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفَّل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ،

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٣٥ ، ٤٣٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢١) كتاب المساجد من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى » وفيه « ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر » .

لم تُخلَق هذه الأشياء لواحد دون الآخر ، وقد قال تعالى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى]

وكأن في الآية لَوْناً من ألوان رحمته سبحانه بخَلْقه وحِرْصه سبحانه على نجاتهم ؛ لأنه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يحدث لهم إذا أصرُّوا على كفرهم ، ويُبصِّرهم بعاقبة كفرهم ، والتبصرة عِظَة ، والعظة رأفة بهم ورحمة حتى لا ينالهم هذا التهديد وهذا الوعيد .

ومثال هذا التذييل كثير في سورة الرحمن ، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة ناسبت قوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ [الرحمن]

وكذلك في قوله تعالى :

﴿مَرَجَ[1] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[2] لاَّ يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة من نعم الله ناسبت تذييل الآية :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾ [الرحمن]

---

(١) مرج : خلط البحر الملح والبحر العذب . ومعنى لا يبغيان أي : لا يبغي الملح على العذب فيختلطان . [لسان العرب - مادة : مرج] .

(٢) البرزخ : هو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه . [تفسير ابن كثير ٤/٢٧٢] .

أما في قوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرحمن]

فما النعمة فى ﴿ كل مَنْ عليها فانٍ ﴾ ؟ هل الموت نعمة ؟!

نعم ، يكون الموت نعمة من نِعَم الله على عباده ؛ لأنه يقول للمحسن : سيأتى الموت لتلقَى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر .. الموت قادم ، كأنه سبحانه يُوقظ الكفار ويَعظهم لينتهوا عما هم فيه .. أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده ؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فأىّ نعمة فى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرحمن]

أىُّ نعمة فى هذا العذاب ؟

نعم المتدبِّر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة ؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمروا على ما هُم فيه من الكفر .. ففى طيَّاتها تحذير وحِرْص على نجاتهم كما تتوعد ولدك : إذا أهملتَ دروسك

(١) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه . [لسان العرب ـ مادة : شوظ] .

ستفشل وأفعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذييل الآية بقوله : .

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل]

تذييل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التى يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ [(١)] ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

المعنى : أعَمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

﴿ مِن شَىْءٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

كلمة شىء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يُقال له شىء ، أى : أتفه شىء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿ مِن شَىْءٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

أى : كل شىء .

(١) تفيأ فيه : تظلل . وتفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار وابتعاث الأشياء ظلالها . [لسان العرب - مادة : فيأ].

فانظر إلى أىّ شىء فى الوجود مهما كان هذا الشىء تافهاً ستجد له ظلاً :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

يتفيأ : من فاءَ أى : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل مُتغيِّر ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كقاع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظلٌّ ثابت لا تأتيه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذى يُسمَّى الفَيْء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمَّى الظل فَيْئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكوّن الظل ؟ يتكوّن الظل إذا ما استعرض الشمسَ جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طُولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أنْ يبلغَ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوتْ الشمس فى السماء يصبح ظلّ الشىء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طولَ الظلّ الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) ﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى الظلّ وكيف يمتدُّ ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل في الحالتين يسير سَيْراً انسيابياً .

ما معنى : (انسيابى) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سكونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها فى حركة عقارب الساعة ، وهى أوضح فى عقرب الثوانى منها فى عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها فى عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثوانى لوجدتَه يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة فى حال سكونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رَصْدها فى عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها ، هذه هى الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعنى أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. أى : حركة مستمرة ومُوزَّعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازمتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو فى الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفْرة واحدة ؟

لو كان نموه هكذا لَلاَحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزِّع المِلِّى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جُزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكُنْ الدائمة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفتَ خَلْقه إلى ظاهرة كونية فى الوجود مُحسّة ، يدركها كلٌّ منّا فى ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظلّ التى يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسبيحية فى الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فكل ما يُطلَق عليه شيء فهو يُسبِّح مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآني ، حيث أتى باليمين مُفْرداً ، في حين أتى بالشمائل على صورة الجمع ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أتى بأقلّ ما يُتصوَّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :

﴿ ظِلَالُهُ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

بصيغة الجمع . أي : مجموع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفيأ ظِلّ شيء واحد ، لا .. بل ظِلّ أشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا أفادت العموم :

﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أي : كل شيء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائل .

ثم يقول تعالى :

﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظلّ وبين السجود ؟

معنى : سُجَّداً أي : خضوعاً لله ، وكان حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليلٌ على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقائل

الأعلى لـ « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسخَّرة له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كونياً ، والشيء تُعده إعداداً قدرياً .. فصانع القنبلة الزمنية يُعدُّها لأنْ تنفجرَ في الزمن الذى يريده ، وليس الأمر كذلك في إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفي انتظار لهذا الأمر الإلهى باستمرار (كن فيكون) . وهكذا .. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهى ضوؤها ، ويُرتِّب على هذا الحكمِ أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القدريِّ منضبطةٌ به ومنتظرة لـ « كُنْ » التى يُصغى لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن]

هكذا بيَّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شيء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شيء » جاءت مُفْردة دالّة على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كلَّفنا الله به من ركن في الصلاة ، وهو مُنْتَهى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجدَ لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفي هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبِّر الحق تبارك وتعالى عن فَنَاء الوجود يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

وكذلك في قوله :

﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ [الليل]

فيُطلَق الوجه ويُراد به الذات ، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دلَّ ذلك على خضوع الذات كلها ؛ لأن أشرف ما في الإنسان وجهه ، فإذا ما ألصقه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دَلَّتْ الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالقه سبحانه ، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً ، أو بناية أو جبل ، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظلّها أيضاً ثابتاً لا يتحرك ، أما ظلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظل متحرك ، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً في الخضوع التام بالظلال ؛ لأن ظل كل شيء لا يفارق الأرض أبداً ، وهذا مثال للخضوع الكامل .

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات في الظلال في قوله :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

يعني الذوات تسجد ، وكذلك الظلال تسجد ؛ ولذلك يتعجب بعض العارفين من الكافر .. يقول : أيها الكافر ظلُّك ساجد وأنت جاحد .. جاء هذا الترقِّي في قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) ﴾

فأجناس الكون التى يعرفها الإنسان أربعة : إما جماد ، فإذا وجدتَ خاصية النمو كان النبات ، وإذا وجدتَ خاصية الحركة والحسِّ كان الحيوان ، فإذا وجدتَ خاصية الفكْر كان الإنسان ، وإذا وجدتَ خاصية العلم الذاتى النورانى كان الملَك .. هذه هى الأجناس التى نعرفها .

الحق تبارك وتعالى ينقلُنا هنا نَقْلة من الظلال الساجدة ، للجمادات الثابتة ، إلى الشىء الذى يتحرك ، وهو وإنْ كان مُتحركاً إلا أن ظلّه أيضاً على الأرض ، فإذا كان الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النحل]

فقد فصَّل هذا الإجمال بقوله :

﴿ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : من أقلِّ الأشياء المتحركة وهى الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهى الملائكة ..

وقد يقول قائل : وهل ما فى السموات وما فى الأرض يسجد لله ؟

نقول له : نعم .. لأنك فسرتَ السجود فيك أنت بوضْع جبهتك على الأرض ، ليدلّ على أن الذات بعلُوّها ودنُوّها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلتَ الجبهة مع القدم .

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أن نعرف استطراق العبودية فى الوجود كله ؛ لأن الكافر وإنْ كانَ مُتمرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختيارا ، فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أن يطيع أو يعصى ، ولكن الله أعطاه الاختيار .

نقول له : إنك قد ألفتَ التمرّد على الله ، فطلب منك أن تؤمن لكنك كفرتَ ، وطلبَ منك يا مؤمن أنْ تطيعَ فعصيتَ ، إذن : فلكَ إلْفٌ بالتمرّد على الحق .. ولكن لا تعتقد أنك خرجتَ من السجود والخضوع لله ؛ لأن الله يُجرى عليك أشياء تكرهها ، ولكنها تقع عليك رغم أنفك وأنت خاضع .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة :

﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

أى : صاغرون مُستذلُّون مُنقَادُونَ مع أنهم ألِفُوا التمرُّد على الحق سبحانه .

وإلا فهذا الذى ألف الخروج عن مُرادات الله فيما له فيه اختيار ، هل يستطيع أنْ يتأبَّى على الله إذا أراد أنْ يُمرضه ، أو يُفقره ، أو يميته ؟

لا ، لا يستطيع ، بل هو داخر صاغر فى كل ما يُجريه عليه من مقادير ، وإنْ كان يأباها ، وإنْ كان قد ألِف الخروج عن مُرادات الله .

إذن : ليس فى كون الله شىء يستطيع الخروج عن مرادات الله ؛ لأنه ما خرج عن مرادات الله الشرعية فى التكليف إلا بما أعطاه الله من اختيار ، وإلا لو لم يُعْطه الاختيار لما استطاع التمرّد ، كما فى المرادات الكونية التى لا اختيارَ فيها .

لذلك نقول للكافر الذى تمرّد على الحق سبحانه : تمرّد إذا أصابك مرض ، وقُلْ : لن أمرض ، تمرّد على الفقر وقُلْ : لن أفتقر ..

وما تُمْتَ لا تقدر وسوف تخضع راغماً فلتخضعْ راضياً وتكسب الأمر ، وتنتهي مشكلة حياتك ، وتستقبل حياة أخرى أنظف من هذه الحياة .

وقوله تعالى :

﴿ مِن دَابَّةٍ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

هو كل ما يدبّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معناه الحركة والمشي .. وقوله :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

أي : أن الملائكة لا يُقال لها دابة ؛ لأن الله جعل سَعْيها في الأمور بأجنحة فقال تعالى :

﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ .. (١) ﴾ [فاطر]

وقال في آية أخرى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

فخلق الله الطائر يطير بجناحيه مقابلاً للدابة التي تدب على الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و ﴿ مَا ﴾ في الآية تُطلق على غير العالمين وغير العاقلين ؛ ذلك لأن أغلبَ الأشياء الموجودة في الكون ليس لها علْم أو معرفة ؛ ولذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) ﴾ [النحل]

أى : أن الملائكة الذين هم أعلى شيء في خَلْق الله لا يستكبرون؛ لأن علوّهم في الخَلْق من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً[1] على خالقهم سبحانه : لأن الذى أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى .

وما دام الله هو الذى أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به ؛ لأن الذى يُدلُّ إنما يُدلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشيء الموهوب من الغير فلا يجوز أن تُدلّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ[2] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..(١٧٢) ﴾ [النساء]

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرّمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ﴾

ما هو الخوف ؟ الخوف هو الفزع والوجَل ، والخوف والفزع

---

(١) دَلَّ : افتخر . والدلة : المنة . وفلان يُدل عليك بصحبته إدلالاً : أى يجترىء عليك . [لسان العرب ـ مادة : دلل] .

(٢) لن يستنكف : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٧] .

والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رَفْعه ، ولو أمكنك رَفْعه لما كان هناك داعٍ للخوف منه ؛ لذلك فالأمور التي تدخل في مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إنْ حصل كذا أفعل كذا .. الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم]

فما داعي الخوف إذن ؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخُوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربي يقول في تبرير هذا الخوف :

أَهَابُكَ إجْلاَلاً ومَا بِكَ قُدْرة علىَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

إذن : مرّة يأتي الخوف لتوقُّع أذى لتقصير منك ، ومرّة يأتي لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .

وقوله تعالى :

﴿ مِّن فَوْقِهِمْ .. ۝٥٠ ﴾ [النحل]

ما المراد بالفوْقية هنا ؟ نحن نعرف أن الجهات ستّ : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف .. بقيتْ جهة الفوْقية لتكون هي المسيطرة ؛ ولذلك حتى في بناء الحصون يُشيّدونها على الأماكن العالية لتتحكم بعلُوّها في متابعة جميع الجهات .

إذن : فالفوقية هي محلّ العُلو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .

فالذى يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله فى السماء ، بدليل أن الجارية التى سُئلت : أين الله ؟ أشارتْ إلى السماء ، وقالت : فى السماء[1] .

فأشارت إلى جهة العُلُو ؛ لأنه لا يصح أن نقول : إن الله تحت ، فالله سبحانه مُنزَّه عن المكان ، وما نُزِّه عن المكان نُزِّه عن الزمان ، فالله عز وجل مُنزَّه عن أنْ تُحيِّزه ، لا بمكان ولا بزمان ؛ لأن المكان والزمان به خُلقا .. فمَن الذى خلق الزمان والمكان ؟

إذن : ما داما به خُلقا فهو سبحانه مُنزَّه عن الزمان والمكان .

وهم قالوا بأن الفوقية هنا فوقية حقيقية .. فوقية مكان ، أى : أنه تعالى أعلى منَّا .. ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أعْلَى مِنَّا .. من أىّ ناحية ؟ مِن هذه أم من هذه ؟

إذن : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من المحروس .. فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة ؟ بالطبع لا .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [النحل]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥/٤٤٨) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٠٥) وابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/٢١٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص٤٢٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يا رسول الله إنه كانت لى جارية ترعى قبل أحد والجوانية ، وإنى اطلعها يوماً إطلاعة ، فوجدت الذئب قد ذهب منها بشاة وأنا من بنى آدم أسف كما يأسفون فصككتها صكاً ، فعظم ذلك على النبى ﷺ قال : قلت يا رسول الله أعتقها ؟ قال : ادعها إلىّ . فقال لها : أين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : ومن أنا ؟ قالت : رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة .

وهذه هى الطاعة ، وهى أن تفعلَ ما أُمرْتَ به ، وأنْ تجتنبَ ما نُهيتَ عنه ، ولكن الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطاعة ، وهو :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [النحل]

ولم تقُلْ الآية مثلاً : ويجتنبون ما ينهوْنَ عنه . لماذا ؟.. نقول : لأن فى الآية ما يسمونه بالتلازم المنطقى ، والمراد بالتلازم المنطقى أن كلَّ نهى عن شىء فيه أمر بما يقابله ، فكل نهى يؤول إلى أمر بمقابله .

فقوله سبحانه :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [النحل]

تستلزم منطقياً « ويجتنبون ما يُنهَوْن عنه » وكأن الآية جمعت الجانبين .

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلا أنهم هُيَّموا[1] فى ذات الله ، ومنهم ملائكة مُوكَّلون بالخلق ، وهم :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾ [النازعات]

ويقول تعالى :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ۝١١ ﴾ [الرعد]

---

(١) الهُيام : شدة الحب والوله المؤدى إلى الخضوع بدون إرادة .

(٢) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

ومنهم :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ ﴾ [الانفطار]

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بنَا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لآدم حينما خلقه الله ، وصوَّره بيده ، ونفخ فيه من رُوحه .. وكأن الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذى ستكونون فى خدمته ، فالسجود له بأمر الله إعلانٌ بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويُدبِّرون له الأمور .. الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعْنِيون فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ ﴾ [ص]

أى : استكبرتَ أنْ تسجدَ ؟ أم كنتَ من الصِّنْف الملكى العالى ؟.. هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكُلُّ مهمتهم التسبيح والذكْر ، وهم المعنيون بقوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾ [الأنبياء]

كلُّ شىء ـ إذن ـ فى الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فالله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذى يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها وأشفقْنَ منها .. وكأنها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسخَّرين ، ولا دَخْلَ لنا فى موضوع الأمانة والتكليف !!

لماذا ـ إذن ـ يأبى الكون بسمائه وأرضه تحمُّل هذه المسئولية ؟

نقول : لأن هناك فَرْقاً بين تقبُّل الشيء وقت تحمُّله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه .. هناك فَرْق .. عندنا تحمُّل وعندنا أداء .. وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً لتحمُّل الأمانة وقُلْنا : هَبْ أن إنساناً أراد أن يُودع عندك مبلغاً من المال مخافة تبديده لتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت في هذا الوقت قادر على التحمل وتنوى أداء أمانته إليه عند طلبها وذمّتك قوية ، ونيتك صادقة .

هذا وقت تحمُّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إنفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارضٌ يمنعك من الأداء أو تتغيّر ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذى يريد أنْ يُبرىء ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمُّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسى وقت التحمل فلا أضمن نفسى وقت الأداء .

هذا مثال لما حدثَ من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمُّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدِّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقّها ، لذلك رفضت تحمُّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمُّل الأمانات ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ما الذى جهله الإنسان ؟ جهل تقدير حاله وقت أداء الأمانة ، فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجمال كما يقولون لَقالَ : يا ربِّ اجعلنى مثل السماء والأرض والجبال ، وما تُجريه علىَّ ، فأنا طَوْع أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبِل الاختيار وتحمَّل التكليف ، ولكنه خرج عن اختياره ومراده لمراد ربِّه وخالقه ، فقال : يارب أنت خلقْتَ فينا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكنَّا تنازلنا عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوْع أمرك .. هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألاَّ يفعل ، وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير .. فالأول مع أنه قادر ألاَّ يفعل ، فقد غلّب مُراد ربِّه فى التكليف على مراد نفسه فى الاختيار .

ثم ينتقل الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى قمة القضايا العقدية بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾

وقد جاء النهى فى الآية نتيجةً خروج الإنسان عن مُراد ربِّه سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً ـ يعنى الثقلين ـ هم المختارون فى الكون كله ، اختيار فى أشياء وقَهْر فى أشياء أخرى .. ومع ذلك لم يشذّ من خَلْق الله غيرهما .

فالسموات والأرض والجبال كان لها اختيار ، وقد اختارت التسخير ، وانتهت المسألة في بداية الأمر ، ومع ذلك فهي مُسخَّرة وتُؤدِّى مهمتها لخدمة الإنسان ، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض .. فهي تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر .. وكذلك الهواء والأرض والدابة الحلوب ، وكُلُّ ما في كون الله مُسخَّر للجميع .. إذن : كل هذه الأشياء لها مهمة ، وتؤدى مُهمتها على أكمل وجه .

ولذلك يقول تعالى في حقِّ هذه الأشياء :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا بالإجماع ، لا يتخلّف منها شيء عن مُراد ربه .

فما الحال في الإنسان ؟ يقول تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. (١٨) ﴾ [الحج]

ولم يَقُلْ : والناس . ثم قال :

﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هذا هو الحال في الإنسان المكرَّم الذى اختاره الله وترك له الاختيار .. إنما كل الأجناس مُؤدِّية واجبها ؛ لأنها أخذتْ حظَّها من الاختيار الأول ، فاختارت أن تكون مُسخَّرة ، وأن تكون مقهورة .

فالإنسان .. واحد يقول : لا إلهَ في الوجود .. العالم خُلِق هكذا بطبيعته ، وآخر يقول : بل هناك آلهة متعددة ؛ لأن العالم به مصالح كثيرة وأشياء لا ينهض بها إله واحد .. يعني : إله للسماء ، وإله للأرض ، وإله للشمس .. الخ .

إذن : هذا رأى فى العالم أشياء كثيرة بحيث لا ينهض بها فى نظره إله واحد ، ونقول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قدرة الفردية فيك .. لا .. خُذها من قدرة من :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

لأن القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت ، وتحتاج إلى مجهود وعمل .. بل فى حقِّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ .. كُنْ كذا وانتهت المسألة .

ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقول : الكون خُلِق هكذا لحاله دون إله . والآخر يقول : بل له آلهة متعددة .. نقول لهم : أنتم متناقضون ، فتعالَوْا إلى دين الله ، وإلى الوسطية التى تقول بإله واحد ، لا تنفى الألوهية ولا تثبت التعددية .

فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقتضى أجهزة كثيرة لإدارته ، فاعلم أن الله تعالى لا يباشر تدبير أمر الكون بعلاج .. يفعل هذه ويفعل هذه ، كما يُزاول البشر أعمالهم ، بل يفعلها بـ « كُنْ » ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيَّكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من مُلْكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنِّى جواد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما

أمرى بشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[1] .

فيا مَنْ تُشْفق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتى نواحيه ، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر ؛ لأن الله تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً فى الكون ، وإنما يباشره بكلمة « كُنْ » .

إذن : إله واحد يكفى ، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد ، فإياك أن تقول بتعدُّد الآلهة .. وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفي إلهين اثنين ، فنَفْى ما هو أكثر من ذلك أوْلَى .. واثنان أقل صُوَر التعدد .

ومعنى ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ أى : معبودين ، فيكون لهما أوامر ونواه ، والأوامر والنواهى تحتاج إلى طاعة ، والكون يحتاج إلى تدبير ، فأىٌّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون ؟ أم أنه يحتاج إلى مُسَاعد ؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد فهذا نقْص فيه ، ولا يصلح أن يكون إلهاً .

وكذلك إنْ تخصَّص كُلٌّ منهما فى عمل ما ، هذا لكذا وهذا لكذا ، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر .. وأى ناحية إذن من نواحى الحياة تكون هى المسيطرة ؟ ومعلوم أن نواحى الحياة مشتركة ومتشابكة .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن . فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

وقــال :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

فكيف الحـال إذا أراد الأول شـيـئـاً ، وأراد الآخـر ألاَّ يكون هذا الشيء ؟ فـإنْ كان الشيء كـان عجـزاً في الثاني ، وإن لم يكُن كـان عجزاً في الأول .. إذن : فقوة أحدهما عَجْز في الآخر .

ونلحظ في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١) ﴾ [النحل]

علة بليغـة ، كأنه سبـحانه حينمـا دعانا إلى توحيده يقول لنا : أريحوا أنـفسكم بالتـوحيد ، وقـد أوضح الحق سبـحانه وتعـالى هذه الراحة في قوله :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

يعني رجل خَلَص لسـيد واحـد ، ورجل أسـيـاده كثـيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإنْ أرضى هـذا أغضب ذاك ، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخر . فـهو دائماً مُتْعَبٌ مُـثْقَلٌ ، أما المملوك لسيـد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة .

ففي أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وِجْهة واحدة تكفيكم كُلَّ الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبُه سبحانه راحةٌ لنا ؛ لذلك قبل أن يطلبها مِنَّا شهد بها لذاته تعالى ، فقال :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⟨١٨⟩﴾ [آل عمران]

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه ؛ لأنه لا أحدَ غيره .. لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي .. وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيرى ، وإنْ كان هناك إله غيرى فَلْيُرِنى نفسه ، وليُفصِح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلتُ كذا وكذا ، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة ، وإما أنْ أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذى خلق .. فأين هو ؟ لماذا لا يعارضنى ؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع الله فى خَلْقه أحد ، وحين تأتى الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسلَّم لصاحبها .

فإنْ قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تَدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلُحون للألوهية لعدم درايتهم ، وإنْ دَرَوْا ولم يعارضوا فهُمْ جُبناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق ؛ لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال : « كن » فهو واثق أنه سيكون .

ولذلك ساعة يحكم الله حُكْماً غيبياً يقول : أنا حكمت هذا الحكم

مع أنكم مختارون فى أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكنى حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْتُ حكمت بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا ، ولكن ما فعلتم ، فهذا دليل على أنه لا إله غيرى يُعينكم على أنْ تفعلوا .

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، كما قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾
[آل عمران]

لنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١) ﴾ [النحل]

فعندنا العدد ، وعندنا المعدود ، فإذا قُلْنا مثلاً : قابلت ثلاثة رجال ، فكلمة « ثلاثة » دلتْ على العدد ، وكلمة « رجال » دلَّتْ على جنس المعدود ، وهكذا فى جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، فلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دلَّتْ على الوحدة ، ودلتْ على الجنس ، وكذلك « إلهين » دلَّتْ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفى فى الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا إلهين ؛ لأنها دلَّتْ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقدىّ لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبُّوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد .

فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حَسَن بَسَن[1] ، وفلان شيطان ليطان ، يريدون تأكيد الصفة .. وكذلك فى قوله : ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ فقط تثبت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقدية لأنها أهمّ القضايا بالنسبة للإنسان ، وهى قضية القمة ، فقال تعالى :

﴿ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

وكذلك أيضاً فى قوله :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

فجاء بقوله تعالى ﴿ وَاحِدٌ ﴾ لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفى الآية ملْحظ آخر يجب تأمله ، وهو أن الكلام هنا فى حالة الغيبة :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

فكان القياس فى اللغة هنا أن يقول : « فإياه فارهبون » .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى المواجهة للمتكلم قال :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

وهذا وراءه حكمة ، وملْحظ بلاغى ، فبعد أنْ أكّد الألوهية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : بسن] : « حسن بسن إتْباع . قال ابن الأعرابى : أبسن الرجل إذا حَسُنت سَحْنته » .

صَحَّ أنْ يُجابِهَهم بذاته ؛ لأن المسألة ما دامتْ مسألة رَهْبة ، فالرهبة من المتكلم خير من الرهبة من الغائب .. وكأن السياق يقول : ها هو سبحانه أمامك ، وهذا أدْعى للرهْبة .

وكذلك في فاتحة الكتاب نقرأ :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ﴾ . [الفاتحة]

ولم يَقُلْ : إياه نعبد ـ متابعة للغيبة ، بل تحوَّل إلى ضمير الخطاب فقال :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ ﴾ [الفاتحة]

ذلك لأن العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أهْلاً للمواجهة والخطاب المباشر مع الله عز وجل .

فقوله :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ⑤١ ﴾ [النحل]

بعد ما استحضر العبد عظمة ربه ، وأقرَّ له بالوحدانية وعلم أنه إله واحد ، وليس إلهين ـ واحد يقول : نُعذِّبه ـ والآخر يقول : لا .

ليس الأمر كذلك ، بل إله واحد بيده أنْ يُعذِّب ، وبيده أنْ يعفو ، فناسب السياق هنا أنْ يُواجههم فيقول :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ⑤١ ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا[1] أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ ﴾

عندنا هنا اللام .. وقد تكون (اللام) للمِلْك كما فى الآية . وكما فى : المال لـزيد ، وقد تكون للتـخصيص إذا دخلتْ الـلام على ما لا يملك ، كما نقول : اللجام للفرس ، والمـفتاح للباب ، فالفرس لا يملك اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝٥٢ ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ۝٦٨ ﴾ [يونس]

وكذلك فى :

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝٢٤ ﴾ [الحشر]

ومرة يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ۝١ ﴾ [الجمعة]

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففى قوله :

(١) وصب الشىء يصب وصوباً : دام ولزم فهو واصب : دائم لازم . أى : لا يتغـير ولا يتبدّل . [القاموس القويم ٢/٣٢٩] .

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٥٢﴾﴾ [النحل]

يعنى : القدر المشترك الموجود فيهما . أى : الأشياء الموجودة فى السماء وفى الأرض .

أما فى قوله :

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿٦٨﴾﴾ [يونس]

أى : الأشياء الموجودة فى السماء وليست فى الأرض ، والأشياء الموجودة فى الأرض وليست فى السماء ، أى : المخصّص للسماء والمخصَّص للأرض ، وهذا ما يُسمُّونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، فليس لأحد غيره ملْكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن : فليس له ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام وجوده موهوب له .. ولذلك يقولون : مَنْ أراد أن يعاند فى الألوهية يجب أن تكون له ذاتية وجود .. وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذى يعاند أباه ، وهو ما يزال عَالةً عليه . فيقول له : انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك .. فإذا ما شبَّ الولد وبلغ وبدأ فى الكَسْب أمكن له الاعتماد على نفسه ، والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند فى الألوهية : أنت لا تقدر ؛ لأن وجودك هِبَة ، وقيام وجودك هِبَة ، كل شىء يمكن أنْ يُنزع منك .

ولذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

فهذا الذى رأى نفسه استغنى عن غيره ـ من وجهة نظره ـ إنما هل استغنى حقاً ؟.. لا . لم يستغن بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النحل]

الذى له ما فى السموات والأرض ، وبه قيام وجوده بقيوميته[1] ، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك : أنا قيُّوم ـ يعنى : قائم على أمرك .. ليس قائماً فقط .. بل قيُّوم بالمبالغة فى الفعْل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عَدَم ، وإمداداً من عُدم . إذن : يجب أن تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره .

وفى الأمثال يقولون « اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى » فإذا كنتَ أنت عالة فى الوجود .. وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مُقوِّمات حياتك من الله ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : هذه نتيجة ؛ لأن لله ما فى السموات والأرض ، فلَه الدين واصباً ، أى : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، ومُلْك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكَه لأحد ، ولا تزال يد الله فى مُلْكه .. وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

---

(١) القيوم : صيغة مبالغة من أسماء الله الحسنى لا يُوصف بها سواه . أى : دائماً شديد القيام والحفاظ على مخلوقاته . [القاموس القويم ٢/١٤٢] .

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل]

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أنْ تتقىَ غير الله ، لأنه حُمْق لا يليق بك ، وقد علمتَ أن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عَدَم والإمداد من عُدم .

إذن : فمن الحُمْق أنْ تتقى غيره ، وهو أَوْلى بالتقوى ، فإنِ اتقيتُم غيره فذلك حُمْق فى التصرُّف يؤدّى إلى العطَب والهلاك ، إنِ اغتررتم بأن الله تعالى أعطاكم نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكَات وما حولها ، فلو سلِم العَقل مثلاً سلِمت وصَحَّتْ الأمور التى تتعلق به ، فيصحّ النظامَ ، وتصحّ التصرُّفاتَ ، ويصحّ الاقتصاد .. وهذه نعمة .

فالنعمة تكون للقلب وتكون للقالب ، فللقالب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية .. وأهم المتَع المعنوية التى تريح القالب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجّهه .. أن يكون له ربٌّ قادر ، لا يُعجِزه شىء ، فإنْ ضاقتْ به الدنيا ، وضاقتْ به الأسباب فإن له رباً يلجأ إليه فيُسعفه ويكفيه ، وهذه هى الراحة الحقيقية .

وقد ضمن لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ سلامة القالب بما أودع فى الكون من مُقوِّمات الحياة فى قوله :

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[1] .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت]

أى : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، فالله سبحانه لا يريد منكم إلا أنْ

---

(١) أقواتها : هو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٩٣) .

تُعملوا عقولكم المخلوقة لله لتُفكِّروا فى المادة المخلوقة لله ، وتنفعلوا لها بالطاقة المخلوقة لله فى جوارحكم ، وسوف تجدون كلَّ شىء مُيسَّراً لكم .. فالله تعالى ما أراد منكم أنْ تُوجِدوا رزقاً ، وإنما أراد أنْ تُعملوا العقل ، وتتفاعلوا مع مُعْطيات الكون .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان فى الحياة ؟

هناك أشياء فى الوجود خلقها الله سبحانه برحمته وفضله ، فهى تفعل لك وإنْ لم تطلب منها أن تفعل ، فأنت لا تطلب من الشمس أنْ تطلُع عليك ، ولا من الهواء أنْ يَهُبَّ عليك .. الخ .

وهناك أشياء أخرى تفعل لك إنْ طلبتَ منها ، وتفاعلتَ معها ، كالأرض إنْ فعلتَ بيدك فحرثْتَ وزرعْتَ ورويْتَ تعطيك ما تريد .

وفى هذا المجال من التفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلون فيما يُفعل لهم دون انفعال منهم .. لا بل ارتقاء الناس وتفاضُلهم يكون بالأشياء التى تنفعل لهم إنْ فعلوا .. أما الأخرى فتفعل لكل الناس ، فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن وللكافر فى أىِّ مكان .

إذن : يترقَّى الإنسان بالأشياء التى خلقها الله له ، فإذا انفعل معها انفعلتْ له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعْطه شيئاً ، ولا يستفيد منها بشىء .. ولذلك قد يقول قائل : الكافر عنده كذا وكذا ، ويملك كذا وكذا ، وهو كافر .. ويتعجَّب من القدر الذى أعطى هذا ، وحرَم المؤمن الموحد منه .

نقول له : نعم أخذ ما أخذ ؛ لأنه يشترك معك فيما يُفعل لك وإنْ لم تطلب ، ويزيد عليك أنه يعمل ويكدّ وينفعل مع الكون

وما أعطاه الله من مُقوِّمات وطاقة ، فتنفعل معه وتعطيه ، في حين أنك قاعد لا همَّ لك .

وكذلك قد يتسامى الارتقاء في الإنسان ، فيجعل الشيء الذي يُفعل له دون أن يطلب منه - أي : الشيء المسخَّر له - يجعله ينفعل له ، كما نرى فيما توصَّل إليه العلم من استخدام الطاقة الشمسية مثلاً في تسخين المياه .. هذه الطاقة مُسخَّرة لنا دون جَهْد منّا ، ولكن ترقِّي الإنسان وطموحه أوصله إلى هذا الارتقاء .. وكُلُّ هذه نِعَم من الله ؛ ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ[1] ﴿٥٣﴾ ﴾

أمدَّنا الله سبحانه بهذه النعم رحمة منه وفضلاً .. نِعَم تترى لا تُعَد ولا تُحْصَى ، ولكن لرتابة[2] النعمة وحلولها في وقتها يتعوّدها الإنسان ، ثم يذهل عن المنعم سبحانه .

ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بالولد الذي تعطيه مصروفه مثلاً كل أول شهر ، تجده لا يحرص على أنْ يلقاك بعد ذلك إلا كل أول شهر ، إنما إذا عوَّدته أن يأخذ مصروفه كل يوم تراه في الصباح يحوم حولك ، ويُظهر لك نفسه ليُذكِّرك بالمعلوم .

إذن : رتابة النعمة قد تُذهلك عن المُنعم ، فلا تتذكره إلا حين

---

(١) جأر إلى الله عز وجل : تضرع بالدعاء . فيرفع صوته بالدعاء متضرعاً جزعاً . [لسان العرب - مادة : جأر] .

(٢) الأمر الراتب : الثابت الدائم . [لسان العرب - مادة : رتب] .

الحاجة إليه ؛ لذا يُنبِّهنا الحق تبارك وتعالى : إذا أعطيتُ لكم نعمة فإياكم أنْ تغتروا بها .. إياكم أن تُذهلكم النعمة عن المنعم ؛ لأنكم سوف تحكمون على أنفسكم أنه لا مُنعِم غيرى ، بدليل أننى إذا سلبْتُ النعمة منكم فلن تجدوا غيرى تلجأون إليه فستقولون : ياربِّ ياربِّ .

فأنت ستكون شاهداً على نفسك ، لن تكذب عليها ، فلِمَنْ تتوجَّه إذا أصابك فقر ؟ ولمن تتوجَّه إذا أصابك مرض ؟ لن تتوجَّه إلا إلى الله تقول : يارب .

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل]

فترة الضُّر التي تمرُّ بالإنسان هي التي تلفته إلى الله ، والحاجة هي التي تُلجئه إلى المصدر الحقيقي للإمداد ، فإذا كانت النعمة قد تُذهِله وتُنسيه ، فالضر يُذكِّره بربِّه الذي يملك وحده كَشْف الضر عنه .

ولذلك ، فالناس أصحاب اليقين في الله تعالى ساعةَ أنْ يصيبهم ضُرٌّ ، يقول : ذكَّرتني بك ياربِّ ، يأخذها على أنها نعمة .. كأنها نجدة نجدتْه مما هو فيه من غفلة .. يا ربِّ أنت ذكَّرتني بك .. أنا كنتُ ناسياً ذاهلاً .. كنت في غفلة .

وساعةَ أنْ يعودَ ويشعر بالتقصير يرفع الله عنه البلاء ؛ ولذلك يُرفع القضاء عن العبد إنْ رضى به وعلم أن فيه خيراً له .

ولذلك ، فالرسول ﷺ يُنبِّهنا لهذه الأحداث التي تصيبنا ، فإياكم أن تستقبلوها بالجزع والفزع .. ولكن استقبلوها بالإيمان والرضا ، واعلموا أن ربكم يغار عليكم ، وهو بهذه الأحداث يلفتكم إليه قهراً عنكم ؛ لكى تعودوا إليه وتلجأوا إليه .. لكى تقولوا يارب .

يقول رسول الله ﷺ عن رب العزة في الحديث القدسي :

« مِنْ عبادى مِنْ أحبهم فأنا أبتليهم ليقولوا يارب... » [1] .

ويقول تعالى في الآية الأخرى :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا [2] تَضَرَّعُوا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : أنه سبحانه يريد منا إذا نزل بنا بلاء وبأس أنْ نتضرَّع إليه سبحانه ؛ لأن الضراعة إلى الله لَفْتة وتذكير به .. والنبى ﷺ يُرشدنا إلى هذه الحقيقة ، فالمصاب الحقيقى ليس مَنْ نزل به ضُرٌّ أو أصابه بلاء .. لا .. بل المصاب الحقيقى مَنْ حُرِم الثواب .

إذن : نقول لمن عنده نعمة : احـذر أن تُنسيك النعمة وتُذهلك عن المنعم ، أمـا صـاحب الـبلاء والضـر ، فـسـوف يرنك هذا الـبلاء ، ويُذكِّرك هذا الضرّ بالله تعالى ، ولن تجدَ غيره تلجأ إليه .

فقوله تعالى :

﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل]

أى : تضرَّعون بصراخ وصوت عالٍ كـخُوار البقر ، لا يُسرّه أحد ولا يستـحى منه أنْ يُفتضح أمـره أمامَ مَنْ تكبّر عليـهم .. ويا ليتكم حين ينتابكم مثل ذلك تعتبرون به وتتعظُون ، وتقولون في لحظة من

---

(١) أورد المنذرى فى الترغيب (٤/٥٢٦) أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً ، وثجه عليه ثجاً ، فإذا دعا العبد قال : يا رباه ، قال الله : لبيك يا عبدى لا تسألنى شيئاً إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك ، وإما أن أدخره لك » . ورمز الحافظ المنذرى له بالضعف .

(٢) البأس : العذاب والشدة فى الحرب والمشقة . [لسان العرب ـ مادة : بأس] .

اللحظات : سوف تلجئنا الأحداث إلى ربنا .. بل بالعكس حينما نكشف عنكم الضر سوف تعودون إلى ما كنتم عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

فمن الناس مَنْ إذا أصابه الله بضُرٍّ أو نزل به بأسٌ تضرَّع وصرخ ولجأ إلى الله ودعاه ، وربما سالتْ دموعه ، وأخذ يُصلي ويقول : يا فلان ادْعُ لي الله وكذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه ضُرَّه عاود الكرَّة من جديد ؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

ومن لُطْف الأداء القرآني هنا أن يقول :

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل]

أي : جماعة منكم وليس كلكم ، أما الباقي فيمكن أنْ يثبتُوا على الحق ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون .. فالناس - إذن - مختلفون في هذه القضية : فواحد يتضرَّع ويلتفت إلى الله من ضُرٍّ واحد أصابه ، وآخر يلتفت إلى الله من ضُرَّيْن ، وهكذا .

ولقد وجدنا في الأحداث التي مرَّتْ ببلادنا على أكابر القوم أحداثاً عظاماً تلفتهم إلى الله ، فرأينا مَنْ لا يعرف طريق المسجد يُصلِّي ، ومَنْ لا يفكر في حج بيت الله ، يسرع إليه ويطوف به ويبكي هناك

عند الملتزم[1] ، وما الجاهم إلى الله ولفتهم إليه سبحانه إلا ما مرّت بهم من أحداث .

أليست هذه الأحداث ، وهذه الأزمات والمصائب خيراً في حقهم ؟.. بلى إنها خير .

وأيضاً قد يُصاب الإنسان بمرض يُلِمّ به ، وربما يطول عليه ، فيذهب إلى الأطباء ، ويدعو الله ويلجأ إليه ، ويطلب من الناس الدعاء له بالشفاء ، ويعمل كذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه المرض وأذن له بالشفاء قال : أنا اخترتُ الطبيب الحاذق ، الطبيب النافع ، وعملتُ وعملتُ .. سبحان الله !

لماذا لا تترك الأمر لله ، وتُعفِي نفسك من هذه العملية ؟

وفي قوله تعالى :

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

[النحل]

صمام أمْن اجتماعي في الكون ، يقول للناس : إياكم أن تأخذوا على غيركم حين تُقدمون إليهم جميلاً فيُنكرونه .. إياكم أنْ تكفُّوا عن عمل الجميل على غيركم ؛ لأن هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع أعلى منكم ، فعلوه مع الله سبحانه ، فلا يُزهدك إنكارهم للجميل في فعْله ، بل تمسَّك به لتكون من أهله .

---

(١) يستحب الدعاء عند الملتزم بعد الشرب من ماء زمزم . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : « رأيت رسول الله ﷺ يلزق وجهه وصدره بالملتزم » . أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٤١٨/٦) .

والحق تبارك وتعالى يضرب لنا مثلاً لإنكار الجميل فى قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟[1] مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

فقد اتهمه قومه وقعدوا يقولون فيه كذباً وبُهْتاناً ، فقال موسى : يا ربِّ أسألك ألاَّ يُقَال فيَّ ما ليس فيَّ .. فقال تعالى لموسى : أنا لم أفعل ذلك لنفسي ، فكيف أفعلها لك ؟

ولماذا لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ؟.. لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ليعطينا نحن أُسْوة فى تحمُّل هذا الإنكار ، فقد خلق الله الخَلْق ورزقهم ووَسِعهم ، ومع ذلك كفروا به ، ومع ذلك ما يزال الحق سبحانه خالقاً رازقاً واسعاً لهم .

إذن : فى الآية تقنين وأمان للمجتمع أن يتفشى فيه مرض الزُّهْد فى عمل الخير .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل]

تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين ، ومن الكافرين .

ولكن لماذا يشركون ؟

---

(١) وذلك أن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ، فآذاه قوم من بنى إسرائيل وقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ببرص أو غيره . فأراد الحق أن يبرئه مما قالوا ، فبعد اغتساله أراد أن يرتدى ثيابه ، فذهب بها الحجر بعيداً حتى جاء على ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله . أخرجه البخارى فى صحيحه والترمذى فى سننه من حديث أبى هريرة . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٦٥) .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾

أى : مُسْتعظمين كقارون الذى قال :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص]

أخذتُ هذا بَجُهْدى وعملى .. ومثله مَنْ تقول له : الحمد لله الذى وفَّقك فى الامتحان ، فيقول : أنا كنت مُجداً .. ذاكرتُ وسهرتُ .. نعم أنت ذاكرتَ ، وأيضاً غيرك ذاكر وجَدَّ واجتهد ، ولكن أصابه مرض ليلة الامتحان فأقعده ، وربما كنت مثله .

فهذه نغمة مَنْ أنكر الفضل ، وتكبَّر على صاحب النعمة سبحانه .

وقوله :

﴿ لِيَكْفُرُوا .. (٥٥) ﴾ [النحل]

هل فعلوا ذلك ليكفروا ، فتكون اللام للتعليل ؟ لا بل قالوا : اللام هنا لام العاقبة .. ومعناها أنك قد تفعل شيئاً لا لشىء ، ولكن الشىء يحدث هكذا ، وليس فى بالك أنت .. إنما حصل هكذا .

ومثال هذه اللام فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص]

ففرعون حينما أخذ موسى من البحر وتبنَّاه وربَّاه ، هل كان يتبنَّاه ليكونَ له عدواً ؟ لا .. إنما هكذا كانت النهاية ، لكى يثبت الحق سبحانه أنهم كانوا مُغفَّلين ، وأن الله حالَ بين قلوبهم وبين

ما يريدون .. إذن : المسألة ليستْ مرادة .. فقد أخذْته وربَّيته في الوقت الذي تقتل فيه الأطفال .. ألم يخطر ببالك أن أحداً خاف عليه ، فألقاه في البحر ؟!

لذا يقول تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وكذلك أم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧) ﴾ [القصص]

كيف يقبل هذا الكلام ؟ وأنَّى للأم أن ترمي ولدها في البحر إنْ خافت عليه ؟! كيف يتأتَّى ذلك ؟! ولكن حالَ الله بين أم موسى وبين قلبها ، فذهب الخوف عليه ، وذهب الحنان ، وذهبت الرأفة ، ولم تكذّب الأمر الموجَّه إليها ، واعتقدت أن نجاة وليدها في هذا فألقتْه .

وقوله : ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [النحل]

أي : اكفروا بما آتيناكم من النعم ، وبما كشفنا عنكم من الضر ، وتمتعوا في الدنيا ؛ لأنني لم أجعل الدنيا دار جزاء ، إنما الجزاء في الآخرة .

---

(١) حال بينهما يحول : حجز وفصل . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] أي : أن الله يملك أن يعرف قلب الإنسان ويغيِّر نيته كما يريد . فالمرء لا يملك قلبه ، وإنما الله هو الذي يملكه . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

وكلمة ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ هنا تدل على أن الله تعالى قد يُوالى نِعمه حتى على مَنْ يكفر بنعمته ، وإلاَّ فلو حَجَب عنهم نِعَمه فلن يكون هناك تمتُّع .

ويقول تعالى :

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل]

أى : سوف ترونَ نتيجة أعمالكم ، ففيها تهديد ووعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أى : الذين يكفرون بالله ويتخذون الأصنام والشركاء ، يجعلون لها نصيباً

وقول الحق سبحانه :

﴿لا يَعْلَمُونَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [النحل]

ما العلم ؟

العلم أن تعرفَ قضية ، هذه القضية صدْق أى : مطابقة للواقع وتستطيع أن تُدلِّل عليها ، فإذا اختلَّ واحد منها لم تكُنْ علماً .. وهؤلاء حينما جعلوا للأصنام نصيباً ، فقد أتَوْا بأشياء لا وجودَ لها فى الواقع ولا فى العلم ، وليست حقائق .. وهل للأصنام وجود ؟ وهل عليها دليل ؟

قال تعالى :

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣)﴾ [النجم]

هذه الأصنام ليست لها وجود في الحقيقة ، وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام]

حتى لمَّا جعلوا للأصنام نصيباً جعلوه مما رزقهم الله ، ألاَ جعلتم نصيب الأصنام مما تعطيكم الأصنام ؟ ونصيب الله مما رزقكم الله ؟ فهذا اعتراف منكم بعجز أصنامكم ، وأنكم أخذتم رزق الله وجعلتموه لأصنامكم .

وهذا دليل على أن الأصنام لا تعطيكم شيئاً ، وشهادة منكم عليهم .. وهل درت الأصنام بهذا ؟

إذن :

﴿لِمَا لا يَعْلَمُونَ .. (٥٦)﴾ [النحل]

أى : للأصنام ؛ لأنها لا وجودَ لها فى الحقيقة ، وهم يأخذون ما رزقناهم ، ويجعلونه لأصنامهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النحل]

التاء هنا في ﴿ تالله ﴾ للقسم : أي : والله لَتُسْأَلُنَّ عما افتريتم من أمر الأصنام . والافتراء : هو الكذب المتعمد .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1]

ساعة أنْ تسمع كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ فاعلم أنها تنزيهٌ لله تعالى عمّا لا يليق ، فهي هنا تنزيهٌ لله سبحانه وتعالى عما سبق من نسبة البنات له .. تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً .. أي : تنزيهاً لله عن أن يكونَ له بنات .

فهل يمكن أن يكون له أولاد ذكور ؟

إنهم جعلوا لله البنات ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهذه قسمة قال عنها القرآن الكريم :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم]

أي : جائرة .

لم تجعلوها عادلة ، يعني لي ولد ولكم ولد ، ولي بنت ولكم بنت ، إنما تجعلون لله مَا تكرهون وهي البنات لله ، وتجعلون لكم ما تحبون .. لذلك كان في جَعْلهم لله البنات عيبان :

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٤١) : « نزلت في خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله » .

الأول : أنهم نَسَبُوا لله الولد ـ ولو كان ذكراً فهو افتراء باطل يتنزه الله عنه .

الثاني : أنهم اختاروا أخسَّ الأنواع في نظرهم .. ولا يستطيع أحد أن يقول : إن البنات أخسُّ الأنواع ـ لماذا ؟

لأن بالبنات يكون بقاء النوع ؛ ولذلك قال العباس : لو سمع الله ما قال الناس في الناس لما كان الناس .. أي : لو استجاب الله لرغبة الناس في أنهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم .. ماذا سيحدث ؟ سينقطع النسل ، فهذا مطْلَب غبيّ ، فالبنت هي التي تَلِد الولد ، وبها بقاء النوع واستمرار النسل .

وقوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَهُ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل]

أي : تنزيهاً له أن يكون له ولد ، وتنزيهاً له سبحانه أن يكون له أخسّ النوعين في نظرهم وعرفهم ، وقد قال عنهم القرآن في الآية التالية :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

ولذلك فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحدِّثنا عن الإنجاب يقول :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

أول ما بدأ الحق سبحانه بدأ بالإناث .. ثم أعطانا هذه الصور من الخَلْق : إناث ، ذكور ، ذكور وإناث ، عقيم .. إذن : هِبَات الله تعالى

لها أربعة أنواع ، ومن هنا كان العُقْم أيضاً هبةً من الله لحكمة أرادها سبحانه .. لكن الناس لا تأخذ العُقْم على أنه هِبَة .. لكن تأخذه على أنه نِقْمة وغضب .

لماذا ؟ لماذا تأخذه على أنه نِقْمة وبلاء ؟ فربما وهبك الولد ، وجاء عاقاً ، كالولد الذى جاء فتنة لأبويْه ، يدعوهما إلى الكفر[1] .

ولو أن صاحب العقم رضى بما قسمه الله له من هبة العقم واعتبره هبة ورضى به لرأى كل ولد فى المجتمع ولده من غير تعب فى حَمْله وولادته وتربيته . فيرى جميع الأولاد من حوله أولاده ويعطف الله قلوبهم إليه كأنه والدهم .. وكأن الحق تبارك وتعالى يقول له : ما دُمْتَ رضيتَ بهبة الله لك فى العقم لأجعلنَّ كل ولدٍ ولداً لك .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : من الذُّكْران ؛ لأن الولد عِزْوة لأبيه ينفعه فى الحرب والقتال وينفعه فى المكاثرة .. الخ إنما البنت تكون عالةً عليه ؛ ولذلك قال تعالى بعد هذا :

---

(١) وذلك فى قصة موسى والخضر ، قال تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الكهف] وقد علل الخضر هذا بقوله : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

نعرف أن البشـارة تكون بخير ، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها استقـبالَ البشارة ، ولكنهم استقـبلوها استقبال الناقـمين الكارهين لما بُشّروا به ، فتجد وجه الواحد منهم .

﴿ مُسْوَدًّا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

الكظم هو كَتْم الشيء .

ولذلك يقول تعالى في آية أخرى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وهو مأخوذ من كَظْم القِرْبة حين تمتلىء بالماء ، ثم يكظمها أي : يربطها ، فتراها ممتلئة كأنها ستنفجر .. هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم في وجهه ، ويحدث له احتـقان ، فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً حاله :

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ[1] أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : يتخفّى منهم مخافة أنْ يُقال : أنجب بنتاً .

﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

نلاحظ إعادة البشارة فى هذه الآية أيضاً ، وكأنه سبحانه وتعالى يُحنِّن قلبه عليها ، ويدعوه إلى الرِّفْق بها .

فهو متردد لا يدرى ماذا يفعل ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : ماذا يفعل فيما وُلِد له . أيحتفظ به على هُونٍ ـ أى : هوان ومذلة ـ أم يدسُّه فى التراب ـ أى : يدفنها فيه حية ؟

﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحكمون فى الحالتين . حالة الإمساك على هُون ومذلّة ، أو حالة دَسّها فى التراب ، فكلاهما إساءة . وكان بعض هؤلاء إذا وُلدتْ له بنت كرهها ، فإنْ أمسكها أمسكها على حال كونها ذليلةً عنده ، مُحتقرة مُهَانة ، وهى مسكينة لا ذنبَ لها .

---

(١) الهُون والهوان : الذل الشديد والخزى . [لسان العرب ـ مادة : هون] .

ولذلك ، فإن المرأة العربية التى عاصرتْ هذه الأحداث فطنَتْ إلى ما لم نعرفه نحن إلا قريباً ، حيث اكتشف العلم الحديث أن أمر إنجاب الولد أو البنت راجع إلى الرجل وليس إلى المرأة .. وكان أبو حمزة كثيراً ما يترك زوجته ويغضب منها ، لأنها لا تلد إلا البنات .. فماذا قالت هذه المرأة العربية التى هجرها زوجها ؟ قالت :

مَا لأبى حمزةَ لاَ يأتِينَا غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينَا
تَاللَّهِ مَا ذَلكَ فِى أيْدِينا فَنَحنُ كَالأرْضِ لغارسينا
نُعطِى لَهُم مِثْل الذِى أُعْطِينَا

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد توازناً فى الكون يصنع هذا التوازن من خلال مقتضيات النفس البشرية ، ومن مقتضياتها أن يكون للإنسان جاهٌ ، وأن يكون له عِزٌ ، لكن الإنسان يخطىء فى تكوين هذا الجاه والعِزّ ، فيظن أنه قادر على صُنْع ما يريد بأسبابه وحدها .

إنما لو علم أن تكوين الجاه والعِزّ بشىء فوق أسبابه هو ، بشىء مخلوق لله تعالى ، بقدر مخلوق لله تعالى ، لو علم هذه الحقيقة لجاء المسألة من بابها .

ذلك لأن العزة ليست بما تُنجِب .. العزة هنا لله وللرسول وللمؤمنين ، اعتزّ هنا بعُصْبة الإيمان ، اعتز بأنك فى بيئة مؤمنة متكافلة ، إذا أصابك فيها ضَيْم[1] فزِع إليك الجميع .

---

(١) الضيم : الظلم أو الإذلال ونحوهما . ضامه : ظلمه وأذله . [المعجم الوجيز - مادة : ضام] .

ولا تعتزّ بالأنسال والأنجال ، فقد يأتى الولد عاقًا لا يُسعف أبويْه فى شدة ، ولا يعينهما فى حاجة ؛ ذلك لأنك لجأتَ إلى عَصَبية الدم وعَصَبيّة الدم قد تتخلّف ، أما عَصبيّة العقيدة وعَصَبيةُ الإيمان والدين فلا .

ولنأخذ على ذلك مثالاً .. ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من تكافل وتعاون فاق كُل ما يتصوره البشر ، ولم يكُنْ بينهم سوى رابطة العقيدة وعصبية الإيمان .. ماذا حدث بين هؤلاء الأفذاذ ؟

وجدنا أن العصبية الإيمانية جعلت الرجل يُضحّى بأنفَس شيء يضِنُّ به على الغير .. نتصور فى هذا الموقف أن يعود الأنصار بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين ، فَمنْ كانت عنده ركوبة أو منزل مثلاً يقول لأخيه المهاجر : تفضل اركب هذه الركوبة ، أو اجلس فى هذا المنزل .. هذا كله أمر طبيعى .

أما نعيم المرأة ، فقد طُبِع فى النفس البشرية أن الإنسان لا يحب أنْ تتعدّى نعمته فيها إلى غيره .. لكن انظر إلى الإيمان ، ماذا صنع بالنفوس ؟.. فقد كان الأنصارى[1] يقول للمهاجر : انظر لزوجاتى ، أيّهن أعجبتْك أطلّقها لتتزوجها أنت ، وما حمله على ذلك ليس عصبية الدم أو عَصبيّة الجنس ، بل عَصبيّة اليقين والإيمان .

(١) أخرج الإمام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أى أخى ، أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالى فخذه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها . فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلّونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح . أورده ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢٢٨/٣) والكاندهلوى فى « حياة الصحابة » (٣٦٣/١) .

ولذلك تنتفى جميع العصبيات فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ وولده الكافر ، حينما ناداه نوح ـ عليه السلام ـ :

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ..(٤٣) ﴾ [هود]

ويتمسّك نوح بولده ، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. (٤٥) ﴾ [هود]

فيأتى فَصْلُ الخطاب فى هذه القضية :

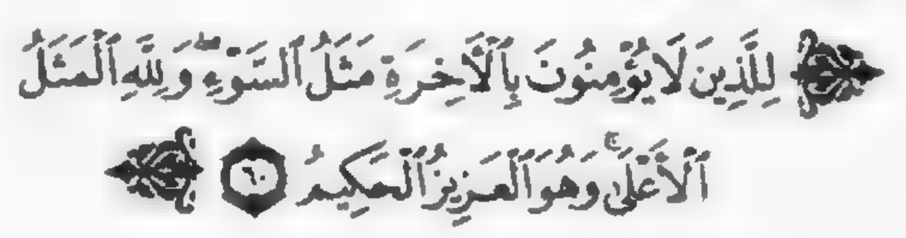
﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود]

إذن : هذا الولد ليس من أهلك ؛ لأن البُنُوة هنا بُنُوة العمل ، لا بُنُوة الدم والنَّسَب .

صحيح أن الإنسان يحب العزة ويطلبها لنفسه ، ولكن يجب أن تنظر كيف تكون العزة الحقيقية ؟ وما أسبابها ؟

خُذْ العزة بالله وبالرسول وبالبيئة الإيمانية ، يصبح كل الأولاد أولادك ؛ لأنهم معك فى يقينك بالله وإيمانك به سبحانه .. أما أن تعتز بطريقتك أنت ، فتطلب العزة فى الولد الذكَر ، فمَنْ يُدريك أن تجد فيه العزة والعِزْوة والمكاثرة ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :



قوله تعالى :

﴿مَثَلُ السَّوْءِ .. ⟨٦٠⟩﴾ [النحل]

صفة السوء أى : الصفات السيئة الخسيسة من الكفر والجحود والنكْران ، ومن عَمى البصيرة ، وغيرها من صفات السوء .

لماذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السوء ؟ لأن المعادلة التى أجْرَوْها معادلة خاطئة ؛ لأن الذى لا يؤمن بالآخرة قصَّر عمره .. فعُمْر الدنيا بالنسبة له قصير ، وقد قلنا : إياك أن تقيسَ الدنيا بعمرها .. ولكن قِسْ الدنيا بعمرك أنت ، فعمر الدنيا مدة بقائكَ أنت فيها .. إنما هى باقية من بعدك لغيرك ، وليس لك أنت فيها نصيب بعد انقضاء عمرك .

إذن : عمر الدنيا عمرك أنت فيها .. عمرك : شهر ، سنة ، عشر سنوات ، مائة .. هذا هو عمر الدنيا الحقيقى بالنسبة لك أنت .

ومع ذلك ، فعمر الدنيا مهما طال مُدَّته إلى زوال ، فَمنْ لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخاسرة ؛ لأنه لا يضمن أن يعيش فى الدنيا حتى متوسط الأعمار .. وهَبْ أنك عشْتَ فى الدنيا إلى متوسط الأعمار ، بل إلى أرذل العمر .. وهَبْ أنك استمتعتَ فى دنياك بكل أنواع المعاصى ، ماذا ستكون النهاية ؟ أنْ تفوتَ هذا كله إلى الموت .

قارن - إذن - حال هذا بمَنْ آمن بالله وآمن بالآخرة .. نقول لمَنْ لا يؤمن بالآخرة : دنياك مظنونة ، يمكن أن تعيش فيها ، أو يعاجلك الموت .. حتى مَنْ عاش إلى متوسط الأعمار ، فالنهاية إلى زوال .

وما نِلْتَ من مُتَع في دنياك أخذتها على قَدْر إمكاناتك أنت .

إذن : أنت أخذت صفقة محدودة غير مُتيقَّنة ، وتركتَ صفقة غير محدودة ومُتيقّنة .. أليستْ هذه الصفقة خاسرة ؟

أما مَنْ آمن بالآخرة فقد ربحتَ صفقتـه ، حيث اختار حياة ممتدة يجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات المنعِم سبحانه وتعالى .

إذن :

﴿مَثَلُ السَّوْءِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [النحل]

أى : الصفة شديدة السوء ، ذلك لأنهم خاسرون لا محالة .

وقوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى .. ﴿٦٠﴾﴾ [النحل]

لله الصفة العليا ، وكأن الآية تقول لك : اترك صفة السوء ، وخُذ الصفة الأعلى التـى تجد المتعة فـيها على قَدْر إمكانات الحق سـبحانه وتعالى .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل]

العزيـز أى : الذى لا يُغلَب على أمره ، فـإذا قيل : قد يـوجد مَنْ لا يُغلب على أمره .. نعم ، لكنـه سبحانه عـزيزٌ حكيم يستعمل القـهر والغلبة بحكمة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

عندنا هنا : الأخْذ والمؤاخذة .. الأخْذ : هو تحصيل الشيء واحتواؤه ، ويدل هذا على أن الآخذ له قدرةٌ على المستمسك بنفسه أو بغيره ، فمثلاً تستطيع حَمْل حصاة ، لكن لا تستطيع حمل حجر كبير ، وقد يكون شيئاً بسيطاً إلا أنه مربوط بغيره ومستمسك به فيُؤخَذ منه قوة .

فمعنى الأخذ : أن تحتوى الشيء ، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه فى ذاته ، أو استمساك غيره به ، وقد يكون الأخْذ بلا ذنب .

أما المؤاخذة فتعنى : هو آخذُ منك فأنت تأخذُ منه .. ومنه قَوْل أحدنا لأخيه « لا مؤاخذة » فى موقف من المواقف .. والمعنى : أننى فعلتُ شيئاً أستحق عليه الجزاء والمؤاخذة ، فأقول : لا تؤاخذنى .. لم أقصد .

لذلك ؛ فالحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

ولم يَقُلْ : يأخذ الناس .

وفى آية أخرى قال تعالى :

﴿ وَكَـذَٰلِكَ أَخْـذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَـذَ الْقُـرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَـةٌ إِنَّ أَخْـذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

لماذا أخذها الله ؟ أخذها لأنها أخذتْ منه حقوقه فى أن يكون إلهاً واحداً فأنكرتها ، وحقوقه فى تشريع الصالح فأنكرتها .

ويُبيِّن الحق سبحانه أن هذه المؤاخذة لو حدثت ستكون بسبب من الناس أنفسهم ، فيقول سبحانه :

﴿ بِظُلْمِهِم .. (٦١) ﴾ [النحل]

أول الظلم أنهم أنكروا الوحدانية ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

فكأنهم أخذوا من الله تعالى حقَّه فى الوحدانية ، وأخذوا من الرسول ﷺ ، فقالوا كذاب ، وأخذوا من الكتاب فقالوا « سحر مبين » .

كل هذا ظلم ..

فالحق تبارك وتعالى لو آخذهم بما أخذوا ، أخذوا شيئاً فأخذ الله شيئاً ، لو عاملهم هذه المعاملة ما ترك على ظهرها من دابة .

لذلك نجد فى آيات الدعاء :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

أى : أننا أخذنا منك يا ربّ الكثير بما حدث منّا من إسراف وتقصير وعمل على غير مقتضى أمرك ، فلا تؤاخذنا بما بدر منا .

فلو آخذ الله الناس بما اقترفوا من ظلم ..

﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

قد يقول قائل : الله عز وجل سيُؤاخذ الناس بظلمهم ، فما ذنب الدابة ؟ ماذا فعلت ؟ نقول : لأن الدابة خُلِقَتْ من أجلهم ، وسُخِّرتْ لهم ، وهى من نعم الله عليهم ، فليست المسألة إذن نكايةً فى الدابة ، بل فيمَنْ ينتفع بها ، وقد يُراد العموم لكل الخلق .

فإذا لم يؤاخذ الله الناس بظلمهم فى الدنيا فهل يتركهم هكذا ؟ لا بل :

﴿ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

هذا الأجل انقضاء دُنيا ، وقيام آخرة ، حتى لو لم يؤمنوا بالآخرة ، فإن الله تعالى يُمهلهم فى الدنيا ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور]

وقد يكون فى هذا الأجل المسمى خير للحق ، فكثير من الصحابة كانوا يدخلون المعارك ، ويُحبون أنْ يقتلوا أهل الكفر فلاناً وفلاناً ، ثم لا يتمكنون من ذلك ولا يصيبونهم ، فيحزنون لذلك .

ولكن أجَل هؤلاء لم يأتِ بَعْد ، وفى علم الله تعالى أن هؤلاء الكفار سيؤمنون ، وأن إيمانهم سينفع المسلمين ، وكان القدر يدّخرهم : إما أنْ يؤمنوا ، وإما أن تؤمنَ ذرياتهم .

وقد آمن عمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم . ومن هؤلاء الذين نَجَوْا كان خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

أى : إذا جاءت النهاية فلا تُؤخّر ، وهذا شيء معقول ، ولكن كيف : ولا يستقدمون ؟ إذا جاء الأجل كيف لا يستقدمون ؟ المسألة - إذن - ممتنعة مستحيلة .. كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك ؟ .. هذا لا يستقيم ، لكن يستقيم المعنى تماماً على أن :

﴿ وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

ليست من جواب إذا ، بل تم الجواب عند (ساعة) ، فيكون المعنى : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وإذا لم يجيء لا يستقدمون . والله أعلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ[1] أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. (٦٢) ﴾ [النحل]

---

(١) لا جرم : لا محالة ولا بُدّ وتحولت إلى معنى القسم . فصارت بمنزلة قولنا « حقاً » . [القاموس القويم ١/١٢١] .

الأليق أن الذى يُخرج لله يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله . فإذا أردت أن تتصدقَ تصدَّقْ بأحسن ما عندك ، أو على الأقل من أوسط ما عندك .. لكن أنْ تتصدَّق بأخسِّ الأشياء وأرذلها .. أن تتصدق مما تكرهه ، كالذى يتصدق بخبز غير جيد أوَ لحم تغيَّر ، أو ملابس مُهَلْهلة ، فهذا يجعل لله ما يكره[1] .

والحقيقة أن الناس إذا وثقوا بجزاء الله على ما يعطيه العبد لأعطَوْا ربهم أفضل ما يُحبون .. لماذا ؟ لأن ذلك دليلٌ على حبك للآخرة ، وأنك من أهلها ، فأنت تعمرها بما تحب ، أما صاحب الدنيا المحبُّ لها فيعطى أقل ما عنده ؛ لأن الدنيا فى نظره أهمّ من الآخرة .

وبهذا يستطيع الإنسان أنْ يقيسَ نفسه : أهو من أهل الآخرة ، أم من أهل الدنيا بما يعطى لله عز وجل ؟

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. (٦٢) ﴾ [النحل]

أى : مما ذكر فى الآيات السابقة من قولهم :

﴿ لِلَّهِ الْبَنَاتِ .. (٥٧) ﴾ [النحل]

وأن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً ، إلى غير ذلك من أقوالهم ، وجعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات ؛ لذلك :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) ﴾ [النحل]

والمسألة هنا ليستْ مسألة جَعْل البنات لله ، بل مُطْلق الجَعْل

---

(١) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾ [البقرة] .

منهم مردود عليهم ، فلو جعلوا لله ما يحبون من الذكْران ما تُقبَل منهم أيضاً ؛ لأنهم جعلوا لله ما لم يجعل لنفسه .

فالذين قالوا : عزير ابن الله . والذين قالوا : المسيح ابن الله . لا يُقبَل منهم ؛ لأنهم جعلوا لله سبحانه ما لم يجعلْه لنفسه ، فهذا مرفوض ، وذلك مرفوض ؛ لأننا لا نجعل لله إلا ما جعله الله لنفسه سبحانه .

فنحن نجعل لله ما نحب مما أباح الله ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

وقوله :

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨)﴾ [الإنسان]

ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ [الزخرف]

فلو كان له ولد لآمنتُ بذلك ، لكن الحقيقة أنه ليس له ولد .. إذن : ليست المسألة في جَعْل ما يكرهون لله بل في مُطْلَق الجعْل ، ذلك لأننا عبيد نتقرّب إلى الله بالعبادة ، والعابد يتقرّب إلى المعبود بما يحب المعبود أن يتقرّب به إليه ، فلو جعل الله لنفسه شيئاً فهو على العين والرأس ، كما في أمره أن ننفق مما نُحب ، ومن أجود ما نملك .

ولذلك قوله تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

رَاعِ حق الفقير وضرورة أنْ تجعله كنفسك ، لا يكُنْ هيِّناً عليك فتعطيه أردأ ما عندك .. والحق تبارك وتعالى لما أراد أن نتقرَّب إليه بالنُّسك وذَبْح الهَدْى والأضاحى قال :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج]

لأنك إذا علمتَ أنك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢) ﴾ [النحل]

الكذب : قضية ينطق بها اللسان ليس لها واقع فى الوجود ، أى مخالفة للواقع المشهود به من القلب .. ولماذا يشهد عليه القلب ؟

قالوا : لأنه قد يطابق الكلام الواقع ، ونحكم عليه مع ذلك بالكذب ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

بالله ، أهذه القضية صدْق أم لا ؟ إنها قضية صادقة .. أنت رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله .. فلماذا شهد عليهم الحق تبارك وتعالى أنهم (كاذبون) ؟

وفى أىِّ شىء هم كاذبون ؟

قالوا : الحقيقة أنهم صادقون فى قولهم : إنك لرسول الله ، ولكنهم كذبوا فى شهادتهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ۝١ ﴾ [المنافقون]

لأنهم لا يشهدون فعلاً ؛ لأن الشهادة تحتاج أنْ يُواطيءَ القلبُ اللسانَ ويسانده ، وهذه الشهادة منهم من اللسان فقط لا يساندها القلب .

الإنسان عُرْضة لأنْ يقول الصدق مرة والكذب مرة ، لكن هؤلاء بمجرد أن يقولوا (نشهد) فهم كاذبون ، وهذا معنى :

﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. ۝٦٢ ﴾ [النحل]

لأنهم حينما يقولون مثلاً : العزير ابن الله ، المسيح ابن الله ، الملائكة بنات الله . هذه كلها قضايا باطلة ليس لها واقع يوافق منطوق اللسان .. فالسنتهم تصف الكذب .

وإنْ أردتَ أن تعرف الكذب الذى لا يطابق الواقع فاستمع إليه فبمجرد أنْ يُقال تعلم أنه كذب .. مثل ما حدث مع مُسَيْلمة الذى ادَّعى النبوة ، مجرد أنْ قال : أنا نبى قلنا : مسيلمة الكذاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ .. ۝٦٢ ﴾ [النحل]

أى : أن الكذب فى قولهم (لهم الحسنى) فهذا اغترار وتمنٍّ على الله دون حق ، ومثل هذه المقولة فى سورة الكهف ، فى قصة أصحاب الجنتين ، يقول تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ ﴾

[الكهف]

فهذه مقولات ثلاث كاذبة .

قوله :

﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف]

هذه الأولى ، فكم من أشياء تغيَّرت ، ومَنْ يضمن لك بقاء ما أنت فيه ، والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[2] ﴿٢٠﴾﴾ [القلم]

الكذبة الثانية :

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]

فقد أنكر الساعة .

الكذبة الثالثة :

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]

وهذا هو الشاهد فى الآية هنا ، ففيها اغترار وتمنٍّ على الله دون حقٍّ ، كمن ادعوا أن لهم الحسنى ، وهم ليسوا أهلاً لها .

وفى موضع آخر تأتى نفس المقولة :

---

(١) الصَّرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

(٢) أى : احترقت فصارت سوداء مثل الليل . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صرم] .

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت]

وهكذا الإنسان في طَبْعه أنه لا يسأم من طلب الخير ، وكلما وصل فيه إلى مرتبة تمنّى أعلى منها ، يقنط إنْ مسَّه شر ، وإنْ رفع الله عنه ورحمه قال : هذا لي .. أنا أستحقه ، وأنا جدير به .. ألاَ قلتَ : هذا فضل من الله ونعمة ، ثم بعد ذلك هو يتمنى على الله الأماني ويقول :

﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت]

ويُرْوى أن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ مع ما أعطاه الله من المُلْك والعظمة أنه صعد يوماً سطح منزله ، فابتلاه الله بسِرْب من الجراد الذهب ، فحينما رآه داود جعل يجمع منه في ثوبه ، فقال له ربه : ألم أُغْنِك يا داود ؟ قال : نعم ولكن لا غِنَى لي عن فضلك[1] .

وقوله تعالى :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

لا جرم : أي حقاً أن لهم النار على ما تقدم منهم أن جعلوا لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم الكذب ، وهذه أفعال يستحقّون النار عليها .

وكلمة ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ منها جارم بمعنى مجرم ، فالمعنى : لا جريمة في عقاب هؤلاء ، لأنه لا يُقال على عقوبة الجريمة أنها

(١) أورده البخاري في صحيحه (٩٧٢) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولكن في حق أيوب عليه السلام وليس داود ، والله أعلم .

جريمة .. إذن : لها معنيان ، لا بُدّ أن لهم النار ، أو لا جريمة فى أن لهم النار جزاء أعمالهم .

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النحل]

جاءت فى كلمة مُفْرطون عدة قراءات[1] : مفرَطون ، مفرِطون ، مفرِّطون ، مفرَّطون . وجميعها تلتقى فى المعنى .

نحن حينما نصلى على جنازة مثلاً ، إذا كان الميت مكلّفاً نقول فى الدعاء له : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه .. اللهم إنْ كان مُحسناً فزِدْ فى إحسانه ، وإنْ كان مُسيئاً فتجاوز عن سيئاته » . فإنْ كان صغيراً غير مُكلّف قُلْنا فى الدعاء له « اللهم اجعله فرَطاً وذخراً »[2] . فما معنى فرَطاً هنا ؟

معناه : أن يكون الطفل فرَطاً لأبويه ومُقدّمة لهما إلى الجنة .. يمرُّ بين يدىْ والديْه ويسبقهما إلى الجنة ، وكأنه يقدم عليهما ليُمهد لهما الطريق ليغفر الله لهما .. إذن : معنى مُفْرطون أى مُقدَّمون . ولكن إلى النار .

---

(١) قراءة (مُفْرَطون) : قراءة أبى عبيدة والكسائى والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . ومعناه : متروكون منسيون فى النار .

– قراءة (مفرِطون) : قراءة نافع فى رواية ورش . وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس ، ومعناه : مسرفون فى الذنوب والمعصية أى : أفرطوا فيها .

– قراءة (مفرِّطون) : قراءة أبى جعفر القارىء . أى : مضيعون أمر الله . فهو من التفريط فى الواجب . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٨٤٦] .

(٢) أورد البخارى فى صحيحه (٣/٢٠٣ - فتح البارى) كتاب الجنائز - باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة من قول الحسن البصرى : « يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب . ويقول : اللهم اجعله لنا فرطاً وسلفاً وأجراً » .

ومنه قوله تعالى عن فرعون :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود]

أى : يتقدمهم إلى النار .. كما كنتَ مُقدّماً عليهم ، وإماماً لهم فى الدنيا ، فسوف تتقدمهم هنا وتسبقهم إلى النار .

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يُقسِم بما يشاء على ما يشاء ، أما نحن فلا نقسم إلا بالله ، وفى الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت »(١) .

والحق تبارك وتعالى هنا يحلف بذاته سبحانه ﴿ تَاللَّهِ ﴾ ، مثل : والله وبالله .

وقد جاء القسم لتأكيد المعنى ؛ ولذلك يقول أحد الصالحين : من أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟!

وقد يؤكد الحق سبحانه القسم بذاته ، أو القسم ببعض خَلْقه ، وقد ينفى القسم وهو يُقسِم ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) ﴾ [البلد]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله ﷺ : « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

وقوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : لا أقسم أن هذا الأمر واضح جليّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مُقسماً لأقسمتُ به ، بدليل قوله :

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : الحق سبحانه يُقسم بذاته ليؤكد لنا الأمر تأكيداً ، وتأكيد الأمر عند الحكم في القضاء مثلاً : إما بالإقرار ، وإما باليمين .. فإذا ما أقسمت له وحلفتَ فقد سددْتَ عليه منافذ التكذيب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ .. (٦٣) ﴾ [النحل]

أي : لستَ بِدْعاً في أنْ تُكذَّب من قومك ، فهذه طبيعة الذين يستقبلون الدعوة من الله على ألسنة الرسل ؛ لأن الرسل لا يرسلهم الله إلا حينما يطمّ الفساد ويعُم .

ومعنى إرسال الرسل ـ إذن ـ أنه لا حَلّ إلا أنْ تتدخلَ السماء ؛ ذلك لأن الإنسان فيه مناعات يقينية في ذاته ، وهي نفسه اللوامة التي تلومه إذا أخطأ وتُعدِّل من سلوكه ، فهي رادع له من نفسه .

فإذا ما تبلَّدتْ هذه النفس ، وتعوَّدتْ على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمة ، فمَنْ لا تُردعه نفسه اللوامة يُردعه المجتمع من حوله .. فإذا ما فسدَ المجتمع أيضاً ، فماذا يكون الحل ؟ الحل أن تتدخل السماء لإنقاذ هؤلاء .

إذن : تتدخل السماء بإرسال الرسل حينما يعُمّ الفسادُ المجتمعَ

كله ؛ ولذلك فأمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها أنْ قال لهم : أنتم مأمونون على رعاية منهجي في ذواتكم ، لوَّامون لأنفسكم ، آمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر في غيركم ؛ لذلك لن أرسل فيكم رسولاً آخر ، فأنتم سوف تقومون بهذه المهمة .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ.. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

فقد أمن أمة محمد ﷺ على أن تكون حارسة لمنهجه ، إما بالنفس اللوامة ، وإما بالمجتمع الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر ، وهذا شرف عظيم لهذه الأمة .

إذن : يأتي الرسول حينما يعُمُّ الفساد .. فما معنى الفساد ؟ .. الفساد : أن تُوجد مصالح طائفة على حساب طائفة أخرى ، فأهل الفساد والمنتفعون به إذا جاءهم رسول ليُخلِّص الناس من فسادهم ، كيف يقابلونه ؟ أيقابلونه بالترحاب ؟ بالطبع لا .. لا بُدّ وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار ، ويعلنوا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم .

ويُتبع الحق سبحانه هذا بقوله :

﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ.. (٦٣) ﴾ [النحل]

هنا يتدخل الشيطان ، ويُزيِّن لأهل الفساد أعمالهم ، ويحثُّهم على محاربة الرسل ؛ فهؤلاء الذين سيقضون على نفوذكم ، سوف يأخذون ما في أيديكم من مُتَع الدنيا ، سوف يهزُّون مراكزكم ،

ويحطون من مكانتكم بين الناس .. هؤلاء سوف يرفعون عليكم السفلة[1] والعبيد ..

وهكذا يتمسك أهل الفساد والظلم بظلمهم ، ويعضون عليه بالنواجذ ، ويقفون من الرسل موقف العداء ، فوطّنْ نفسك على هذا ، فلن تُقابلَ من السادة إلا بالجحود وبالإنكار وبالمحاربة .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ..(٦٣) ﴾ [النحل]

أي : في الآخرة ، فما دام الشيطان تولاَّهم في الدنيا ، وزيَّن لهم ، وأغراهم بعداء الرسل ، فَلْيتولَّهم الآن ، وليدافع عنهم يوم القيامة .. وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر]

وفي جدالهم يوم القيامة مع الشيطان يقولون له : أنت أغويتَنا وزيَّنْتَ لنا .. ماذا يقول ؟ يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم..(٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان هنا : إمّا بالحجة التي تُقنع ، وإما بالقهر والغلبة والقوة التي تفرض ما تريد ، وليس للشيطان شيء من ذلك .. لا يملك حُجة يُقنعك بها لتفعل ، ولا يملك قوة يُجبركَ بها أنْ تفعل وأنت كاره .

---

(١) السفلة : نقيض العِلْية . وهم أراذل الناس وغوغاؤهم . [لسان العرب - مادة : سفل] .

وهكذا يجادلهم الشيطان ويردُّ عليهم دعواهم ، فليس له عليكم سلطان ، بل مجرد الإشارة أوقعتْكم في المعصية .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ[1] عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (٤٨) ﴾ [الأنفال]

وقوله :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾ [النحل]

يَصف العذاب هنا بأنه أليم شديد مُهلك ، وقد وصف الله العذاب بأنه أليم ، عظيم ، مُهين ، شديد .. والعذاب شعور بالألم وإحساسٌ به ، وقد توصَّل العلماء إلى أن الإحساس كله في الجلد ؛ لذلك قال الحق سبحانه ليُديمَ على هؤلاء العذاب :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾

---

(١) نكص : رجع وأحجم بعد إقدام . أي : رجع الشيطان متقهقراً إلى الوراء معلناً براءته من المشركين في بدر بعد أن أغراهم بالقتال . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

فالكتاب هو القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل]

دليل على أن أتباع الرسل السابقين نشأ بينهم خلاف ، فأىُّ خلاف هذا طالما أنهم تابعون لنبى واحد ؟ ما سببه ؟

قالوا : سبب هذا الخلاف ما يُسمُّونه بالسلطة الزمنية .. ولتوضيح معنى السلطة الزمنية نضرب مثلاً بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، فلما مات تنازع الخلافة أبناؤه من بعده .. كُلٌّ يريدها له ، وأخذ يجمع حوله مجموعة من أتباع أبيه .. فلو كانت مسألة الخلافة هذه واضحة فى أذهانهم ما حدث هذا الخلاف .

وكذلك السلطة الزمنية حدثت فى أتباع الرسل الذين أخذوا يكتبون الصكوك ، ويذكرون ما يحبون وما يرونه صواباً من وجهة نظرهم ، كل هؤلاء كان لهم نفوذ بما نُسميه السلطة الزمنية .

فكيف - إذن - يتركون محمداً ﷺ يأخذ منهم هذه السلطة ، ويُضيع عليهم ما هم فيه من سيادة ، فقد جاء الرسول ﷺ لِيُبيِّن لهم . أى : يردّهم إلى جادّة الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل]

الهدى : معناه بيان الطريق الواضح للغاية النافعة ، والطريق

لا يكون واضحاً إلا إذا خلا من الصِّعاب والعقبات ، وخلا أيضاً من المخاوف ، فهو طريق واضح مأمون سهل ، وأيضاً يكون قصيراً يُوصِّلك إلى غايتك من أقصر الطرق .

وضد الهدى : الضلال . وهو أنْ يُضلّك ، فإنْ أردتَ طريقاً وجَّهك إلى غيره ، ودلّك على سواه ، أو دلّك على طريق به مخاوف وعقبات .

أما الرحمة ، فقد وصف الحق تبارك وتعالى القرآن بأنه رحمة فقال :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

فكيف يكون القرآن شفاءً ؟ وكيف يكون رحمة ؟

الشفاء : إذا أصابنا داء ربنا سبحانه وتعالى يقول : طبِّبوا داءكم وداووا أمراضكم بكذا وكذا ، ورُدُّوا الحكم إلى الله .. هذا شفاء .

أما الرحمة : فهي أن يمنع أن يأتي الداء مرة أخرى ، فتكون وقاية تقتلع الداء من أصله فلا يعود .

ومثل هذا يحدث في عالم الطب ، فقد تذهب إلى طبيب ليُعالجك من داء معين .. بثور في الجلد مثلاً ، فلا يهتم إلا بما يراه ظاهراً ، ويصف لك ما يداوي هذه البثور .. ثم بعد ذلك تُعاودك مرة أخرى .

أما الطبيب الحاذق الماهر فلا ينظر إلى الظاهر فقط ، بل يبحث عن سببه في الباطن ، ويحاول أن يقتلع أسباب المرض من جذورها ، فلا تُعاودك مرة أخرى .

ولذلك ، لو نظرنا إلى قصة أيوب ـ عليه السلام ـ وما ابتلاه الله به نرى فيها مثالاً رائعاً لعلاج الظاهر والباطن معاً ، فقد ابتلاه ربُّه ببلاء ظهر أثره على جسمه واضحاً ، ولما أذن له سبحانه بالشفاء قال له :

﴿ ارْكُضْ[1] بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص]

(مُغْتَسَلٌ) : أى . يغسل ويُزيل ما عندك من آثار هذا البلاء .

(وَشَرَابٌ) : أى . شراب يشفيك من أسباب هذا البلاء فلا يعود .

وكذلك الحال فى علاج المجتمع ، فقد جاء القرآن الكريم وفى العَالَم فساد كبير ، وداءاتٌ متعددة ، لا بُدَّ لها من منهج لشفاء هذه الداءات ، ثم نعطيها مناعاتٍ تمنع عودة هذه الداءات مرة أخرى .

وقوله تعالى :

﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن هذا القرآن فيه هدى ورحمة لمَنْ آمن بك وبرسالتك ؛ لأن الطبيب الذى ضربناه مثلاً هنا لا يعالج كل مريض ، بل يعالج مَنْ وثق به ، وذهب إليه وعرض عليه نفسه ففحصه الطبيب وعرف علّته .

وهكذا القرآن الكريم يسمعه المؤمن به ، فيكون له هدًى ورحمة ،

---

(١) الركض : الضرب بالرجل وتحريكها . قال تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص] أى : اضرب بها . [لسان العرب ـ مادة : ركض ، والقاموس القويم ١/ ٢٧٥] .

ويترك في نفسه إشراقات نورانية تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدرجات ، في حين يسمعه آخر فلا يَعي منه شيئاً ، ويقول كما حكى القرآن الكريم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت]

﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، ولكن الاستقبال مختلف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينقلنا إلى آية مادية مُحسّة لا ينكرها أحد ، وهي إنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر ؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته تعالى ، وأنه مأمون على خَلْقه .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إذا كنتُ أنا أعطيكم كذا وكذا ، وأوفّر لكم الأمر المادي الذي يفيد عنايتي بكم ، فإذا أنزلتُ لكم منهجاً ينفعكم ويُصلح أحوالكم فصدّقوه .

---

(١) الوقر : ثقل في السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] ومعناه في الآية أنهم لا يفهمون ما فيه كأن في آذانهم صمماً أو ثقلاً في السمع . [انظر ابن كثير ٤/١٠٣] .

فهذا دليل مادىّ مُحَسّ يُوصلُهم إلى تصديق المنهج المعنوى الذى جاء على يد الرسول ﷺ فى قوله تعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.. ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل]

هذه آية كونية مُحسَّة لا ينكرها أحد .

ثم يقول : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل]

موت الأرض ، أى حالة كَوْنها جدباء مُقفرة لا زرعَ فيها ولا نبات ، وهذا هو الهلاك بعينه بالنسبة لهم ، فإذا ما أجدبتْ الأرض استشرفوا لسحابة ، لغمامة ، وانتظروا منها المطر الذى يُحيى هذه الأرض الميتة .. يُحييها بالنبات والعُشْب بعد أنْ كانت هامدة ميتة .

فلو قبض ماء السماء عن الأرض لَمُتُّمْ جوعاً ، فخذوا من هذه الآية المحسَّة دليلاً على صدق الآية المعنوية التى هى منهج الله إليكم على يد رسوله ﷺ ، فكما امتنَنْتُ على الأولى فأمَنُّ على الثانية .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل]

مع أن هذه الآية تُرَى بالعين ولا تُسْمع ، قال القرآن :

﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل]

.. لماذا ؟

قالوا : لأن الله سبحانه أتى بهذه الآية ليلْفتَهم إلى المنهج الذى سيأتيهم على يد الرسول ﷺ ، وهذا المنهج سيُسمع من الرسول المبلِّغ لمنهج الله .

ومثال ذلك أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص]

فالضياء يُرى لا يُسمع .. لكنه قال : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لأنه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك فى الليل هى السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ[2] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾

الكون الذى خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل فى الأرض والجبال والمياه وغيرها ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفى الآية السابقة أعطانا الحق - تبارك وتعالى - نموذجاً للجماد الذى اهتزّ بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً .. (٦٦) ﴾ [النحل]

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

(٢) الفرث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كريه الرائحة . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

المقصود بالأنعام : الإبل والبقر والغنم والماعز ، وقد ذُكِرتْ في سورة الأنعام في قوله تعالى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤) ﴾ [الأنعام]

هذه هي الأنعام .

وقوله سبحانه : ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ العِبْرة : الشيء الذي تعتبرون به ، وتستنتجون منه ما يدلكم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدْق منهجه سبحانه فتصدقونه .

ومن معاني العبرة : العبور والانتقال من شيء لآخر .. أي : أن تأخذ من شيء عبرة تفيد في شيء آخر . ومنها العَبْرة (الدمعة) ، وهي : شيء دفين نبهْتَ عنه وأظهرتَهُ .

والمراد بالعبرة في خلق الأنعام :

﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾ [النحل]

مادة : سقي جاءت في القرآن مرة « سقىٰ » . ومرة « أسقىٰ » ، وبعضهم[1] قال : إن معناهما واحد ، ولكن التحقيق أن لكل منهما

---

(١) من هؤلاء ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : سقي . قال : وفي القرآن : ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا .. (٤٩) ﴾ [الفرقان] من سقى . ونُسقيه من أسْقى . وهما لغتان بمعنى واحد .

معنًى ، وإن اتفقا في المعنى العام[1]

سقى : كما في قوله تعالى :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان]

أي : أعطاهم ما يشربونه .. ومضارعه يَسقي . ومنها قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص]

أما أسقى : كما في قوله تعالى :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس في حال نزوله ، ولكن ليكون في الأرض لمن أراد أنْ يشربَ .. فالحق تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه .. لا .. بل هو مخزون في الأرض لمن أراده . والمضارع من أسْقى : يُسقي .

إذن : هناك فَرْق بين الكلمتين ، وإن اتفقتا في المعنى العام .. وفرْق بين أن تُعطي ما يُستفَادُ منه في سَاعته ، مثل قوله :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان]

وبين أنْ تعطي ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما في قوله :

---

(١) قاله الفراء فيما نقله عنه ابن منظور في اللسان : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم « أسقيت » . فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا « سقاه » ولم يقولوا : أسقاه . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

لذلك يقولون : إن الذى يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطى المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ، وقد يصنعه مُؤجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسْب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسْبه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا هذه الفكرة فى سورة الكهف ، فى قصة ذى القرنين ، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) ﴾ [الكهف]

فما داموا لا يفقهون قَوْلاً .. فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا :

﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

نقول : الذى يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أنْ يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصّل إلى طريقة للتفاهم معهم ، فى حين أنه كان قادراً على ترْكهم والانصراف عنهم ، وحُجّته أنهم لا يفقهون ولا يتكلمون .

فلما أراد ذو القرنين أن يبنى لهم السد لم يَبْنِ هو بنفسه ، بل علّمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ، ولا يحتاجون إليه .. فقال :

---

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/١٨٩] .

﴿آتُونِي زُبَرَ[1] الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف]

إذن : علّمهم وأحسن إليهم إحساناً دائماً لا ينتهى .

وقوله : ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ..(٦٦)﴾ [النحل]

أى : مما فى بطون الأنعام ، فقد ذكّر الضمير فى (بطونه) باعتبار إرادة الجنس .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ..(٦٦)﴾ [النحل]

والفَرْث فى كرش الحيوان من فضلات طعامه .

فالعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرْث ، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطعام فى كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنفّر ، ومن بين دم ، والدم له لونه الأحمر ، وهو أيضاً غير مُسْتساغ ؛ ومنهما يُخرِج لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة الفَرْث .

ومَنْ يقدر على ذلك إلا الخالق سبحانه ؟

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]

---

(١) زُبر الحديد : قطعه . الصدفان : الجبلان وقيل : ما بينهما . أى : وضع بعضه على بعضه من الأساس حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً قال انفخوا . والقطر : النحاس المذاب . [قاله فى تفسير ابن كثير ٣/١٠٤] .

أى : يسيغه شاربه ويستلذ به ، ولا يُغَصُّ به شاربه ، بل هو مُستَساغ سَهْل الانزلاق أثناء الشُّرْب ؛ لأن من الطعام أو الشراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء]

هنيئاً أى : تستلذُّون به ، ومريئاً : أى نافعاً للجسم ، يمرى عليك ؛ لأنك قد تجد لذة فى شىء أثناء أكْلِه أو شُرْبه ، ثم يسبِّب لك متاعب فيما بَعْد ، فهو هَنِىءٌ ولكنه غير مَرِىء .

فاللبن من نعَم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفى إخراجه من بين فَرْث ودم عِبرة وعظة ، وكأن الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسىِّ الذى نشاهده إلى المعنى القيمىِّ فى المنهج ، فالذى صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قالبنا قادرٌ على أن يصنعَ لنا من المنهج ما يُصلِح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثمرات النخيل هى : البلح . والأعناب هو : العنب الذى نُسمِّيه الكَرْم . والتعبير القرآنى هنا وإن امتنَّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكراً : أى مُسْكِراً ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرةً فقد نزلتْ هذه الآيات قبل تحريم الخمر .

وكأن الآية تحمل مُقدّمة لتحريم الخمر الذى يستحسنونه الآن ويمتدحونه ؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذى يقرأ هذه الآية بفطنة المستقبِل عن الله يعلم أن لله حُكْماً فى السُّكر سيأتى .

كيف توصّلوا إلى أن لله تعالى حُكْماً سيأتى فى السُّكر ؟

قالوا : لأنه قال في وصف الرزق بأنه حسن ، فى حين لم يَصفْ السُّكر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسناً ؛ ذلك لأننا نأكل ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون تدخُّل منّا فيما خلق الله لنا .

أما أنْ نُغيّر من طبيعته حتى يصير خمراً مُسْكراً ، فهذا إفساد فى الطبيعة التى اختارها الله لنا لتكون رزقاً حَسناً .

وكأنه سبحانه يُنبّه عباده ، أنَا لا أمتنُّ عليكم بما حرّمْتُ ، فأنا لم أحرِّمه بَعْد ، فاجعلوا هذا السُّكر ـ كما ترونه ـ متعةً لكم ، ولكن خذوا منه عبرة أنِّى لم أصفْه بالحُسْن ؛ لأنه إنْ لم يكُنْ حَسَناً فهو قبيح ، فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الأمر .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [النحل]

لأن العقل يقتضى أنْ نُوازنَ بين الشيئين ، وأن نسأل : لماذا لم يوصف السُّكر بأنه حَسَن ؟ .. أليس معناه أن الله تعالى لا يحب هذا الأمر ولا يرضاه لكم ؟

إذن : كان فى الآية نيّة التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر كان هذا تمهيداً له .

والآية هى : الأمر العجيب الذى يُنبئكم أن الله الذى خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيكم وقوالبكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرِّع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمية الروحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

النحل خَلْق من خَلْق الله ، وكل خَلْق لله أودع الله فيه وفى غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

أى : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حَسْب ما يتناسب مع طبيعته ؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف .. فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حدِّ التُّخْمة ، ثم بعد ذلك يشتكى مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإنْ أجبرته على الأكل ؛ ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للغريزة فى الحيوان بالحمار الذى يتهمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سُقْتَه ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة .. فإذا ما وجدها فى مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع

ولم يُقدِم عليها ، وإنْ ضربتَه وصِحْتَ به .. فلا تستطيع أبداً إجباره على شيء فوق قدرته .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التى جعلها الله سبحانه فيه ، على خلاف الإنسان الذى يفكر فى مثل هذه الأمور ليختار منها ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ، فنستطيع أن نُشبِّه هذه الغريزة فى الحيوان بالعقل الألكترونى الذى لا يعطيك إلا ما غذَّيْته به من معلومات .. أما العقل البشرى الربانى فهو قادر على التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ.. ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى قد يمتنّ على بعض عباده ويُعلِّمهم لغة الطير والحيوان ، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما فى قصة سليمان عليه السلام[1] .. والله سبحانه الذى خلقها وأبدعها يُوحِى إليها ما يشاء .. فما هو الوحى ؟

الوحى : إعلام من مُعلِم أعلى لمُعلَّم أدنى بطريق خفىّ لا نعلمه نحن ، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وَحْياً .

فالوَحْى إذنْ يقتضى : مُوحِياً وهو الأعلى ، ومُوحَىً إليه وهو الأدْنى ، ومُوحَى به وهو المعنىّ المراد من الوَحْى

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل]
وقد قال تعالى عن سليمان وجنوده : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل].

والحق ـ تبارك وتعالى ـ له طلاقة القدرة فى أنْ يُوحى ما يشاء لما يشاء من خَلْقه .. وقد أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجماد فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

أعلمها بطريق خفيّ خاص بقدرة الخالق فى مخلوقه .

وهنا أوحى سبحانه إلى النحل .

وأوحى الله إلى الملائكة :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

وأوحى إلى الرسل :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ.. (١٦٣) ﴾ [النساء]

وأوحى إلى المقربين من عباده :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي.. (١١١) ﴾ [المائدة]

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم

وأوحى سبحانه إلى أم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ⦗٧⦘ ﴾ [القصص]

هذا هو وَحْى الله إلى ما يشاء من خَلْقه : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقرَّبين ، إلى أم موسى ، إلى النحل .. إلخ .

وقد يكون الوحى من غيره سبحانه ، ويُسمَّى وَحْياً أيضاً ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. ⦗١٢١⦘ ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً .. ⦗١١٢⦘ ﴾ [الأنعام]

لكن إذا أُطلقَتْ كلمة (الوَحْى) مُطْلقاً بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحى من الله إلى الرسل ؛ لذلك يقول علماء الفقه : الوحى هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتركون الأنواع الأخرى : وَحْى الغرائز ، وَحْى التكوين ، وَحْى الفطرة .. إلخ .

وقوله : ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⦗٦٨⦘ ﴾ [النحل]

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القِدَم ، ومن هؤلاء باحث تتبَّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصَّل إلى أنَّ النحل أول ما وُجِد عاش فى الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التى صنعها له البشر ، وهى ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووَجْه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصَّل إلى أن أقدمَ أنواع العسل ما وُجِد في كهوف الجبال ، وقد تَوصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصّل إلى عمره .. وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفيّ لا نعلمه نحن ، وعملية الوحي تختلف باختلاف الموحِي والموحَى إليه ، ويمكن أنْ نُمثِّل هذه العملية بالخادم الفَطِن الذي ينظر إليه سيده مُجرد نظرة فيفهم منها كل شيء : أهو يريد الشراب ؟ أم يريد الطعام ؟ أم يريد كذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا[1] يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

علّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكلَ النحل من كُلِّ الثمرات ؛ ذلك لأن تنوُّع الثمرات يجعل العسل غنيّاً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء في الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث ؟ نرى بعض الناس يقول : أكلتُ كثيراً من

(١) ذللاً : أي ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم ١/٢٤٥] .

العسل ، ولم أشعر له بفائدة .. نقول : لأننا تدخلنا في هذه العملية ، وأفسدنا الطبيعة التي خلقها الله لنا .. فالأصل أن نترك النحل يأكل من كُلّ الثمرات .. ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزَّهْر والنوار الطبيعي ، ولذلك تغيَّر طَعْم العسل ، ولم تَعُدْ له مَيْزته التي ذكرها القرآن الكريم .

لذلك ؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً في سعره بين نوع وآخر ، ذلك حَسْب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التي حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل]

أي : تنقّلي حُرَّة بين الأزهار هنا وهناك ؛ ولذلك لا نستطيع أنْ نبنيَ للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بُدَّ له من التنقُّل من بستان لآخر ، فإذا ما جَفَّتْ الزراعات يتغذَّى النحل من عسله ، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئاً ، ويضعون مكانه السكر ليتغذَّى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى : ﴿ ذُلُلاً .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل]

أي : مُذلَّلة مُمهّدة طيِّعة ، فتخرج النحلة تسعى في هذه السُّبل ، فلا يردها شيء ، ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيت شجرة مثلاً رَدَّتْ نحلة ؟!.. لا .. قد ذَلَّلَ الله لها حياتها ويسَّرها .

ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّلَ لنا سُبُل الحياة .. وذلَّل لنَا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .. فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبى الصغير ، ويتحكَّم فيه يُنيخه ، ويُحمّله الأثقال ، ويسير به كما أراد ، فى حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه .. وما تحكّم فيه الصبى الصغير بقوته ، ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صغَر حجمه يمثّل خطراً يفزع منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذلّله لنا ، فأفزعنا على صغَر حجمه .. كذلك لو تأملنا البرغوث مثلاً .. كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقضّ مضاجعنا ، ويحرمنا لذة النوم فى هدوء .. فهل يستطيع أحدٌ أنْ يُذلّل له البرغوث ؟!

وفى ذلك حكمة بالغة وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذللتُ لكم شيئاً ، ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أُذلّله لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .. إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خُذْها كما خلقها الله لك .

﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا .. (٦٩) ﴾ [النحل]

ذلك أن النحلة تمتصّ الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم فى بطنها عملية طَهْى ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهْداً مُصفّى ؛ لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تتقيؤه كما هو .. فلم يَقُلْ القرآن : من أفواهها ، بل قال : من بطونها .. هذا المعمل الإلهى الذى يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل]

ما دام النحل يأكل من كُلِّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءاتٌ مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طُعومها وروائحها .. إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل]

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزاهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجرْون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعي كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخُّل الإنسان في غذاء النحل بقيت فيه فائدة ، وبقيت فيه صفة الشفاء ، وأهمها امتصاص المائية من الجسم ، وأيّ ميكروب تريد أنْ تقضيَ عليه قُمْ بامتصاص المائية منه يموت فوراً .

فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعي الذي خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء ، ولكن إذا تدخَّل الإنسان في هذه العملية أفسدها .. فالكون كله الذي لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيْراً مستقيماً لا يتخلّف ، كالشمس والقمر والكواكب .. إلخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذي يخرج عن منهج الله .

فالشيء الذي لك دَخْلٌ فيه ، إما أنْ تتدخَّل فيه بمنهج خالقه أو تتركه ؛ لأنك إذا تدخلْتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير ، وإنْ تدخلْتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾ [البقرة]

إنهم لا يعرفون .. لا يُفرِّقون بين الفساد والصلاح .

وفى القرآن أمثلة للناس الذين يُفسدون فى الأرض ويحسَبون أنهم يُحسنون صُنْعاً ، يقول تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

فالذى اخترع السيارة وهذه الآلات التى تنفث سمومها وتُلوِّث البيئة التى خلقها الله .. صحيح وفَّر لنا الوقت والمجهود فى الحمل والتنقُّل ، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عَطَب بسبب هذه الآلات .. انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان .

كان يجب على مخترع هذه الآلات أنْ يوازنَ بين ما تؤديه من منفعة وما تُسبِّبه من ضرر ، وأضف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مُروِّعة تزهق بسببها الأرواح .. وبالله هل رأيت أن تصادمَ جملان فى يوم من الأيام .. فلا بُدَّ إذن أن نقيسَ المنافع والأضرار قبل أنْ نُقدِم على الشيء حتى لا نُفسِد الطبيعة التى خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ .. (٦٩) ﴾ [النحل]

الناس : جَمْعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب

الداءات ، فكيف يكون فى هذا الشراب شفاءٌ لجميع الداءات على اختلاف أنواعها ؟.. نقول : لأن هذا الشراب الذى أعدّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه .. من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر .. ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس ، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس ، وتنوّع الداءات عندهم .. وكأن كل عنصر منه يُداوِى داءً من هذه الدَّاءات .

وقوله تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل]

التفكّر : أنْ تُفكِّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده ، وبذلك تُثرى المعلومات ؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحى ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء ؛ لأن الارتقاءات التى نراها فى الكون هى نتيجة التفكُّر وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألاّ نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار .. يقول تعالى :

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

ففى الآية حَثٌّ على التفكّر فى ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذى اخترع الآلة البخارية .. كيف توصل إلى هذا الاختراع الذى أفاد البشرية ؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القِدْر الذى يغلي على النار يرتفع غطاؤه مع بخار الماء المتصاعد أثناء الغليان .. فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء ؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصّل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة فى تسيير ودفع العربات .

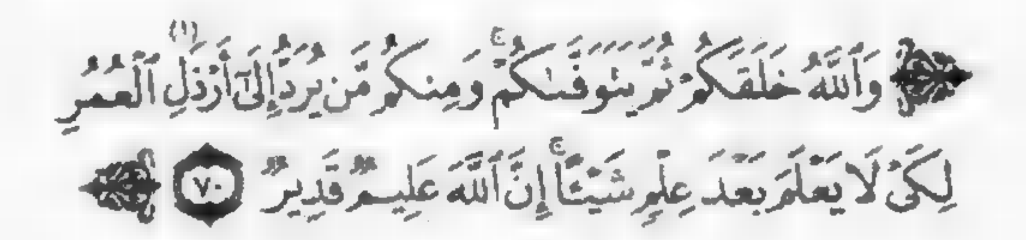
وكذلك أرشميدس - وغيره كثيرون - توصلوا بالاعتبار والتفكُّر فى ظواهر الكون ، إلى قوانين فى الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة نتمتع نحن بها الآن ، فالذى اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان فى حَمْل الأثقال ؟ وما أقصى ما يمكن أنْ يحمله ؟ فبعد أنْ اخترعوا العجلات واستُخدمت فى الحمل تمكّن الإنسان من حَمْل وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذى اخترع خزانات المياه .. كم كانت المشقة فى استخراج الماء من البئر ؟ أو من النهر ؟ فبعد عمل الخزانات وضَخّ المياه أصبحنا نجد الماء فى المنازل بمجرد فَتْح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبّر ، وحينما يُفكّر فى ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التى خلقها الله وحثّنا على التفكّر فيها والاستنباط منها .. وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإنْ أردتُم ترفَ الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدبّر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لَفْتة أخرى .. وهى أنه سبحانه يجعل

من المحسَّات ما يُقرِّب لنا المعنويَّات ليلفتنا إلى منهجه سبحانه ؛ ولذلك ينقلنا هذه النُّقْلة من المحسوس إلى المعنوى ، فيقول تعالى :



قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يَدَّعها أحدٌ لنفسه ، وقد أمدَّكم بمقوِّمات حياتكم فى الأرض والنبات والحيوان ، الأنعام التى تعطينا اللبن صافياً سليماً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذى فيه شفاء للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مُقوِّمات الحياة ، وأعطانا ما يُزيل معاطبَ الحياة .. وما دُمْتم صدَّقتم بهذه المحسَّات فاسمعوا :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعترف أن الله خلقنا ، ولكنْ كيف خلقنا ؟ هذه لا نعرفها نحن ؛ لأنها ليستْ عملية معملية .. فالذى

---

(١) أرذل العمر : هو الذى يَخْرف من الكِبَر حتى لا يعقل ، وبيَّنه بقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥) ﴾ [الحج] . [لسان العرب ـ مادة : رذل] . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أرذل العمر : خمس وسبعون سنة [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٤٦/٥] .

خلق هو الحق سبحانه وحده ، وهو الذى يُخبرنا كيف خلق .. أما أنْ يتدخَّل الإنسان ويُقحِمَ نفسه فى مسألة لا يعرفُها ، فنرى مَنْ يقول : إن الإنسان أصلُه قرد .. إلى آخر هذا الهُراء الذى لا أصْلَ له فى الحقيقة .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول لنا : إذا أردتُمْ أنْ تعرفوا كيف خُلقْتُم فاسمعوا ممَّنْ خلقكم .. إياكم أنْ تسمعوا من غيره ؛ ذلك لأننى :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

هذه عملية لم يُطلع الله عليها أحداً : .

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

أى : ما اتخذتُ مساعداً يعاوننى فى مسألة الخَلْق .

وما هو المضلّ ؟ المضِلّ هو الذى يقول لك الكلام على أنه حقيقة ، وهو يُضلُّك .

إذن : ربنا سبحانه وتعالى هنا يعطينا فكرة مُقدّماً : احذروا ، فسوف يأتى أناس يُضلونكم فى موضوع الخَلْق ، وسوف يُغيِّرون الحقيقة ، فإياكم أنْ تُصدِّقوهم ؛ لأنهم ما كانوا معى وقت أنْ خلقتكم فيدَّعُون العلم بهذه المسألة .

ونفس هذه القضية فى مسألة خَلْق السموات والأرض ، فالله سبحانه هو الذى خلقهما ، وهو سبحانه الذى يُخبرنا كيف خلق .

فحين يقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ..(٧٠) ﴾ [النحل]

فعلينا أن نقولَ : سَمْعاً وطاعة ، وعلى العين والرأس .. يا ربِّ أنت خلقتنا ، وأنت تعلم كيف خلقتنا ، ولا نسأل فى هذا غيرك ، ولا نُصدِّق فى هذا غير قَوْلك سبحانك .

ثم يقول تعالى :

﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ..(٧٠) ﴾ [النحل]

أى : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع .. وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين ؛ فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين ؛ لأنه لا يليق بك ذلك ، فأنت منه وإليه .. فلماذا التمرد ؟

ربُّنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه فى أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين فى بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمر ، أى : يعيش عمراً طويلاً .. وماذا فى أرذل العمر ؟!

يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أنْ كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتالاً ، يُرَدُّ إلى الضَّعْف فى كل شىء ، حتى فى أَمْيز شىء فى تكوينه ، فى فكره ، فبعد العلْم والحفْظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شىء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتيةً فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولنعلم أنه سبحانه حينما يقضي علينا بالموت فهذا رحمة بنا وستْر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعيننا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنّا نأمره .

ومن هنا كان التوفّي نعمةً من نِعَم الله علينا ، ولكي نتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدّ الله في أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن « أرذل العمر » وما يعانونه من ضعف وما يعانيه ذووهم في خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذي قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُستبشراً بالموت ؛ لأنه عمّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذي لم يُعِدّ العُدّة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزِعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْف للعطف يفيد الترتيب مع التراخي .. أي : مرور وقت بين الحدثين .. فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدَث الثاني (يتوفّاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أي : تتابع الحدثين ، كما في قوله تعالى :

﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ﴾ [عبس]

فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى :

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ..(٧٠)﴾ [النحل]

وأرذل العمر : أردؤه وأقله وأخسُّه ؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، فقال :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ..(٧٨)﴾ [النحل]

وهذه هي وسائل العلم في الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أرذل العمر فقدتْ هذه الحواسّ قدرتها ، وضَعُفَ عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخَرف والهرم ، فقد توقفتْ آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ..(٧٠)﴾ [النحل]

لذلك يُسمُّون هذه الحواس الوارث[1] .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)﴾ [النحل]

لأنه سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلّب عِلْماً ، كما قال سبحانه :

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ .. (١٤)﴾ [الملك]

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : « اللهم أمتعني بسمعي وبصري ، واجعلهما الوارث مني » قال ابن شميل : أي أبقهما معي صحيحين سليمين حتى أموت . [لسان العرب ـ مادة : ورث] .

فلا بُدَّ من علم ، لأن الذى يصنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يعرفَ ما يُصلحها وما يُفسِدها ، وذلك يتطلّب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أننا لا نتساوى إلا فى شىء واحد فقط ، هو أننا عبيدٌ لله .. نحن سواسية فى هذه فقط ، وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه ، تختلف ألواننا ، تختلف أجسامنا .. صورنا .. مواهبنا .. أرزاقنا .

والعجيب أن هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتفاق ؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثلاً : إذا دخلتَ أنت وصديقك أحد المطاعم وطلبتما دجاجة .. أنت بطبيعتك تحب صدر الدجاجة وصديقك يحب جزءاً آخر منها .. هذا خلاف .. فساعة أن يأتى الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق حيث تأخذ أنت ما تحب ، وهو كذلك .. هذا خلاف أدى إلى وفاق .. فلو فرضنا أن كلانا يحب الصدر مثلاً .. هذا وفاق قد يؤدى إلى خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أيُّنا يأخذ الصدر ؟!

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين فى أشياء ، وأراد أن يكون

هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .. فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجَد إنسان مجمعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بناء بيت مثلاً كان هو المهندس الذى يرسم ، والبنَّاء الذى يبنى ، والعامل الذى يحمل ، والنجار والحداد والسباك .. الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ .. لا ..

ولكن الخالق سبحانه نثر هذه المواهب بين الناس نَثْراً لكى يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل فى الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَيْن الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جلَّ وعَلا ، فقال :

﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ [هود]

فقد خلقنا هكذا .

وإلاَّ فلو اتحدنا واتفقنا فى المواهب ، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمَنْ يبنى ؟ ومَنْ يزرع ؟ومَنْ يصنع ؟.. الخ

إذن : من رحمة الله أنْ جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

﴿ فِي الرِّزْقِ .. (٧١) ﴾ [النحل]

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنىّ وهذا فقير .. والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كُلّ

شىء تنتفع به فهو رِزْقك .. فهذا رِزْقه عقله ، وهذا رِزْقه قوته العضلية .. هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألاَّ ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حِلْم ، شجاعة .. كل هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهماً ، ولم تحدد الآية مَنِ الفاضل ومَنِ المفضول ، فكلمة ـ بَعْضٍ ـ مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض من الأبعاض فاضل فى ناحية ، ومفضول فى ناحية أخرى .. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة .. وهكذا .

إذن : فكلٌّ واحد من خَلْق الله رَزَقه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر فى الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون .. وإذا وجدت موهبة فى واحد وكانت مفقودة فى الآخر فالمصلحة تقتضى أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة .. كيف ؟

القويُّ يعمل للضعيف الذى لا قوةَ له يعمل بها ، فهو إذن فاضل فى قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التى يستبقى بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتى هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضّلاً من أحد على أحد ؛ لأن التفضُّل غير مُلْزَم به - فليس كل واحد قادراً على أن يعطى دون مقابل ، أو يعمل دون أجر .. إنما الحاجة هى التى تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذى ربط المجتمع ؟ هى الحاجة لا التفضُّل ، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً فى ناحية لا يغترّ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندكُّ سمة الكبرياء فى الناس ، فكلٌّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغنى صاحب العظمة والجاه .. والذى قد تُلْجئه الظروف وتُحوجه لعامل بسيط يُصلح له عُطْلاً فى مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نَكِداً مُؤرّقاً حتى يُسعفه هذا العامل البسيط ، ويقضى له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضى مثل هذه المهام البسيطة فى المنزل .. وهو فى نفس الوقت فاضل على الباشا فى هذا الشىء .

فالجميع - إذن - فى الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله .. كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهبَ فى الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط فى المجتمع .

وقد عُرِضَتْ هذه القضية فى آية أخرى فى قوله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢) ﴾ [الزخرف]

البعض يفهم أن الفقير مُسخَّر للغنيّ ، لكن الحقيقة أن كلاً منهما مُسخَّر للآخر .. فالفقير مُسخَّر للغنى حينما يعمل له العمل ، والغنى مُسخَّر للفقير حينما يعطى له أجره ..

ولذلك فالشاعر العربى يقول :

النَّاسُ لِلْنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرة ... بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمْ

ونضرب هنا مثلاً بأخسِّ الحرف فى عُرْف الناس - وإنْ كانت الحرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسَّة طالما يقوت الإنسان منها نفسه وعياله من الحلال .. فالخِسَّة فى العاطل الأخرق الذى لا يُتقِن عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم أفضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التى يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشترى علبة الورنيش هذه .. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط .

فقوله تعالى :

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

مَنْ منَّا يُسخَّر الآخر ؟! كُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، أنت مُسخَّر لى فيما تتقنه ، وأنا مُسخَّر لك فيما أتقنه .. هذه حكمة الله فى خَلْقه ليتم التوازن والتكامل بين أفراد المجتمع .

وربُّنا سبحانه وتعالى لم يجعل هذه المهن طبيعيةً فينا .. يعنى هذا لكذا وهذا لكذا .. لا .. الذى يرضى بقدر الله فيما يُناسبه من عمل مهما كان حقيراً فى نظر الناس ، ثم يُتقن هذا العمل ويجتهد فيه ويبذل فيه وُسْعه يقول له الحق سبحانه : ما دُمْتَ رضيتَ بقدرى فى هذا العمل لأرفعنَّك به رِفْعة يتعجَّب لها الخَلْق ..

وفعلاً تراهم ينظرون إلى أحدهم ويشيرون إليه : كان شيالاً .. كان أجيراً .. نعم كان .. لكنه رَضِىَ بما قسم الله وأتقن وأجاد ، فعوَّضه الله ورفعه وأعلى مكانته .

ولذلك يقولون : مَنْ عمل بإخلاص فى أىِّ عمل عشر سنين يُسيِّده الله بقية عمره ، ومَنْ عمل بإخلاص عشرين سنة يُسيِّد الله أبناءه ، ومَنْ عمل ثلاثين سنة سيَّد الله أحفاده .. لا شىء يضيع عند الله سبحانه .

فليس فينا أعْلى وأدْنى ، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلى من الناس ، نحن سواسية ، ولكن منَّا من يُتقِن عمله ، ومنَّا مَنْ لا يتقن عمله ؛ ولذلك قالوا : قيمة كل امرىء ما يُحسِنه .

ولا تنظر إلى زاوية واحدة فى الإنسان ، ولكن انظر إلى مجموع الزوايا ، وسوف تجد أن الحق سبحانه عادلٌ فى تقسيم المواهب على الناس .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلة بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوى مجموع كُلِّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة .. الخ لوجدت نصيب كُلٍّ منّا فى نهاية المعادلة يساوى نصيب الآخر ، فأنت تزيد عنى فى القوة ، وأنا أزيد عنك فى العلم ، وهكذا .. لأننا جميعاً عبيدٌ لله ، ليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. ﴿٧١﴾ ﴾

[النحل]

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك .. والمعنى : أننا لم نَرَ أحداً منكم فضّله الله بالرزق ، فأخذه ووزّعه على عبيده ومماليكه ، أبداً .. لم يحدث ذلك منكم .. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أنْ يُوزّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن فى الآية إقامةٌ للحجة عليهم ، واستدلال على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى[1]

وكأن القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فَضَّل بعضكم فى

---

(١) عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نصارى نجران حين قالوا عيسى ابن الله .. فقال الله لهم : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [النحل] قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٦٨) : « أى : لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرعاً سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم ، فتجعلون لى ولداً من عبيدى » .

الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، ووزّعه على عبيده ؟ .. أبداً .. لم يحدث منكم هذا .. فكيف تأخذون حق الله في العبودية والألوهية وحقّه في الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه للأصنام والأوثان ؟!

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون .. فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى في آية أخرى :

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم]

أي : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟ فهذه لَقْطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (٧١) ﴾ [النحل]

أي : أنكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضَّلَنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطي أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ، فإذا ما طلب منك أن تعطي أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من زكاة يقول لك :

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنِّعَم ، يطلب منك أنْ

تُقرضه ، وكأنه سبحانه يحترم عملك ومجهودك ، ويحترم ملكيتك الخاصة التى وهبها لك .. فيقول : أقرضنى . لعلمه سبحانه بمكانة المال فى النفوس ، وحِرْص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقترض ، فجعل القرض له سبحانه لتثقَ أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

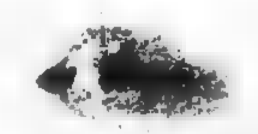
﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : بعد أنْ أنعم الله عليهم بالرزق ، ولم يطلب منهم أنْ يتثروه على الغير ، جحدوا هذه النعمة ، وأنكروا فَضْلَ الله ، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان ، وأخذوا حَقَّ الله فى العبودية والألوهية وأعطوْهُ للأصنام والأوثان ، وهذا عَيْنُ الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

الحق سبحانه فى الآية السابقة قنَّن لنا قضية القمة - قضية العقيدة - فى أننا لا نعطى شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والألوهية والطاعة وغيرها ، لا نعطيها لغيره سبحانه .. وإذا صَحَّتْ هذه القضية العَقدية صَحَّتْ كل قضايا الكون .



ثم بيَّن سبحانه أنه خلقنا من واحد ، ثم خلق من الواحد زوجةً له ، ليتم التناسل والتكاثر .. إذ إن استمرارَ بقائكم خاضعٌ لأمرين :

الأمر الأول : استبقاء الحياة ، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق ، فنأكل ونشرب فنستبقى الحياة ، فبعد أنْ تحدَّث عن استبقاء الحياة بالرزق فى الآية السابقة ذكر :

الأمر الثانى : وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع ، فقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل]

والأزواج : جمع زوج ، والزوج لا يعنى الرجل فقط ، بل يعنى الرجل والمرأة ؛ لأن كلمة (زوج) تُطلَق على واحد له نظير من مثله ، فكلٌّ واحد منهما زَوْج .. الرجل زوج ، والمرأة زوج ، فتُطلق - إذن - على مُفْرد ، لكن له نظير من مثله .

و ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : من نَفْس واحدة ، كما قال فى آية أخرى :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر]

يعنى : أخذ قطعة من الزوج ، وخلق منها الزوجة ، كما خلق سبحانه حواء من آدم - عليهما السلام .

أو : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا .. ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

أى : من جنسها ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى : من جنسكم .

فالمسألة تحتمل المعنيين .. مَن اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضلع آدم أى : منه ، من بعضه فلا مانع ، ومَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خَلْقاً مستقلاً ، ثم زَاوَج بينهما بالزواج فلا مانع .. فالأول على معنى البَعْضية ، والثانى على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمةُ آحاداً .. كما لو قال المعلم لتلاميذه : أخْرِجوا كتبكم ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جَمْع ، وكتبهم جمع ، فهل سيُخرِج كل تلميذ كُتب الآخرين ؟! .. لا .. بل كل منهم سيُخرج كتابه هو فقط .. إذن : القسمة هنا تقتضى آحاداً .. وكذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

أى : خلق لكل منكم زَوْجاً .

ولكى نتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخَلْق بدأ بآدم عليه السلام ـ نردُّ الأشياء إلى الماضى ، وسوف نجد أن كُلَّ متكاثر فى المستقبل يتناقص فى الماضى .. فمثلاً سُكَّان العالم اليوم أكثر من العام الماضى .. وهكذا تتناقص الأعداد كلما أوغلنا فى الماضى ، إلى أن نصلَ إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام ـ ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١) ﴾ [النساء]

كلام صحيح يؤيّده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أن جعل هذا الزوج من أنفسنا ، وليس من جنس آخر ، لأن إِلْفَ الإنسان وأنْسه لا يتم إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوَّر الحال إذا جعل الله لنا أزواجاً من غير جنسنا !! كيف يكون ؟!

هذا الزوج اشترك معنا فى أشياء ، واختلف عنّا فى شىء واحد ، اتفقنا فى أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عينان وأذنان .. يدان ورجْلان .. الخ . وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأنْس والألْفة .

واختلفنا فى شىء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جمعنا جنس ، وفرَّقنا النوع ليتمّ بذلك التكامل الذى أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثَدْى صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دَعَتْ الحاجة لتغيير النوع .. فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٧٢)﴾ [النحل]

ليزداد الإلْف والمحبة والأُنْس والمودّة بينكم ؛ ولذلك نجد فى

قصة سيدنا سليمان عليه السلام ـ والهدهد ، حينما تفقَّد الطير وعرف غياب الهدهد قال :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل]

وهذا سلطان المُلْك الذي أعطاه الله لسليمان .. قالوا في :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١) ﴾ [النمل]

أي : يضعه في غير جنْسه .. إذن : وَضْعه في غير جنسه نوع من العذاب[1] .. وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفي الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاث لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته .. فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبة التي تُمسك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قدْراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة، فيرحم كل منهما صاحبه .. يرحم ضَعْفه .. يرحم مرضه .. وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف في رحلة الحياة .

---

(١) ومن أنواع العذاب أيضاً ما ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٠) والسيوطي في الدر المنثور (٦/٣٤٩) أن ينتف ريشه ويتركه للنمل يأكله .

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل ، فلم يَعُدْ بينهما سكَن ولا مودّة ، ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العشرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك جعله ربنا سبحانه أبغض الحلال[1]، حتى لا نقدم عليه إلا مُضطرّين مُجْبرين .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢) ﴾ [النحل]

البنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفَدة وهم ولَدُ الولد ، هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ؛ ذلك لأن الإنسان بطبْعه يحب الحياة ويكره الموت ، وهو يراه كل يوم يحصد النفوس من حَوْله .. فإيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقّن أن الحياة تفوته في نفسه أراد أنْ يستبقيَها في ولَده .. ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين منّا ، للذكور الذين يُمثّلون امتداداً للآباء .

فإذا ما رزقه الله الأبناء ، وضمن له الجيل الأول تطلّع إلى أنْ يرى أبناء الأبناء ؛ ليستبقي الحياة له ولولده من بعده ؛ ولذلك فالشاعر الذي يخاطب ابنه يقول له :

ابُنَيّ .. يَا أنَا بَعْدَمَا أقْضِي[2]

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق » . أخرجه أبو داود في سننه (٢١٧٨) وابن ماجة في سننه (٢٠١٨) .

(٢) قضى الرجل نحبه : استوفى أجله.ومات . قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] مات أو استشهد . [القاموس القويم ٢/١٢٢] .

وهذه هي نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذِكْر لهم بعد موتهم .. وكان اسمه موصولٌ لا ينتهي .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢) ﴾ [النحل]

تدلُّنا على ضرورة الحِرص على اندماج الأجيال .. زوجين ، ثم أبناء وحفدة .. فما فائدة اندماج الأجيال ؟ ما فائدة المعاصرة والمخالطة بين الجدِّ وحفيده ؟

نلاحظ أن الوليد الصغير يبدأ عنده الإدراك بمجرد أنْ تعملَ وسائل الإدراك عنده ، فيبدأ يلتقط ممَّنْ حوله ويتعلَّم منهم .. فإذا كان له إخوة أكبر منه تعلَّم منهم مثلاً بابا .. ماما .. فإذا لم يكُنْ له إخوة نُعلِّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الطفل الثاني أذكى من الأول ، والثالث أذكى من الثاني .. وهكذا لأنه يأخذ ممَّنْ قبله وممَّنْ حوله ، فيزداد بذلك إدراكه ، وتزداد خبراته ومعلوماته .

ولنتصور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجاء الحفيد الذى يعاصر الجيلين ؛ جيل الأب وجيل الجدِّ ، يشبُّ الصغير في أحضانهما ، فتراه يأخذ من أبيه نشاطه في حركة الحياة وسَعْيه للرزق .

في حين أنه يأخذ من جَدِّه القيم الدينية حيث الجد في البيت باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فأقبل على الطاعة والعبادة .. فيسمع منه الصغير قراءة القرآن .. متى يؤذن للظهر .. يا ولد هات

المصحف .. يا ولد هات السجادة لأصلى ، إلى غير هذه من الكلمات التى يأخذ منها الصغير هذه القيم .

إذن : الحفيد يلتقط لوناً من النشاط والحركة فى جيل أبيه ، ويلتقط لوناً من القيم فى جيل جَدِّه ؛ ولذلك فإن ابتعاد الأجيال يُسبِّب نقصاً فى تكوين الأطفال ، والحق سبحانه يريد أنْ تلتحمَ الأجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .

وقوله تعالى :

﴿ ورزقكم من الطيبات ..(٧٢)﴾ [النحل]

الطيبات فى الرزق الذى جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفى الزواج الذى جعله الله لاستبقاء النوع .

ثم يقول تعالى :

﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون (٧٢)﴾ [النحل]

الباطل : هو الأصنام التى اتخذوها من دون الله .

وفى الآية استفهام للتعجُّب والإنكار .. كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم فى البَدْء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .. وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً .. وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نِعم الحياة ما يستبقى حياتكم ، ومن نِعَم الأزواج ما يستبقى نوعكم ، وجعلكم فى نعمة ورفاهية .. خلقكم من عَدَم ، وأمدّكم من عُدم .

أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبدل أنْ تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع .. وهل عملتْ لكم الأصنامُ شيئاً من ذلك ؟! هل أنعمتْ عليكم بنعمة من هذه النعم ؟!

هذه الأصنام محتاجة إليكم .. تأخذ منكم ولا تعطيكم .. فهذا مائل يريد مَنْ يقيمه .. وهذا كُسِر يحتاج لمن يُصلحه .. انقل الإله .. ضَع الإله فى مكان كذا .. الخ .

ولذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضى تنفيذ الأمر واجتناب النهى .. فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهى فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة فى الحياة تُعين على عبادة فهى عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردتَ أن تُؤدِّى فرض الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوُّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يدٍ شاركتْ فيه منذ كان حبةَ قمح تلقى فى الأرض إلى أنْ أصبحَ رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدّ ذاتها عبادة لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أنْ تُصلِّى ، فواجب عليك أنْ تستر عورتك .. انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به .. كُلّ مَنْ أسهم فى زراعته وصناعته حتى وصل إليك .. جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شىء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شىء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝٩ ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) .. لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُستْهلك .. ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتى ثمرتها فى ساعتها .. فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته .. لكن البيع صفقة حاضرة ، فهى محلّ الاهتمام .. وكذلك لم يَقُلْ : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيعَ ، ولكن المشترى قد يشترى وهو

كاره .. فأتى القرآن بأدقّ شيء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضتْ الصلاة أُمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب[1] الأرض :

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ..(١٠)﴾ [الجمعة]

فقوله تعالى :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٧٣)﴾ [النحل]

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التى يُؤثِرونها على الله .. وهى الأصنام .. فالله سبحانه الذى خلقهم ورزقهم من الطيبات ، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة .. كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله .. فالذى لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبده لنعمه وحاجته إليه .. فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة لذاته ، وعبادة لصفات الذات فى معطياتها ، فَمنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضى تنفيذ الأوامر واجتناب النواهى .. فكيف تكون العبادة إذن فى حق هذه الأصنام التى اتخذوها ؟! كيف تعبدونها وهى لم تأمركم بشيء ولم تنهكُمْ عن شيء ؟! .

---

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل : طرقها . وقيل : جوانبها . قال الأزهرى : أشبه التفسير والله أعلم تفسير من قال : فى جبالها . لأن قوله : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً .. (١٥)﴾ [الملك] معناه : سهَّل لكم السلوك فيها . فأمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ فى التذليل . [لسان العرب ـ مادة : نكب] .

وهذا أول نَقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك .. ماذا تُعطى الأصنام - أو غيرها من معبوداتكم - لمن عبدها ، وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب ؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ .. إذن : فهو إله بلا منهج .

والتديُّن غريزة في النفس يلجأ إليها الإنسان في وقت ضعفه وحاجته .. والله سبحانه هو الذي يجب أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات .. وله منهج يقتضي مطلوبات تدكُّ السيادة والطغيان في النفوس ويقتضي تكليفات شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمحَّك إنسان في إله ويقول : أنا أعبده دون أن يأمر بشيء أو ينهى عن شيء ! ما أسهل أن يُرضي في نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألاَّ تنسوا أن هذا الإله الذي ليس له تكليف لن تستطيعوا أنْ تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه في شدة .. فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبون منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نَفْعاً ولا ضراً .

لذلك وجدنا الذين يدَّعُون النبوة .. هؤلاء الكذابون يُيسِّرون على الناس سُبُل العبادة ، ويُبيحون لهم ما حرَّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع .

فجاء مسيلمة الكذاب وأراد أن يُسهِّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة .. وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضيقون بالتكليف ، ويميلون لدين سَهْل يناسب هِمَمهم الدَّنية .

وهكذا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يُؤيِّدونهم ويُناصرونهم .. ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخدوعون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا .. (٧٣) ﴾ [النحل]

نلاحظ في هذه الآية نَوْعاً من الارتقاء في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم في آية أخرى :

﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

فنفى عنهم القدرة على الخَلْق ، بل إنهم هم المخلوقون .. يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيه مِعْوله حتى يُصوِّره على صورة ما ، ثم يتخذه إلهاً يعبده من دون الله .

فلما نفى عنهم القدرة على الخَلْق أراد هنا أنْ يترقّى في الاستدلال ، فنفى عنهم مجرد أنْ يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فتُقرِّر الآية هنا أنهم لا يملكون .. مجرد الملك .

وقوله تعالى :

﴿ مِنَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا ..(٧٣)﴾ [النحل]

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتى رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإنْ أردتُمْ ترفَ الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة لِتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقى المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فأنبت لنا نبات الأرض . .

ونُوضِّح ذلك فنقول : هَبْ أن عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضَّك الجوع فى يوم من الأيام .. هل تستطيع أنْ تأكلَ من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن فى حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة .. رغيف العيش الذى يحفظ لك حياتك فى هذا الموقف أفضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذى رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رِزْق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أى : أقلّ ما يُقَال له شىء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلَّ ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رِزْقاً يكفيهم .. لا .. بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

أى : لا يملكون لهم رِزْقاً فى الحاضر ، ولن يملكوا فى المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهُمْ لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً .. وأشياء مُعلّقة يمكن أن تُستأنفَ فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

حُكْم قاطع لا استئناف له فيما بَعْد .

ولذلك ؛ نجد هؤلاء الذين يُحِبّون أنْ يجدوا فى القرآن مَأْخذاً يجادلون فى قوله تعالى[1] :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

فهؤلاء يرون فى السورة تكراراً يتنافى وبلاغة القرآن الكريم .. نقول : ليس فى السورة تكرار لو تأملتُم .. ففى السورة قَطْع علاقات على سبيل التأبيد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٦١ فى سبب نزول هذه السورة أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، نعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون] .

في الحاضر ، وفي المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقوله : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾

[الكافرون]

هذا قَطْع علاقات في الوقت الحاضر .. ولكن مَنْ يُدرِينا لعلّنا نستأنف علاقات أخرى فيما بعد .. فجاء قوله تعالى :

﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل في إعادة العلاقات في المستقبل ، فالقضية - إذن - منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى في قوله تعالى :

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

أي : لا يستطيعون الآن ، ولا في المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

الأمثال : جمع مِثْل ، وهو النِّد والنظير .

وفى الآية نَهْى عن أن نُشبِّه الله سبحانه بشيء آخر ؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله .. إياك أن تقول عن ذات : إنها تشبه ذاته سبحانه ، أو صفات تشبه صفاته سبحانه ، فإنْ وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر فاعلم أنها على مقياس :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ⦗١١⦘ ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه ينهانا أنْ نضرب له الأمثال ، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال ؛ لأنه حكيم يضرب المثل فى محلّه لِيُوضّح القضية الغامضة بالقضية المشاهدة ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ .. ⦗٦٠⦘ ﴾ [النحل]

أى : الصفة العليا فى كل شيء ، فإذا وجدتَ صفات مشتركةً بينكم وبين الحق سبحانه فنزِّه الله عن الشبيه والنظير والنِّد والمثيل وقل : (ليس كمثله شيء) .

فأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك مسبوقٌ بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه العدم .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه لِيُوضّح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثلاً لنوره كما نظنّ .. بل هو مثل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى فى سورة النور :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[1] فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ[2] يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور]

نور السماوات والأرض ؛ لأنه بالنور تكون الهداية حسية أو معنوية .. فالنور الحسيُّ مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من مصادر الضوء .. هذا النور الحسيّ هو الذى يُبيِّن لك الأشياء لتسير فى الكون على بصيرة وهدى .. فلو حاولتَ السَّيْر ليلاً دون ضَوْء يهديك فسوف تصطدم بالأشياء من حولك : إما أقوى منك يُحطِّمك ويُؤذيك ، وإما تكون أنت أقوى منه فتُحطِّمه أنت .. فالذى يهدى خُطَاك هو النور الحسيُّ .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القِيَم والأخلاق ، وهذا النور يجعلك أيضاً تسير فى الحياة على بصيرة وهُدىً ، ويحميك من التخبُّط فى مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور القِيَمى الذى أنزله الله لنا فى كتابه الكريم ، وقال عنه :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

---

(١) المشكاة : هى الكُوَّة ، الطاقة ، التى ليست بنافذة . [لسان العرب ـ مادة : شكا] .

(٢) الكوكب الدرى : هو الكوكب الشديد البريق واللمعان . [القاموس القويم ١/ ٢٢٦] .

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة]

فهو نور لكن معنوى .. بالقيم والأخلاق والفضائل .. ولا تقُلْ فى هذا المثل : إنه مَثَلٌ لنور الله .. بل مَثَلٌ لسلطان تنويره للكون ، ولو تأملنا بقية الآية لأدركنا ذلك .

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

البعض يقولون : المشكاة هى المصباح .. لا .. المشكاة هى الكُوَّة أو الطاقة المسدودة فى الجدار يعرفها أهل الريف فى بِنَاياتهم القديمة ، وهى تجويف غير نافذ فى الجدار يُوضَع فيه المصباح .

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

أى : ليس مصباحاً عادياً بل فى زجاجة ، وهى تحمى ضَوْء المصباح أنْ يبعثره الهواء من كل ناحية ، وفى نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافى من الهواء لاستمرار الاشتعال ، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دُخان يُعكّر صَفْو الزجاجة .

وأهل الريف يعرفون شعلة الجاز التى ليس لها زجاجة ، وما يصدر عنها من دُخان أسود ضارٍّ .. إذن : المصباح هنا فى غاية الصفاء والقوة ؛ لأن الزجاجة أيضاً ليستْ زجاجة عادية ، بل زجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ ، وكَوْنها كالكوكب الدرىّ يعنى أنها تُضِيء بنفسها .

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

هذا المصباح يُوقد بزيت ليس عادياً ، بل هو زيت من زيتونة .. شجرة زيتون معتدلة المناخ .

﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقاء أنه يُضيء ، ولو لم تمسسه نار ؛ ولذلك أعطانا منتهى القوة :

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ..(٣٥)﴾ [النور]

ولذلك قال تعالى في وصف هذا المصباح :

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

وبعد أنْ وقفتَ على أوصاف هذا المصباح ، وأنه يُوضَع في كُوّة صغيرة ، بالله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوّة ؟

إذن : فهذا مَثَلٌ ليس لنوره سبحانه .. فنُوره لا يُدرَكُ ، وإنما هو مَثَلٌ لتنويره للكون ، الذي هو كالكُوّة والطاقة في هذا المثل .. فمعنى قوله تعالى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٣٥)﴾ [النور]

أي : مُنوِّرهما ، فكما أنه لا يُعقل وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوّة ، فكذلك نوره سبحانه وتنويره للكون .. وهذا هو النور الحسيّ الذي أمدَّ الله به الكون .

ثم تحدَّث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوي الذي يُنزل على عباد الله الصالحين تجليّاتٍ نورانية ، وفيُوضاتٍ ربانية نتلقَّاها في بيوت الله :

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ ..(٣٧)﴾ [النور]

وهكذا نجمع بين النور الحسيّ والنور المعنوى ﷺ

ولذلك ، فأبو تمام[1] حينما أراد أن يمدح الخليفة شبَّهه بمشاهير العرب فى الشجاعة والكرم والحِلْم والذكاء ، فقال :

إقْدام عَمْرو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ   فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذَكَاءِ إِيَاسِ

فاعترض على هذا التشبيه أحد حُسَّاد أبى تمام ، وقال له : كيف تُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ؟ ففى جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن خَزَنته ألف واحد كحاتم .. ولكن يخرج أبو تمام من هذا المازق ، ويُفلت من هذا الفخ الذى نصبه له حاسده ، قال على البديهة :

لاَ تُنكِرُوا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدى والبَاسِ[2]
فَاللَّهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُـوره   مثَلاً مِنَ المشْكَاة والنِّبْراسِ[3]

والحق سبحانه وتعالى وإنْ نهانا نحن أن نضربَ له مثلاً لقلّة علْمنا ، فهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات ، وأتفهها فى نظرنا .. فيقول تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثلاً ؛ لأنه سبحانه لا يستحي أن يضرب بها المثل ؛ لأن في هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التي فيك ، وفي أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ؛ ولأن هذه البعوضة التي تستحقرها قد تكون أقوى منك ، قد تُعجزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

بالله عليك ، هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أنْ تستردَّ من الذبابة ما أخذتْه من طعامك ؟ هل تقدر على هذه العملية ؟

إذن : حينما يضرب الله لك مَثَلاً يجب أن تحترم ضَرْب الله للمثل ، وأنْ تبحثَ فيما وراء المثل من الحكمة .. وأنه سبحانه جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الحقير في نظرك ليُوضّح لك قضية غامضة يُنبّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثَل في توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة - مثل قضية الحاسد الذي يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً في رِفْعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربي هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً توضيحياً ، فقال :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُويَتْ ... أتَــاحَ لَهَــا لِسَــانَ حَسُــودِ

لَوْلاَ اشْتِعالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ[1] العُودِ

فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها الرجل العادى ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشّف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل .. وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذى لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثل الشّعرىّ أن أحد أهل الخير كان يتردد من حين لآخر على أحد بُيوت البلدة وبها عجوز مُقْعدة فى حاجة إلى مساعدة ، فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى الجميلات التى قد تكون مطمعاً .. فاستغل أحد الحُسَّاد هذه الجيرة ، واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسناء .. وفعلاً تتبعه الناس ، فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة .. ومن هنا عرف الناس عنه فضيلةً لم يكن يعرفها أحد .

وقد رأينا على مَرِّ التاريخ مَنِ اتهِمُوا ظلماً ، وقيل فى حقهم ما يندى له الجبين .. ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم ومكارمهم .

---

(١) العَرْف : الريح ، طيبة كانت أو خبيثة . والعود : هو الذى يُتبخّر به . والعود : خشبة كل شجرة ، دق أو غلظ . [لسان العرب ـ مادتا : عرف ، عود] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾ [النحل]

وهذه علّة النهى عن ضَرْب الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال ؛ لأنه سبحانه يعلم ، ويأتى بالمثَل فى محلّه .

وبعد أنْ هيّأنا ربنا سبحانه لتلقّى الأمثال ، وأعدَّ أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه .. أتى بهذا المثل .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان :

الطرف الأول : عبد : أى مَوْلى ، وصفه بأنه مملوك التصرّف ، وأنه لا يقدر على شىء من العمل ؛ ذلك لأن العبد قد يكون عَبْداً ولكنه يعمل ، كمَنْ تسمح له بالعمل فى التجارة مثلاً وهو عبد ، وهناك العبد المكاتب الذى يتفق مع سيده على مال يُؤدّيه إليه لينال حريته ، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمعَ المال المتفق عليه .. فهذا عَبْد ، ومملوك ، ولا يقدر على شىء من السَّعْى والعمل .

والطرف الثانى : سيد حُرٌّ ، رزقه الله وأعطاه رِزْقاً حَسناً أى :

حلالاً طيِّباً .. ثم وفّقه الله للإنفاق منه بشتى أنواع الإنفاق : سراً وجَهْراً .. وهذه منزلة عالية : رِزْق من الله وصفه بأنه حلال طيب لا شُبْهة فيه ، بعد ذلك وفّقه الله للإنفاق منه .. كُلٌّ حَسْبَ ما يناسبه ، فمن الإنفاق ما يناسبه السِّرّ ، ومنه ما يُناسبه الجَهْر :

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢٧١) ﴾ [البقرة]

هذان هما طَرَفا المثَل المضروب لَنَا .. ويترك لنا السياق القرآنى الحكْم بينهما .. وكأن الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب ، إلا إذا كان الجواب سيأتى على وَفْق ما يريد .. ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أن نقولَ : لا يستوون .. وكأن الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد ضرب الله هذا المثل لعبدة الأصنام ، الذين أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، فمثّل الحق سبحانه الأصنامَ بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء .

وضرب المثَل الآخر للسيد الذى رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجَهْراً ، ألم ترَ إلى قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَأَسْبَغَ[1] عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠) ﴾ [لقمان]

---

(١) أسبغ الله النعمة : أتمها ووسّعها . [القاموس القويم ـ مادة : سبغ] . وشىء سابغ : كامل واف . وسبغت النعمة : اتسعت . [لسان العرب ـ مادة : سبغ] .

ليُبين لهم خطأهم فى الانصراف عن عبادة الله مع ما أعطاهم من رزق إلى عبادة الأصنام التى لا تعطيهم شيئاً .

ومن هنا تتضح الحكمة فى أن الله تعالى ترك الحكم بنفسه فى هذا المثَل ، وأتى به على صورة سؤال ليأخذ الحكم من أفواههم ويشهدوا هم على أنفسهم ؛ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والجدال .

ولنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ ..(٧٥)﴾ [النحل]

فالحديث عن مُثنّى ، وكان القياس أن يقول : هل يستويان ، فلماذا عدل عن المثنى إلى الجمع ؟

نقول : لأن المثل وإنْ ضُرِب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين .. مفرد شائع فى عديد مملوكين ، وفى عديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك ليُعمِّم ضَرْب المثل .

إذن : ليس فى اختلاف الضمير هنا ما يتعارض وبلاغة القرآن الكريم ، بل هى دِقّة أداء ؛ لأن المتكلّم هو الحق سبحانه وتعالى .

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ..(٩)﴾ [الحجرات]

بعضهم يرى فى الآية مَأخذاً ، حيث تتحدث عن المثنى ، ثم بضمير الجمع فى (اقْتَتَلُوا) ، ثم تعود للمثنى فى (بَيْنَهُمَا) .

نقول لهؤلاء : لو تدبرتُم المعنى لَعرفتم أن ما تتخذونه مأخذاً ،

وتعتبرونه اختلافاً في الأسلوب هو منتهى الدقة في التعبير القرآني .. ذلك أن الحديث عن طائفتين : مُثنّى .. نعم .. فلو تقاتلا ، هل ستمسك كل طائفة سيْفاً لتقاتل الأخرى ؟

لا .. بل سيُمسك كُلُّ جندى منها سَيْفاً .. فالقتال هناك بالمجموع .. مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى ، فناسب أن يقول : اقتتلوا ؛ لأن القتال حركة ذاتية من كُلّ فرد في الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصُّلْح ، هل نصالح كل جندى من هذه على كل جندى من هذه ؟ لا .. بل الصُّلْح شأنُ السادة والزعماء والقادة لكل طائفة ، ففي الصُّلْح نعود للمثنى ، حيث ينوب هؤلاء عن طائفة ، وهؤلاء عن طائفة ، ويتم الصُّلْح بينهما .

إذن : اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البياني ؛ لأن المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ..(٧٥) ﴾ [النحل]

كأن الحق سبحانه يقول : الحمد لله أنْ وافقَ حُكْمكم ما أريد ، فقد نطقتُم أنتم وحكمتُمْ .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا ما يُسمُّونه « صيانة الاحتمال » ؛ لأنه لما نزلَ القرآن الكريم كان هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكّرون في الإيمان واعتناق هذا الدين ، فلو نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ،

وربما صرفهم عمّا يُفكّرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون الاحتمال فى أن أناساً منهم عندهم علْم ، ويرغبون فى الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ[1] لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ[2] عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

وهذا مَثَلٌ آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والأبكم هو الذى لا يتكلم .. ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ ؛ لأن الكلام وليد السَّمْع ، فإذا أخذنا طفلاً عربياً وربّيناه فى بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس صحيح ؛ ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً ، بل هو وليد البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان .. فإذا لم يسمع شيئاً فكيف يتكلم ؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة]

هذا الأبكم لا يقدر على شىء من العمل والنفع لك ، يقول تعالى :

---

(١) البكم : أن يُولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر . وهو أخرس بيِّن الخرس . [لسان العرب ـ مادة : بكم] .

(٢) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل] وهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ..(٧٦)﴾ [النحل]

أى : عَالَة على سيده ، لا ينفع حتى نفسه ، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضى بها شيئاً لسيده ، حتى هذه ليست عنده .

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ..(٧٦)﴾ [النحل]

إذن : لا خيرَ فيه ، ولا منفعةَ البتة ، لا له ولا لغيره ، هذه صفات الرجل الأول .

فماذا عن مقابله ؟

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٧٦)﴾ [النحل]

وهذه أول صفات الرجل الآخر ، أنه يأمر بالعدل ، وصفة الأمر بالعدل تقتضى أنه سمع منهجاً ، ووعتْهُ أذنه ، وانطلق به لسانه آمراً بالعدل ، وهذه الصفة تقابل : الأبكم الذى لا يقدر على شيء .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾ [النحل]

أى : أنه يذهب إلى الهدف مباشرة ، ومن أقصر الطرق ، وهذه تقابل : أينما يوجهه لا يَأْتِ بخير .

والسؤال هنا أيضاً : هل يستويان ؟ والإجابة التى يقول بها العقل : لا .

وهذا مَثَلٌ آخر للأصنام .. فهى لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تُفصح ، وهى لا تقدر على شيء لا لَهَا ولا لعابديها .. بل هى عَالَة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها

وينصبونها ، ويُصلحون كَسْرها ، وهكذا هم الذين يخدمونها ولا ينتفعون منها بشيء .

فإذا كنتم لا تُسوُّون بين الرجل الأول والرجل الآخر الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فكيف تسوون بين إله له صفة الكمال المطلق ، وأصنام لا تملك لكم نفعاً ولا ضراً ؟!

أو نقول : إن هذا مثَلٌ للمؤمن والكافر ، بدليل أن الحق سبحانه فى المثل السابق قال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

وفى مقابله قال :

﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

ولم يقُلْ عبد أو رجل .

إنما هنا قال : ﴿رَّجُلَيْنِ.. (٧٦)﴾ [النحل]

فيمكن أن نفهم منه أنه مَثَلٌ للرجل الكافر الذى يمثله الأبكم ، وللرجل المؤمن الذى يمثله مَنْ يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا أن العالم منه عالم المُلْك ، ومنه عالم الملكوت .. عالم المُلْك هو العالم المحسّ لنا ، وعالم الملكوت المخفيّ عنَّا فلا نراه .

ولذلك ، فربنا سبحانه وتعالى لما تكرَّم على سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : لله تعالى في كونه ظاهر وغَيْب .. الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبيّة لا يراها أحد ، ولا يطّلع عليها .. حتى في ذاتك أنت أشياء غَيْب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غَيْب لا تعرفها أنت .. وهذا الغيب نُسمّيه : غَيْب الإنسان .

إذن : فأنا غائب عنِّي أشياء ، وغيري غائب عنه أشياء .. هذا الغيب الذي لا نعرفه يَعُدّه بعض الناس نَقْصاً فينا ، وهو في الحقيقة نوع من الكمال في النفس البشرية ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلمَ غيبَ الناس فاسمح لهم أنْ يعلموا غَيْبك .

ولو خُيِّرت في هذه القضية لاخترتَ أنْ يحتفظ كلٌّ منكم بغَيْبه لا يطلع عليه أحد .. لا أعرف غَيْب الناس ، ولا يعرفون غَيْبي ؛ ولذلك يقولون : « المغطى مليح » .

فسَتْر الغيب كمال في الكون ؛ لأنه يُربِّي ويُثري الفائدة فيه .. كيف ؟

هَبْ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسنات ، ثم اطلعتَ على

سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسوف ترى هذه السيئة كفيلة بأنْ تُزهِّدك فى كل حسناته وتُكرِّهك فيه ، وتدعوك إلى النُّفْرة منه ، فلا تستفيد منه بشيء ، فى حين لو سُترتْ عنك هذه السيئةُ لاستطعتَ الانتفاع بحسناته .. وهكذا يُنمى الغيبُ الفائدةَ فى الكون .

وفى بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه :

« يابْنَ آدمَ سترْتُ عنك وسترْتُ منك ، فإنْ شئتَ فضحْنَا لك وفضحناك ، وإنْ شئت أسبلنَا عليك سِبالَ السِّتْر إلى يوم القيامة»[1]

فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار ؟

أعتقد أن الجميع سيختار السِّتْر .. فما دُمْتَ تحب الستر وتكره أنْ يطلعَ الناس على غَيْبك فإياك أنْ تتطاول لتعرفَ غَيْب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسَّة من السمع والبصر والشَّمِّ والذَّوْق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غيْب وضع الله فى كونه مقدمات تُوصِّل إليه وأسباباً لئلاَّ يكونَ غَيْباً .. كالكهرباء والجاذبية وغيرها .. كانت غَيْباً قبل أنْ تُكتشفَ .. وهكذا كل الاكتشافات والأسرار التى يكشفها لنا العلم ، كانت غَيْباً عنَّا فى وقت ، ثم صارت مُشَاهدة فى وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كُلَّ أسرار كَوْنه مرة واحدة ، بل يُنزله بقَدرٍ ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾

[الحجر]

---

(١) لم أقف على هذا الأثر رغم طول البحث ، ولكن قد أخرج الحكيم الترمذى عن الحسن مرسلاً والعقيلى منه عن أنس : « قال الله تعالى : أنا أكرم وأعظم عفواً من أن أستر على عبد مسلم فى الدنيا ثم أفضحه إذ سترته ، ولا أزال أغفر لعبدى ما استغفرنى » وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٤/ ٤٠٥٠) وضعفه .

فالذى كان غَيْباً فى الماضى أصبح ظاهراً مُشَاهداً اليوم ؛ لأن الله سبحانه كشف لنا أسبابه فتوصَّلْنا إليه .. فهذا غَيْب جعل الله له مُقدّمات يصل إليها مَنْ يبحث فى الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحان وقت ميلاده وَفَّق الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ فى المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثتَ فى كُلّ المخترعات والمكتشفات لوجدتَ ٩٠٪ منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما نسميه « غيب الأكوان » .

ومثال هذا الغيب : إذا كلفتَ ولدك بحلِّ تمرين هندسىٍّ .. ومعنى حَلِّ التمرين أنْ يصلَ الولدُ إلى نقطة تريد أنت أنْ يصلَ إليها .. ماذا يفعل الولد ؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطيات ، ثم يستخدم ما لديْه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يَأْتِ بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة فى الكون هى المعطيات مَنْ بحثَ فيها توصَّل إلى غيبيَّات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾

[البقرة]

فإذا أذِنَ الله لهم تكشفتْ لهم الأسرار : إما بالبحث ، وإما بالخطأ ، أو حتى بالمصادفة .. فطالما حان وقت ميلاد هذا الغيْب واكتشافه : فإن صادف بَحْثاً من البشر التقيا ، وإلاّ أظهره الله لنَا دون بَحْث ودون سَعْى منّا .

وهناك نوع آخر من الغيب ، وهو الغَيْب المطلق ، وهو غَيْب عن كل البشر استأثر الله به ، وليس له مُقدّمات وأسباب تُوصّل إليه ، كما فى النوع الأول .. هذا الغَيْب ، قال تعالى فى شأنه :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ.. (٢٧) ﴾ [الجن]

فإذا ما أعلمنا الرسول غَيْباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب .. لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .. إذن : هذا غَيْب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغَيْب المطلق غَيْبٌ استأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحداً حتى الرسل .. ولما سُئِل الرسول ﷺ عن الساعة ، قال : « ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل »[1] .

وفى الإسراء والمعراج يحدثنا ﷺ أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، ووعاء خَيّره فيه فلا يعطيه إلا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

لأهل الاستعداد السلوكى الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله ﷺ .

ولذلك يقول راوى الحديث : إن رسول الله ﷺ أعطانى وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثْتُه أى روَيْته وقُلْته للناس ، وأما الآخر فلو بُحْت به لَقُطع حلقومى هذا ، فهذا من الأسرار التى يختار الرسول ﷺ لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل]

هذا يُسمُّونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أى قصر غيب السموات والأرض عليه سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض ، أى : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل]

جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد : لأنه الغيب الذى استأثر الله به ..

ولا يُجلّيها لوقتها إلا هو .. فناسب الحديث عن الغيب أنْ يأتيَ بهذا الغَيْب المطلق الذى لا يعلمه إلا الله .

وما هو لَمْح البصر ؟

عندنا أفعال متعددة تدلّ كلّها على الرؤية العامة ، وإنْ كان لكل منها معنًى خاصٌ بها نقول : رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح .. فرأى مثلاً أى بجُمْع عينه ، ورمق بأعلى ، ولحظَ بجانب ، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة ، هذه الحركة ما نسميه باللمح .

إذن : لمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشىء المرئى .. فإنْ أردتَ أنْ ترى ما فوقك تحركتْ الحدقة إلى أعلى ، وإنْ أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحركتْ الحدقة إلى أسفل وهكذا .

هذه الحركة هى لَمْح البصر ، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع .

إذن : شبَّه الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر ، ولكن اللمح حدث ، والأحداث تحتاج إلى أزمان ، وقد تطول الأزمان فى ذاتها ولكنها تقصر عند الرائى .

وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطىء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة ، فتراهم مثلاً يُعيدون لك مَشْهداً كروياً لترى كل تفاصيله ، فتجد المشهد الذى مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامك بطيئاً فى زمن أطول ،

فى حين أن الزمن فى السرعة يتجمع تجمّعاً لا تدركه أنت بأىّ معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن : فهى جزئيات حركة فى جزئيات زمان ، فلَمْح البصر الذى هو تحرُّك حَدقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمْر الساعة ، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان ، وأقرب تشبيه لِفَهْم أمْر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قيل لك : ما أمر فلان ؟ وما شأنه ؟ . تأخذ فى سَرْد الأحداث .. حدث كيت وكيت .. فإذا قلنا : ما أمْر الساعة ؟ ما شأنها ساعةَ تقوم ، حيث يموت الأحياء أولاً ، ثم يحيا الجميع من لَدُنْ آدم عليه السلام ثم حَشْر وحساب وثواب وعقاب .

أحداث كثيرة وعظيمة لخلْق متعددين من الإنس والجن .. يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا ، ولكن إياك أنْ تتصوَّر أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج ، وإنما هى كُنْ فيكون ، حتى كُنْ مكوّنة من حرفين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أمْر الساعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا فى فَهْمنا .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلّم عن أهل القبور ، قال :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

فى حيـن أننا نرى أنهم غابوا كـثيـراً فى قبورهـم .. إذن : كيف يُقَـاسُ الزمن ؟ .. يُقاس بتـتبُّـعك للأحداث ، فـحينمـا لا يُوجد حَـدَث لا يُوجَد زمن .. وهذا ما نراه فى حـال النائم الذى لا يستطيع تحديد الزمن الذى نامه إلا على غالب ما يكون فى البشر .

ولذلك ، فى قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مـائة عام وتسعة أعوام قالوا :

﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١١٣)﴾ [المؤمنون]

فـهذا هـو الغالب فى عُـرْف الناس ؛ ذلك لأنهـم استـيـقظوا فلم يجـدوا شـيئـاً حـولهم يدل على زمـن طويل .. الحـال كـمـا هـو لم يتغيَّـر فيهم شىء .. فلو استـيقظوا فوجـدوا أنفسهم شيـوخاً بعد أن كانوا فـتية لَعلِموا بمـرور الزمن .. إذن : الزمن بالنسبة لعـدم الحدث زمن مُلْغىً .

أو نقول : إن أمْـر الساعة فى أن الحق سـبحانه يجـعلها جامـعة للناس إلا كلمْح البـصر ، فكلّ ما يحـدث فيهـا لا تقيـسه بزمن ، لأن الذى يُقاسُ بالزمن إنما هى الأحداث الناشـئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن .

فلو أردْتَ نَقْل هذا الشىء مـن هنا إلى هنا فـسوف يحـتـاج منك وقتـاً ومـجهـوداً ، أما لو كلفتَ طفـلاً بنقل هذا الشىء فسـوف يأخذ وقتـاً أكثر ويحتـاج مجهـوداً أكثر .. إذن : فـالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً .

ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدَّث الناس بالإسراء والمعراج[1] قالوا : أتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً .. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومُزَاولة ، تأخذ وَقْتاً يتناسب وقدراتهم فى الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس - ومحمد ﷺ لم يقل : اسريْتُ ، بل قال : أُسْرِى بى ، الذى أَسْرى به هو الله سبحانه ، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى .

وكذلك إذا قِيسَ زَمن أَمْر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر ، أو هو أقرب من ذلك .. إنما هو تشبيه لِنُقرِّب لكم الفهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : يكون أمر الساعة كذلك ؛ لأن الله قادر على كل شىء ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات ، فقدرة الله هى القدرة العُلْيا التى لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) حديث الإسراء أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٢) كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/٣٦٣) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه مستعجب للكذب . زعم . قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ » الحديث بطوله .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(مِنْ بُطُونِ أُمهَاتِكُم) المراد الأرحام ؛ لأنها في البطون ، والمظروف في مظروف يعتبر مظروفاً ، كما لو قلت : في جيبي كذا من النقود أو في حافظتي كذا من النقود .. العبارتان معناهما واحد .

وأمهاتكم : جمع أم ، والقياس يقتضي أن نقول في جمع أم : أمّات ولكنه قال :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

بزيادة الهاء .

وساعةً يكون الجنين في بطن أمه تكون حياته حياة تبعية ، فكل أجهزته تابعة لأمه .. فإذا شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية مستقلة .. وعند الولادة نرى أطباء التوليد يقولون : الجنين في الوضع الطبيعي أو في غير الوضع الطبيعي .. فما معنى الوضع الطبيعي للجنين عند الولادة ؟

الوضع الطبيعي أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل ، هذا هو الوضع الطبيعي ؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يُخرجه خَلْقًا آخر :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

كأنه كان خلقاً لكنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقًا آخر مُسْتقلاً بذاته .. فتكون الرأس إلى أسفل ، وهي أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس .

ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية ، فإذا ما تعسَّر خروج باقي جسمه فستكون له فرصة التنفس ، وهذا من لُطْف الله سبحانه ؛ لأن الجنين في هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقي جسمه .

أما إذا حدث العكس فكان الرأس إلى أعلى ، ونزل الجنين بقدميه ، فبمجرد نزول الرِّجْلَيْن ينفصل عن أمه ، ويحتاج إلى حياة ذاتية ويحتاج إلى تنفس ، فإذا ما تعسَّرت الولادة حدث اختناق ، ربما يؤدي إلى موت الجنين .

العلم أخذ قضية من قضايا الكون مجزوم بها وعليها دليل ؛ وقوله تعالى :

﴿ لا تَعْلَمُونَ[1] شَيْئًا .. (٧٨) ﴾ [النحل]

ذلك لأن وسائل العلم والإدراك لم تعمل بَعْد ، فإذا أراد الله له أنْ يعلم يخلق له وسائل العلم ، وهي الحواس الخمس : السمع والبصر والشَّم واللمس والتذوّق ، هذه هي الحواس الظاهرة التي بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف ، وبها يُدرِك ما حوله .

وإنْ كان العلم الحديث قد أظهر لنا بعض الحواسّ الأخرى ، ففي علم وظائف الأعضاء يقولون : إنك إذا حملتَ قطعتين من الحديد مثلاً فبأيِّ حاسة تُميِّز بينهما من حيث الثقل ؟

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٧٧) : « فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم .
الثاني : لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء .
الثالث : لا تعلمون شيئاً من منافعكم .

هذه لا تُعرف باللمس أو السمع أو البصر أو التذوّق أو الشّم .. إذن : هناك حاسة جديدة تُميّز الثقَل هي حاسة العضَل .

وكذلك تُوجَد حاسة البَيْن ، التي تتمكن بها من معرفة سُمْك القماش مثلاً وأنت في محل الأقمشة ، حيث تفركُ القماش بين أصابعك ، وتستطيع أن تُميّز بين الرقيق والسّميك .

فالطفل المولود إذن لا يعلم شيئاً ، فهذا أمر طبيعي لأن وسائل العلم والإدراك لديه لم تُؤدِّ مهمتها بَعْد .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ[1] .. (٧٨) ﴾ [النحل]

وقد بيَّن لنا علماء وظائف الأعضاء أن هذا الترتيب القرآني للأعضاء هو الترتيب الطبيعيّ ، فالطفل بعد الولادة يسمع أولاً ، ثم بعد حوالي عشرة أيام يُبصر .. وتستطيع تجربة ذلك ، فترى الطفل يفزع من الصوت العالي بعد أيام من ولادته ، ولكن إذا وضعت أصبعك أمام عينيه لا يطرف ؛ لأنه لم يَرَ بعد .

ومن السمع والبصر ـ وهما السادة على جميع الحواس ـ تتكون المعلومات التي في الأفئدة ، هذا الترتيب القرآني الوجودي ، وهو الترتيب الطبيعي الذي وافق العلمَ الحديث .

ونلاحظ في الآية إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨) ﴾ [النحل]

---

(١) أي : وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي . والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه . والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . [قاله القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٧٧)] .

فلماذا لم يأتِ السمع جَمْعاً ؟

المتحدث هنا هو الحق سبحانه ؛ لذلك تأتى الألفاظ دقيقة معجزة .. ولننظر لماذا السمع هنا مفرد ؟

فَرْقٌ بين السمع وغيره من الحواس ، فحين يوجد صوت فى هذا المكان يسمعه الجميع ، فليس فى الأذن ما يمنع السمع ، وليس عليها قُفْل نقفله إذا أردنا ألاَّ نسمع ، فكأن السمع واحد عند الجميع ، أما المرئى فمختلف ؛ لأننا لا ننظر جميعاً إلى شىء واحد .. بل المرائى عندنا مختلفة فهذا ينظر للسقف ، وهذا ينظر للأعمدة .. إلى آخره .

إذن : المرائى لدينا مختلفة .. كما أن للعين قُفْلاً طبيعياً يمكن إسْداله على العين فلا ترى ، فكأن الأبصار لدينا مختلفة متعددة .

وكذلك الحال فى الأفئدة ، جاءت جَمْعاً ؛ لأنها متعددة مختلفة ، فواحد يَعِي ويُدرك ، وآخر لا يعى ولا يدرك ، وقد يعى واحد أكثر من الآخر .

إذن : إفراد السمع هنا آيةٌ من آيات الدقة في التعبير القرآنى المعجز ؛ لأن المتكلمَ هو ربُّ العزة سبحانه .

ونلاحظ أيضاً تقديم السمع على باقى الحواس ؛ لأنه أول الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أنْ يُولدَ إلى أنْ يفارق الحياة ، ولا يغيب عنه حتى لو كان نائماً ؛ لأن بالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد قُلْنا فى قصة أهل الكهف أنهم ما كان لهم أن يناموا فى سُبات[١] عميق ثلاثمائة وتسع سنين إلا إذا حجب الله عنهم هذه

---

(١) السبات : النوم . قال الزجاج : : هو أن ينقطع عن الحركة ، والروح فى بدنه . والسبت : القطع ، فكأنه إذا نام فقد انقطع عن الناس . [لسان العرب ـ مادة : سبت] .

الحاسة ، فلا تزعجهم الأصوات . فقال تعالى :

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]

أى : قُلْنا للأذن تعطَّلى هذه المدة حتى لا تزعجهم أصوات الصحراء ، وتقلق مضاجعهم ، والله تعالى يريد لهم السُّبات والنوم العميق .

وفى قوله تعالى :

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]

هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج (الميلاد) أم هى موجودة قبله ؟.. يجب أنْ نُفرِّق بين السمع وآلته ، فقبل الإخراج تتكون للجنين آلات البصر والسمع والتذوّق وغيرها .. لكنها آلات لا تعمل ، فالجنين فى بطن أمه تابع لها ، وليست له حياة ذاتية ، فإذا ما نزل إلى الدنيا واستقلّ بحياته يجعل الله له هذه الآلات تعمل عملها .

إذن : فمعنى :

﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]

أى : جعل لكم الاستماع ، لا آلة السمع .

وقوله :

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]

تُوحى الآية بأن السمع والأبصار والأفئدة ستعطى لنا كثيراً من المعلومات الجديدة والإدراكات التى تنفعنا فى حياتنا وفى مُقوِّمات وجودنا ، وننفع بها غيرنا ، وهذه النعم تستحقّ منا الشكر .

فكلما سمعتَ صوْتاً أو حكمة تحمد الله أن جعل لك أذناً تسمع ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعلَ لك عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشمُّ .. وهكذا تستوجب النعم شُكْر المنعم سبحانه .

ولكي تقف على نِعَم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرِموا منها ، وتأمَّل حالك وحالهم ، وما أنت فيه من نعم الحياة ولذّاتها ، وما هُمْ فيه من حِرْمَان .

ثم ينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه ينقلنا هنا إلى صورة أخرى من صُوَر الكون .. بعد أن حدّثنا عن الإنسان وما حوله .. فالإنسان قبل أنْ يخلقه الله في هذا الوجود أعدَّ له مُقوِّمات حياته ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء والمياه والهواء ، كل هذه أشياء وُجِدتْ قبل الإنسان ، لِتُهيىء له الوجود في هذا الكون .

والله سبحانه يريد منّا بعد أنْ كفلَ لنا استبقاء الحياة بالرزق ، واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ، يريد منّا إثراء عقائدنا بالنظر في ملكوت الله وما فيه من العجائب ؛ لنستدل على أنه سبحانه هندسَ كَوْنه هندسة بديعة متداخلة ، وأحكمه إحكاماً لا تصادم فيه .

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

فالنظر إلى كَوْن الله الفسيح ، كم فيه من كواكب ونجوم وأجرام . كم هو مليء بالحركة والسكون والاستدارة . ومع ذلك لم يحدث فيه تصادم ، ولم تحدث منه مضرة أبداً في يوم من الأيام .. الكون كله يسير بنظام دقيق وتناسق عجيب ! ولكي تتجلى لك هذه الحقيقة انظر إلى صَنْعة الإنسان ، كم فيها من تصادمات وحوادث يروح ضحيتها الآلاف .

هذا مَثلٌ مُشاهَد للجميع ، الطير في السماء .. ما الذي يُمسكها أنْ تقعَ على الأرض ؟ وكأن الحق سبحانه يجب أنْ يُلفتنا إلى قضية أكبر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

فعلينا أن نُصدِّق هذه القضية .. فنحن لا ندرك بأعيننا جِرْم الأرض ، ولا جِرْم الشمس والنجوم والكواكب .. نحن لا نقدر على معرفة كل مَا في الكون .. إذن : يجب علينا أن نُصدِّق قوْل ربنا ، ولا نجادل فيه .

وإليكم هذا المثل الذي تشاهدونه كل يوم :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل]

إياك أنْ تقول إنها رَفْرفة الأجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثبِّت أجنحته في الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض ، فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع ؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ .. (١٩) ﴾ [الملك]

أي : أنها في حالة بَسْط الأجنحة ، وفي حالة قَبْضِها تظل مُعلَّقة لا تسقط .

وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور .

إذن : ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هي آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جَوِّ السماء .. فتراه حُراً طليقاً لا يجذبه شيء إلى الأرض ، ولا يجذبه شيء إلى السماء ، بل هو حُرٌّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع ، وينزل إنْ أراد النزول .

فهذه آية مُحسَّة لنستدلَّ بها على قدرة الله غير المحسَّة إلا بإخبار الله عنها ، فإذا ما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

آمنا وصدَّقنا .

---

(١) أي : باسطات أجنحتها . قال ابن كثير في تفسيره (٤/٣٩٨) : « أي : تارة يصففن أجنحتهن في الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً » .

وقوله تعالى :

﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ .. (٧٩)﴾ [النحل]

أى : فى الهواء المحيط بالأرض ، والمتأمل فى الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسى فى ثبات الأشياء فى الكون ، فالجبال والعمارات وغيرها .. ما الذى يمسكها أنْ تقع ؟

إياك أن تظن أنه الأسمنت والحديد وهندسة البناء .. لا .. بل يمسكها الهواء الذى يحيط بها من كل جانب ، بدليل أنك لو فرَّغتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فوراً نحو هذا الجانب ؛ لأن للهواء ضغطاً ، فإذا ما فرَّغْتَ جانباً منها قَلَّ فيه الضغط فانهارتْ .

فالهواء ـ إذن ـ هو الضابط لهذه المسألة ، وبالهواء يتوازن الطير فى السماء ، ويسير كما يهوى ، ويتحرك كما يحب .

ثم يقول تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾ [النحل]

أى : أن الطير الذى يطير فى السماء فيه آيات أى عجائب ، عجائب صَنْعة وعجائب خَلْق ، يجب أنْ تتفكَّروا فيها وتعتبروا بها .

ولكى نقف على هذه الآية فى الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران .. إنه العربى عباس بن فرناس[1] ، أول مَنْ حاول

(١) مخترع أندلسى ، من أهل قرطبة ، كان فى عصر الخليفة عبد الرحمن الثانى فى القرن التاسع للميلاد ، كان فيلسوفاً شاعراً ، له علم بالفلك ، وهو أول من صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات ، مثَّل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها توفى عام ٢٧٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٢٦٤] .

الطيران في الأندلس ، فعمل لنفسه جناحين ، وألقى بنفسه من مكان مرتفع .. فماذا حدث لأول طائر بشرى ؟

طار مسافة قصيرة ، ثم هبط على مُؤخرته فكُسرت ؛ لأنه نسى أن المسألة ليست مجرد الطيران ، فهناك الهبوط الذى نسى الاستعداد له ، وفاته أن يعمل له (زِمكّى)[1] ، وهو الذيل الذى يحفظ التوازن عند الهبوط .

وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف ؟ وكم فيها من أجهزة ومُعدات قياس وانضباط ؟ وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو مُوجّه يُوجِّهها ، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير فى السماء له جناحان ومقدمة وذيل ، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطّل محركها .. أو اختلّ توازنها ؟!

إذن : الطير فى السماء آية تستحق النظر والتدبُّر ؛ لنعلمَ منها قدرة الخالق سبحانه .

ويقول تعالى :

﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل]

يؤمنون بوجود واجب الوجود ، يؤمنون بحكمته ودقَّة صُنْعه ، وأنها لا مثيلَ لها من صنعة البشر مهما بلغتْ من الدقة والإحكام .

---

(١) الزّمك : إدخال الشيء بعضه فى بعض . والزِّمكّى : أصل ذنب الطائر ، وقيل : هو منبته ، وقيل : هو ذنبه كله . [لسان العرب ـ مادة : زمك]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا[2] وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

كلمة سكن مأخوذة من السكون ، والسكون ضد الحركة ، فالبيت نُسمّيه سكناً ؛ لأن الإنسان يلجأ إليه ليرتاح فيه من حركة الحياة خارج البيت ، إذن : في الخارج حركة ، وفي البيت سكن .

والسكن قد يكون مادياً كالبيت وهو سكن القالب ، وقد يكون معنوياً ، كما قال تعالى في حقّ الأزواج :

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم]

فالزوجة سكنٌ معنويٌّ لزوجها ، وهذا يُسمّونه سكن القلب .

فإنْ قال قائل :

﴿ مِّنۢ بُيُوتِكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان . أي : السفر . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

(٢) الأثاث : المال كله والمتاع ، ما كان من لباس أو حشو لفراش أو دثار . [لسان العرب ـ مادة : أثث] .

يعنى : نحن الذين صنعناها وأقمناها . فكيف جعلها الله لنا ؟.

نقول : وأنت كيف صنعتها ؟ وممَّ بنيْتها ؟ صنعتَها من غابٍ أو خشب ، أو بنيْتها من طين أو طوب .. كل هذه المواد من مادة الأرض من عطاء الله لك ، وكذلك العقل الذى يُفكّر ويرسم ، والقوة التى تبنى وتُشيّد كلها من الله .

إذن : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ إما أنْ يكون جَعْلاً مباشراً ، وإما أنْ يكون غير مباشر .. فالله سبحانه جعل لنا هذه المواد .. هذا جَعْل مباشر ، وأعاننا وقوّانا على البناء .. هذا جَعْلٌ غير مباشر .

لكن فى أىّ الأماكن تُبنى البيوت ؟

البيوت لا تُبنَى إلا فى أماكن الاستقرار ، التى تتوفر لها مُقوّمات الحياة .. فقبل أن نُنظّم مدينة سكنية نبحث أولاً عن مُقوّمات الاستقرار فيها من مأكل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه وصرف .. إلى آخره .

فإن وجدت هذه المقوّمات فلا مانعَ من البناء هنا .. فإذا لم توجد المرافق فى الصحراء ومناطق البدو ، هنا لا يناسبها البيوت والبناء الدائم ، بل يناسبها :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. (٨٠) ﴾ [النحل]

فنرى أهل البدو يتخذون من الجلود بُيُوتاً مثل الخيمة والفسطاط .. حيث نراهم كثيرى التنقُّل يبتغون مواطن الكلأ والعشب ، ويرحلون طلباً للمرعى والماء ، وهكذا حياتُهم دائمة التنقّل من مكان

لآخر .. فيناسبهم بيت من جلد أو من صوف أو من وَبَر خفيف الحَمْل ، يضعونه أينْما حَطُّوا رحالهم ، ويرفعونه أينما ساروا .. والظَّعْن هو التنقُّل من مكان لآخر .

إذن : كلمة (سكن) تفيد الاستقرار ، وتُوفّر كل مُقوّمات الحياة ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لآدم :

﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

أى : المكان الذى فيه راحتكم ، وفيه نعيمكم ، فحدّد له مكان إقامة وسكَن ..

ومكان الإقامة هذا قد يكون عَامّاً ، وقد يكون خاصاً ، مثل لو قُلْت : أسكن الاسكندرية .. هذا سكَنٌ عام ، فلو أردتَ السكن الحقيقى الخاص بك لَقُلْتَ : أسكن فى شارع كذا ، وفى عمارة رقم كذا ، وفى شقة رقم كذا ، وربما كان لك حجرة خاصة من الشقة هذه .

إذن : هذا سكَنٌ خاص بك .. سكنُك الحقيقى الذى تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتىٍّ لا يشاركك فيه أحد ؛ ولذلك نرى بعض سكان العمارات يشكُون من الإزعاج والضوضاء ، ويتمنونَ أن يعيشوا فى بيوت مستقلة تُحقّق لهم الراحة الكافية التى لا يضايقهم فيها أحد .

إذن : حينما ننظر إلى السكون .. إلى السكن ، نحتاج المكان الضيق الذى يُحقّق لنا الخصوصية التامة التى تصل إلى حجرة ، مجرد حجرة ، ولكنها تعنى السكن الحقيقى الخاص بى ، وقد تصل

الخصوصية أنْ نجعلَ لكل ولد من الأولاد سريراً خاصاً به في نفس الحجرة .

فإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة وجدنا الإنسان على العكس يطلب السعة ؛ لأن الحركة تقتضي السعة في المكان ، فمَنْ كان عنده مزرعة يطلب عزبة ، ومَنْ كان عنده عزبة يتمنى ثانية وثالثة وهكذا ؛ لأن حركة الحياة تحتاج مجالاً واسعاً فسيحاً .

هذا عن النوع الأول ، وهو السكن المادي سكن القالب ، وهو من أعظم نِعَم الله على عباده .. أن يكون لهم سكَن يأوون إليه ، ويرتاحون فيه من عناء وحركة الحياة .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه أن يُعذِّب بني إسرائيل ، أشاع سكنهم في الأرض كلها ، وحرمهم من نعمة السكن الحقيقي الخاص ، فقال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

فالأرض هي المكان العام الذي يسكن فيه كل الناس .. فليس لهم بلد تجمعهم ، بل بدَّدهم الله في الأرض ولم يجعل لهم وطناً ، كما قال في آية أخرى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

حتى في البلاد التي يعيشون فيها تراهم معزولين عن الناس في أماكن خاصة بهم لا يذوبون في غيرهم ، وهكذا سكنوا الأرض ، ولم تحدد لهم بلد .

أمـا النـوع الثـانى من السكـن ، وهو السكن المـعنوى أو سكن القلب ، فهـو سكن الزوج إلى زوجتـه الصالحة التى تُخـفّف عنه عناء الحياة وهمومـها ، تبتسم في وجهه إنْ كـان مسـروراً وتُهدّىء من غضبه إنْ كان مُغْضَباً ، تحتويه بما لديها من حُب وحنان وإخلاص .. هذا هو السكن المعنوى ، سكن القلب .

وقوله :

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾ [النحل]

الأصواف للغنم ، والأوبار لـلإبل ، والشعر للمـاعز .. فمـا الفرْق بين هذه الثلاث فى الاستعمال ؟

يستـعمل الناس كـلاً من الصوف والوبر ؛ لأن الشُـعيـرات فيـها دقيـقة جـداً يمكن نَدْفها وغَـزْلها والانتـفاع بها فى الـفُرش والأبسطة والألحفة والملابس وغيرها مما يحتاجه الناس .

أما شعر الماعـز فالشعيرات فيه ثخينة لا يمكـن نَدْفها أو غَزْلها ، فلا يمكن الانتفاع به فى هذه المنسوجات ، وقوله تعالى :

﴿ أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾ [النحل]

الأثاث : هو مـا يوجـد فى البـيت ممـا تتطلبـه حـركة الـحيـاة كالأبسطة والمفارش والملابس والستائر .

والمتاع : هو ما يُستمتع ويُنتفع به .. والفرْق بينهما أن الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغير كثيراً ، أما المتاع فقد يتغير حسب الحاجة .

فأنت مثلاً قد تحتاج إلى تغيير التلفاز القديم لتأتى بآخر حديث ، ملوّن مثلاً ، لكن قلّما تُغير الثلاجة أو الغسالة مثلاً .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ ﴾ [النحل]

لأن الإنسان قد يغتر حين يستوفى متطلبات حياته ، وقد تلهيه هذه النعم عن مطلوب المنعم سبحانه ، فينشغل بالنعمة التى هو فيها عن المنعم الذى أنعم عليه بها .. فتأتى هذه الآية مُحذِّرة .

إياك أنْ تغترّ بالمتاع والأثاث ؛ لأنها متاع إلى حين .. متاعٌ موقوت لا يدوم ، ومهما استوفيت حظّك منها فى الدنيا فإنها صائرة إلى أمرين :

إما أن تفوتها بالموت ، وإما أنْ تفوتك بالفقر والحاجة ـ إذن : هى ذاهبة ذاهبة .. فتذكَّروا دائماً قوله تعالى :

﴿ إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ ﴾ [النحل]

فمتاع النعمة موقوت ، لكن متاع المنعِم سبحانه خالد ..

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا[1] وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ[2] تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝٨١ ﴾

(١) الكِنُّ : ما يُصان أو يستتر فيه الشىء . والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

(٢) السربال : القميص يقى الحر والبرد . أما قوله تعالى : ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. ۝٨١ ﴾ [النحل] فهى الدروع . [لسان العرب ـ مادة : سربل] .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار ، ويجدون مُقوِّمات الحياة ، وتكلم عن أهل الترحال والتنقُّل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم . ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً ، ولا حتى جلود الأنعام .. ماذا يفعل هؤلاء ؟

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظلِّون به من وهج الشمس ، وجعل لهم من الكهوف والسراديب فى الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه . وهكذا استوعبتْ الآيات جميع الحالات التى يمكن أن يكون عليها بشر ، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس ، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله .

أما مَنْ لا يملك بيتاً يأويه ، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتاً ، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حَرِّ الشمس ، وجعل له كهوف الجبال تُكنّه وتأويه .

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرتْ الظل الذى يقينا حَرَّ الشمس ، ولم تذكر مثلاً البرد ؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهى بلاد حارة ، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدِّفء .

وقوله :

﴿ظِلالاً .. ﴿٨١﴾﴾ [النحل]

الظلال جمع ظل ، وهو الواقى من الشمس ومن إشعاعاتها ، وقد يُوصَف الظل بأنه ظل ظليل .. أى : الظل نفسه مُظلل ، وهذا ما نراه فى صناعة الخيام مثلاً ، حيث يجعلون لها سقفاً من طبقة واحدة

تتلقّى حرارة الشمس ، وإنْ حجبت أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة ، وهنا يلجأون إلى جَعْل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس .

وهنا نقول : إن الظلّ نفسه مُظلّل ، وكذلك الحال في ظل الأشجار حيث يظلّل الورق بعضه بعضاً ، فتشعر تحت ظلّ الأشجار بجوٍّ لطيف بارد حيث يغطيك ظلٌّ ظليل يحجب عنك ضوء الشمس ، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق .

لذلك فالشاعر يقول في وصف روضة :

وَقَانَا لَفْحةَ الرمْضَاءِ وَادٍ ... سَقَاهُ مضاعف الغيْثِ العَمِيمِ

يَصُدُّ الشمسَ أنَّى وَاجهتْنا ... فيحجُبها ويأذنُ للنسِيمِ

وهكذا الأشجار تحجب عنا الضارّ ، وتسمح بالنافع .

وقوله : ﴿ أَكْنَانًا .. (٨١) ﴾ [النحل]

جمع كِنّ ، وهو الكهف أو المغارة في الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمي بها ، والكِنّ من الستر ؛ لأنها تستر الناس ونحن نقول مثلاً للولد : انكنْ يعني : اسكُنْ واستتر .

ويقول تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١) ﴾ [النحل]

السرابيل : هي ما يُلبس من الثياب أو الدروع :

﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل]

أى : تحميكم من الحر .. فقال هنا الحر أيضاً ؛ لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية فقال : المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ، ففى الآية اكتفاءٌ بالحر عن البرد ؛ لأن الشىء إذا جاء يأتى مقابله .. فليس بالضرورة ذكر الحالتين ، فإحداهما تعنى الأخرى .

هذا دفاع مشكور منهم ، ومعنى مقبول حول هذه الآية .. لكن لو فَطِنَّا إلى باقى الآيات التى تحدثتْ فى هذا الموضوع لوجدناها : واحدة تتكلم عن الحر ، وهى هذه الآية ، وأخرى تتكلّم عن البرد فى فى قوله تعالى :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ .. ۝ ﴾ [النحل]

أى : من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد ، وما نستدفىء به .. وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى .

والمتأمل فى تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملبوسات لا يعطى للإنسان حرارة تُدفئه ، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط ، فحرارة الإنسان ذاتيةٌ من داخله ، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان .

والأطباء يقولون : إن الجسم السليم حرارته ٣٧° لا تختلف إنْ عاش عند خط الاستواء أو عاش فى بلاد الاسكيمو فى القطب الشمالى ، فهذه هى الحرارة العامة للجسم .

فى حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفتْ درجة حرارتها ، كُلٌّ حَسب ما يناسبه : فالكبد مثلاً درجة حرارته ٤٠° ، وتختل

وظيفتـه إذا نقصت عن هذه الدرجة ، فى حين أن درجـة حرارة جَفْن العين مثلا ٩° ، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حيّة العين ، ويفقد الإنسان البـصر .. فسبحان الله الـذى حفظ حرارة هذه الأعـضاء فى الجسم لا يطغى أحدها على الآخر .

لذلك حـينمـا سافـرنا إلى أمـريكا ، وفى إحـدى مناطق البـرودة الشـديدة كانت أول نصـائحهم لنا ألاّ نـمسك آذاننا بأيدينا .. لمـاذا ؟ قالـوا : لأن درجة حرارة اليـد أقلّ من درجة حـرارة الأذن ، ووَضْع اليد الباردة على الأذن قد تُسبِّب كثيراً من الأضرار .

إذن : كل مـا نستـخدمـه من ملابس وأغـطية تقـينا برد الشتـاء لا تعطينا حـرارة ، بل تحفظ علينا حـرارتنا الطبيـعيـة فلا تتـسرب ، وبذلك تتم التدفئة .. وتستطيع أنْ تضعَ يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً ، أما فى الصباح فتـجده دافئاً .. فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك ، وليس العكس .

وقوله :

﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل]

البـأس هنا : أى الحـرب ، والسـرابيل الـتى تقى من البـأس هى الدروع التى يلبسها الجنود فى الحرب لتقيهم الضربات .

ولكن هذه الآية فى سـيـاق الحديث عن بعض نِعَـم الله علينا فى الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال .. حياة دَعَة وسلام ونعمة ، فما الداعى لذكر الحرب هنا ؟

ذلك لأن الحـياةَ لهـا منطق سـلامة للجـمـيع ، فإن اخـتلّ منطق

السلامة فعلى الناس أنْ يقفوا فى وجه مَنْ يُخِلّ بسلامة المجتمع .. وأن يكون على استعداد لذلك فى كل وقت ، لابُدَّ فى وقت السِّلْم أنْ نُعِدَّ العُدَّة للحرب ؛ لذلك تحدث عن الحرب وعُدتها ، وهو يتحدث عن السكون والاستقرار والنعمة .

والحق سبحانه وتعالى حين يُنزِل الآيات البينات التى تحمل لنا منهج السماء يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

هذا هو المنهج الذى يعتمد على الحجة والإقناع .. فإن لم يصلح هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر ، يقول تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[1] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ .. (٨١) ﴾ [النحل]

كان من تمام نعمة الله أنْ نحفظها ممنْ يُفسدها علينا ، ونقف له بالمرصاد ونضرب على يده ؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسدين فى مجتمعنا فسوف يُفسدون علينا هذه النِّعم ، وسنظل مُهدَّدين ، لا نشعر بلذة الحياة ومُتعها .

---

(١) البأس : الشدة والقوة . قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أى قوة وصلابة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

إذن : لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل]

تُسلمون : أى تُلْقُون زمام الاستسلام إلى الله الذى أسلمتَ له ، وأنت لا تُلقى زمامك إلا لمنْ تثق فيه .. والإنسان قد يُلقى زمامه فى أمر لا يجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر ، فإذا كنتَ فى حاجات نفسك تُلقى زمامك لمن هو مثلك ، ويساويك فى قلّة المعلومات ، ويساويك فى قلّة الحكمة ، ومع ذلك تُسلم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت ، أفلا تُلقى زمامك وتُسلم أمرك إلى ربك وخالقك ، وخالق كُلّ هذه النعم من أجلك ؟

إذن : جاء ذكْر هذه النعم ، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى تُسلمَ عن يقين واقتناع ، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة فى طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، إنْ أطعناه فلن نزيد فى مُلْكه سبحانه ، وإنْ عصيناه فلن ننقصَ من مُلْكه سبحانه .

إذن : تسليمنا الأمر والزمام لله من مصلحتنا نحن .. فالإنسان حينما يُسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تَلْوى رأيه فى المسألة ، إنَما ربُّنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكْماً فليس له مصلحة فيه فلا يَلْوَى ، لا يكون إلاّ لصالحك .

وبعد أنْ عدّد هذه النعم فى الذات والمحيطات وفى السكن وفى الانطباعات . قال : إياك بعد ذلك أنْ تُسلمَ زمامك لغيرى ، وإنْ أجريتُ عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة ؛ لأننى لا أجرى عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه .

لذلك نقول : لا عبادة كالتسليم ؛ لأن التسليم لحكْمه تسليمٌ

لحكيم ، تسليمٌ لغير منتفع .. وما دُمْتَ قد سلمْتَ زمامك لربك عز وجل يُجلِّى لك الحكمة فيما جرى لك من الأحداث لتعلمَ رضاك عن حُكْمه لحكمته ، فتقول : أنا رضيتُ بحكمك يا رب .

ولذلك نقول فى الدعاء : أحمدك على كُلِّ قضائك ، وجميع قَدرِك حَمْد الرِّضا بحكمك لليقينِ بحكمتك .

أى : لك حكمة يارب فيما أجريتَ علىَّ من أحداث ، ولكنى لا أراها .

والذى يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط ؛ لأنه بذلك يُطيل على نفسه أمدَ القضاء ؛ لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به ، فالله تعالى لا مُجبر له .

فإن أردت رَفْع القضاء فارْضَ به أولاً ، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضى من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضَجِراً .

فالذى يُسلم زَمامه إلى الله ويردَ كل حدث وقع أو بلاء نزل به يردُّه إلى الله ، وإلى حكمة مُجريه ، الله تعالى يقول له : لقد فهمتَ عنى ، ويرفع عنه البلاء .

وفى مقام التسليم لله دائماً نذكر قصة سيدنا إبراهيم حينما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل ـ عليهما السلام .. وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبتلَى الرجل بذبح ولده الذى رُزِقه على كِبَر ، ويذبحه هو بيده .

إنه ابتلاء من مراتب مُتعدِّدة ، ومن نَواحٍ مختلفة ، وليْتَ الأمر بوحى ظاهر ، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأوَّل فيه ، ولكن رؤيا الأنبياء حق .

ونرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقصُّ على ولده المسألةَ حرْصاً عليه أنْ يتحوّل قلبه عن أبيه ساعةَ يأخذه ليذبحه ، وأيضاً لكى يشاركه ولده فى الرضا بقدر الله ، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء .. فقال له :

﴿ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

فليس الغرض هنا أنْ يزعجه أو يُخيفه ، ولكن ليقول له : هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضاً ، ولا يتغير قلبه على أبيه .

ولذلك كان الولد حكيماً فى الرد ، فقال :

﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

ما دام الأمر من الله فافعل ، وهكذا سلّم إسماعيلُ كما سلّم إبراهيم ، فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات]

أسلما : أى الأب والابن ، ورَضيا بقضاء الله ، جاء الفرج ورُفِع القضاء ، فقد فهم كل منهما الأمر عن الله ، فلم يرفع القضاء وفقط ، بل وفديناه بذبح عظيم ، ليس هذا وفقط ، بل ومنَنّا عليه بولد آخر :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢) ﴾ [الصافات]

إذن : لعلكم تُسْلمون زمامكم إلى الله ، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجِدكم فيه ، وأمدّكم بكل متطلبات الحياة ضماناً لبقاء

---

(١) تله : ألقاه على عنقه وخده . كما تقول كبّه لوجهه . [لسان العرب ـ مادة : تلل] .

حياتكم ، وضماناً لبقاء نوعكم ، ومتَّعكم هذه المتع .

فالذى أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جدير أنْ تُسلموا له زمام أمركم وتُسلموا له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾

أى : لا تحزن يا محمد إذا أعرض قومك ، فلستَ مأموراً إلا بالبلاغ ، ويخاطبه الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

أى : مهلكها . وقال تعالى :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

لكن الدين لا يقوم على السيطرة على القالب ، وفَرْق بين السيطرة على القالب والسيطرة على القلب ، فيمكنك بمسدس فى يدك أنْ تُرغمني على ما تريد ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبى على شيء لا يؤمن به ، والله يريد منّا القلوب لا القوالب ، ولو أراد منّا القوالب لجعلها راغمة خاضعة لا يَشذُّ منها واحد عن مراده سبحانه .

ولذلك حينما أرسل الله سليمان ـ عليه السلام ـ وجعله ملكاً رسولاً لم يقدر أحد أن يقف فى وجهه أو يعارضه لما له من

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/ ٥٦] .

السلطان والقوة إلى جانب الرسالة .. أمَّا الأمر فى دعوته ﷺ فقائم على البلاغ فقط دون إجبار .

وقوله : ﴿ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها ، فقد جاء المنهج الإلهى شاملاً للحياة بداية بقول : لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق ، فلم يترك شيئاً إلا حدَّثنا فيه ، فهذا بلاغ مبين محيط لمصالح الناس .. فلا يأتى الآن مَنْ يتمحك ويقول : ربنا ترك كذا أو كذا .. فمنهج الله كامل ، فلو لم تأخذوه ديناً لوجب عليكم أن تأخذوه نظاماً .

ونرى الآن الأمم التى تُعادى الإسلام تتعرَّض لمشاكل فى حركة الحياة لا يجدون لها حَلاً فى قوانينهم ، فيضطرون لحلول أخرى تتوافق تماماً أو قريباً من حلّ القرآن ومنهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وقد حكى القرآن عنهم فى آيات أخرى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال عنهم :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

ذلك لأنهم يعلمون تماماً أن الله خلقهم ، وأنه خلق السموات والأرض .. يعلمون كل نِعَم الله عليهم ، ومع ذلك يُنكرونها ويجحدونها .. لماذا ؟

لأن الإيمان بالله والاعتراف بنعمه مسألة شاقة عليهم ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها .. ما أسهل أنْ يقولوا « لا إله إلا الله » لكنهم يعلمون أن : لا إله إلا الله لها مطلوبات ، فما دام لا إله إلا الله ، فلا يُشرِّع إلا الله ، ولا يأمر إلا الله ، ولا يَنْهى إلا الله ، ولا يُحِلُّ إلا الله ، ولا يُحرِّم إلا الله .

إذن : مطلوبات لا إله إلا الله جعلتهم فى قالب من حديد ، منضبطين بمنهج يهدم سيادتهم ، ويمنع الطغيان والجبروت ، منهج يُسوِّى بين السادة والعبيد .

إذن : الدين الحق يُقيِّد حركتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، فتراهم يعرفون الله ولا يؤمنون به ؛ لأنهم يعلمون مطلوبات لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإلا لو كانت مجرد كلمة لقالوها .

وقوله :

﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾ [النحل]

بعض العلماء يقولون : أكثرهم يعنى كلهم .. لا .. بل هذا أسلوب قرآنى لصيانة الاحتمال وللاحتياط للقلة التى تفكر فى الإسلام ويراودها أمر هذا الدين الجديد من هؤلاء الكفار ، لابدّ أنْ نُراعى أمر هذه القلة ، ونترك لهم الباب مفتوحاً ، فالاحتمال هنا قائم ..

فلو قال القرآن : كلهم كافرون لتعارض ذلك مع هؤلاء الذين

يفكرون فى أنْ يُسلموا .. وكذلك مراعاة لهؤلاء الذين لم يبلغوا حَدَّ التكليف من أبناء الكفار .

إذن : قوله ﴿ وأكْثرهُمْ ﴾ تعبير دقيق ، فيه ما نُسمّيه صيانة الاحتمال .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) ﴾

الحق تبارك وتعالى يُنبّهنا هنا إلى أن المسألة ليست ديناً ، وتنتهى القضية آمن مَنْ آمن ، وكفر مَنْ كفر .. إنما ينتظرنا بعث وحساب وثواب وعقاب .. مرجع إلى الله تعالى ووقوف بين يديه ، فإنْ لم تذكر الله بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للقائك به لاحقاً .

والشهيد : هو نبيُّ الأمة الذى يشهد عليهم بما بلّغهم من منهج الله .

وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فكان أمة محمد ﷺ أعطاها الله أمانة الشهادة على الخَلْق لأنها بلغتهم ، فكل مَنْ آمن برسول الله ﷺ مطلوب منه أن يُبلّغ ما بلّغه الرسول ، ليكون شاهداً على مَنْ بلغه أنه بلّغه :

﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٨٤)﴾ [النحل]

فحينما يشهد عليهم الشهيد لا يُؤْذَن لهم في الاعتذار ، كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات]

أو حينما يقول أحدهم :

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

فلا يُجَاب لذلك ؛ لأنه لو عاد إلى الدنيا لفعل كما كان يفعل من قبل ، فيقول تعالى :

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨)﴾ [الأنعام]

وقوله :

﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾ [النحل]

يستعتبون : مادة استعتب من العتاب ، والعتاب مأخوذ من العَتْب ، وأصله الغضب والموجدة تجدها على شخص آخر صدر منه نحوك ما لم يكن مُتوقَّعاً منه .. فتجد في نفسك موجدة وغضباً على مَنْ أساء إليك .

فإن استقرّ العَتْب الذي هو الغضب والموجدة في النفس ، فأنت إمّا أنْ تعتب على مَنْ أساء إليك وتُوضّح له ما أغضبك ، فربما كان له عُذْر ، أو أساء عن غير قصد منه ، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك .. فتقول : عتَب فلان على فلان فأعتبه ، أي : أزال عَتْبه .

والإنسان لا يُعاتب إلا عزيزاً عليه يحرص على علاقته به ، ويضعه موضعاً لا تتأتى منه الإساءة ، ومن حقه عليك أن تعاتبه ولا تدعْ هذه الإساءة تهدم ما بينكما .

إذن : معنى :

﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) ﴾ [النحل]

أى : لا يطلب أحد منهم أنْ يرجعوا عما أوجب العَتْب وهو كفرهم .. فلم يَعُد هناك وقت لعتاب ؛ لأن الآخرة دار حساب ، وليست دار عمل أو توبة .. لم تَعُدْ دارَ تكليف .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) ﴾

﴿ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ .. (٨٥) ﴾ [النحل]

كان العذاب سيُنصب أمامهم ، فيرونه قبل أن يباشروه ، وهكذا يجمع الله عليهم ألواناً من العذاب ؛ لأن إدراكات النفس تتأذى بالمشاهدة قبل أنْ تألم الأحاسيس بالعذاب ؛ لذلك قال :

﴿ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ .. (٨٥) ﴾ [النحل]

وقوله : ﴿ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ .. (٨٥) ﴾ [النحل]

أى : لا يُمْهَلُون ولا يُؤجَلون .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ذلك حينما يجمع الله المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس والجن والأصنام ، وكل مَنْ أشركوه مع الله وَجْهاً لوجه يوم القيامة ، وتكون بينهما هذه المواجهة .. حينما يرى المشركون شركاءهم الذين أضلُّوهم وزيّنوا لهم المعصية ، وزيّنوا لهم الشرك والكفر بالله .. يقولون : هؤلاء هم سببُ ضلالنا وكُفْرنا .. كما قال تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ]

وقوله :

﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [النحل]

أى : ردُّوا عليهم بالمثل ، وناقشوهم بالحجة ، كما قال تعالى فى حقّ الشيطان .

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

إذن : ردّوا عليهم القول : ما كان عليكم سلطان . نحن دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا قوة تُرغمكم على الفعل ، ولا حُجّة تُقنعكم بالكفر ؛ ولذلك يتهمونهم بالكذب :

﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) ﴾ [النحل]

أى : كاذبون فى هذه الدعوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ[2] وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾

السَّلَم : أى الاستسلام .. فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهْلة ، تعمل أو لا تعمل . إنما الآن ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ؟ الأمر والملك لله ، وما داموا لم يُسلّموا طواعية واختياراً ، فَلْيُسلّموا له قَهْراً ورَغْماً عن أنوفهم .

وهنا تتضح لنا مَيْزة من مَيْزات الإيمان ، فقد جعلنى أستسلم لله

(١) المُصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

(٢) أى : استسلم المشركون لعذابه وخضعوا لعزه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٩٠] .

عز وجل مختاراً ، بدل أنْ أستسلمَ قَهْراً يوم أنْ تتكشَف الحقيقة على أنه لا إله إلا الله ، وسوف يُواجهني سبحانه وتعالى في يوم لا اختيار لى فيه .

وقوله :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النحل]

كلمة : الضلال تردُ بمعانٍ متعددة ، منها : ضلَّ أى غاب عنهم شفعاؤهم ، فأخذوا يبحثون عنهم فلم يجدوهم ، ومن هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة]

أى : يغيبوا فى الأرض ، حيث تأكل الأرض ذرّاتهم ، وتُغيِّبهم فى بطنها .. وكذلك نقول : الضالة أى الدابة التى ضلّتْ أى : غابتْ عن صاحبها .

ومن معانى الضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ..﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

ومن معانيه : التردد ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى]

فلم يكُنْ لرسول الله ﷺ منهج ثم تركه وانصرف عنه وفارقه ، ثم هداه الله .. بل كان ﷺ مُتحيِّراً مُتردِّداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقول الراجحة من أفعال تتنافى مع العقل السليم والفطرة النَّيرة ،

فكانت حيرة الرسول ﷺ فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها .

فقوله :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : غاب عنهم :

﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : يكذبون من ادعائهم آلهةً وشفعاءَ من دون الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾

هنا فرْق بين الكفر والصَّدّ عن سبيل الله ، فالكفر ذنب ذاتىّ يتعلق بالإنسان نفسه ، لا يتعدّاه إلى غيره .. فَاكفُرْ كما شئت ـ والعياذ بالله ـ أنت حر !!

أما الصدُّ عن سبيل الله فذنبٌ مُتعدٌ ، يتعدّى الإنسان إلى غيره ، حيث يدعو غيره إلى الكفر ، ويحمله عليه ويُزيّنه له .. فالذنب هنا مضاعف ، ذنب لكفره فى ذاته ، وذنب لصدّه غيره عن الإيمان ، لذلك يقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت]

فإنْ قال قائل : كيف وقد قال تعالى :

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]

نقول : لا تعارضَ بين الآيتين ، فكل واحد سيحمل وِزْره ، فالذى صَدَّ عن سبيل الله يحمل وِزْرين ، أما مَنْ صدَّه عن سبيل الله فيحمل وِزْر كفره هو .

وقوله :

﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ .. (٨٨) ﴾ [النحل]

العذاب الأول على كفرهم ، وزِدْناهم عذاباً على كفر غيرهم مِمَّنْ صدُّوهم عن سبيل الله .

ولذلك فالنبى ﷺ يقول : « مَنْ سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

فإياك أنْ تقعَ عليك عيْن المجتمع أو أذنه وأنت فى حال مخالفة لمنهج الله ؛ لأن هذه المخالفة ستؤثر فى الآخرين ، وستكون سبباً فى مخالفة أخرى بل مخالفات ، وسوف تحمل أنتَ قِسْطاً من هذا .. فأنت مسكين تحمل سيئاتك وسيئات الآخرين .

وقوله :

﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾ [النحل]

والإفساد : أنْ تعمدَ إلى شىء صالح أو قريب من الصلاح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

فتُفسده ، ولو تركتَه وشأنه لربما يهتدى إلى منهج الله .. إذن : أنت أفسدتَ الصالح ومنعت القابل للصلاح أن يُصلح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

قوله :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

يعنى من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعاة والوعاظ والأئمة الذين بلّغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون أمام الله سبحانه على مَنْ قصّر فى منهج الله .

وقد يكون معنى :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

أى : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا .. (٢١) ﴾ [فصلت]

والشهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شكَّ أن حجته قوية وبيِّنته واضحة .

وقوله :

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

أى : شهيداً على أمتك كأنه ﷺ شهيد على الشهداء .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

الكتاب : القرآن الكريم .. تبياناً : أى بياناً تاماً لكل ما يحتاجه الإنسان ، وكلمة (شىء) تُسمِّى جنس الأجناس . أى : كل ما يُسمَّى « شىء » فبيانُه فى كتاب الله تعالى .

فإنْ قال قائل : إنْ كان الأمر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن يجتهدوا ليُخرجوا لنا حُكْماً مُعيّناً ؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً فى الأصول ، وقد أعطى الحق تبارك وتعالى لرسوله ﷺ حقَّ التشريع ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

إذن : فسُنَّة الرسول ﷺ قَوْلاً أو فِعْلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ، وهى شارحة له ومُوضِّحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين هذا فى كتاب الله ؟ نقول فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .. (٧) ﴾ [الحشر]

وقد بيَّن الرسول ﷺ هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل

رضى الله عنه ـ قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكانياته في القضاء . فسأله : « بِمَ تقضى ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى[1] ولا آلو ـ أى لا أقصّر فى الاجتهاد .

فقال ﷺ : « الحمد لله الذى وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضى الله ورسوله »[2] .

إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نصّ فيها ، لا فى الكتاب ولا فى السنة ، فقد أبيح لنا الاجتهادُ فيها .

ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده[3] ـ رحمه الله ـ حُدِّث عنه وهو فى باريس أن أحد المستشرقين قال له : أليس فى آيات القرآن :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام]

قال : بلى ، قال له : فهات لى من القرآن : كم رغيفاً يوجد فى أردب القمح ؟

---

(١) قال الخطابى فى « معالم السنن » : « يريد الاجتهاد فى رد القضية من طريق القياس إلى معنى الكتاب والسنة ، ولم يرد الرأى الذى يسنح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنة . وفى هذا إثبات القياس وإيجاب الحكم به » . نقله شمس الحق العظيم آبادى فى « عون المعبود شرح سنن أبى داود » (٩/٣٦٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٨٧) ، والترمذى فى سننه (١٣٢٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) مفتى الديار المصرية ، من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، ولد ١٨٤٩ م فى قرية من قرى الغربية بمصر ، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم الأزهر ، له « تفسير القرآن الكريم » ورسالة التوحيد . أصدر مع الأفغانى جريدة « العروة الوثقى » فى باريس ، توفى بالاسكندرية عام ١٩٠٥ عن ٥٦ عاماً .. [الاعلام للزركلى ٦/٢٥٢] .

فقال الشيخ : نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال .. فقال المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذى ما فرط فى شىء ، فقال الشيخ : هذا القرآن هو الذى علَّمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر ، فقال :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾ [الأنبياء]

إذن : القرآن أعطانى الحجة ، وأعطانى ما أستند إليه حينما لا أجد نصاً فى كتاب الله ، فالقرآن ذكر القواعد والأصول ، وأعطانى حَقَّ الاجتهاد فيما يعِنّ لى من الفروع ، وما يستجدّ من قضايا ، وإذا وُجِد فى القرآن حكم عام وجب أن يُؤخذ فى طيّه ما يُؤخذ منه من أحكام صدرت عن رسول الله ﷺ ؛ لأن الله وكله.

فقال :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

وكذلك الإجماع من الأمة ؛ لأن الله تعالى قال :

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ[1] مَا تَوَلَّىٰ .. (١١٥) ﴾ [النساء]

وكل اجتهاد يُرَدُّ إلى أهل الاجتهاد :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء]

---

(١) نوله ما تولى : أى نوجهه إلى ما أحب . أى : نيسره إلى ما فضله ، فنتركه فى ضلاله الذى آثره وأحبه ، أو نمكنه من السير فى ضلاله حتى يلقى جزاءه . [القاموس القويم ٢/٢٥٩] .

إذن : فكلّ مـا صدر عن الرســول ﷺ وعن الإجماع وعـن الأئمة المجتهدين موجود فى القرآن ، فهو إذن صادق .

ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فـهى كثيرة ، فما الذى يتعرّض له القرآن ؟ يتـعرض القرآن للأحكـام التكليفيـة المطلوبة من العبد الذى آمن بالله ، وهناك أمور كونيـة لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأنْ يعلمهـا ، فهو ينتـفع بها ســواء علمها أو جـهلها ، فكوْنُ الأرض كُروية الشكل ، وكَـوْنها تدور حـول الشمس ، وغيـر هذه الأمور من الكونيات إنْ علمهـا فـبهـا ونعمتْ ، وإنْ جـهلهـا لا يمنعه جـهله من الانتفاع بها .

فالأمىّ الذى يعيش فى الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيـئاً عن طبيعـتها وكيـفية عملـها ، ومع ذلك ينتفع بها ، مـجرد أن يضع أصبعه على زِرّ الكهرباء تُضىء له .

فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانةً واضحة ربما صدَّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقـافة ما يفـهمـون به مقاصـد القرآن حول الآيات الكـونية : ولذلك سألوا رسولَ الله ﷺ عن الأهِلّة ، كما حكى القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

والأهلة : جمع هـلال ، وهو ما يظهر من القـمر فى بداية الشـهر حيث يـبدو مثل قـلامة الظفـر ، ثم يزداد تدريجيـاً إلى أنْ يصل إلى مرحلة البـدر عند تمام استـدارته ، ثم يتناقص تدريجيـاً أيضاً إلى أنْ يعودَ إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف ردَّ عليهم القرآن ؟ لم يُوضح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الأرض إذا حالتْ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية ؛ لذلك يقول لهم : اصرفوا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه في الأهلة :

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

فردَّهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدى ، فاهتمَّ ببيان الحكمة منها ، وفي نفس الوقت ترك هذه المسألة للزمن يشرحها لهم ، حيث سيجدون في القرآن ما يُعينهم على فَهْمْ هذا الموضوع .

إذن : قوله تعالى :

﴿مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

أي : من كل شيء تكليفيّ ، إنْ فعله المؤمن أثيب ، وإنْ لم يفعله يُعاقب ، أما الأمور الكونية فيعطيهم منها على قدر وَعْيهم لها ، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد .

لذلك ترى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله في القرن الذي نزل فيه ، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء ، فالعقول تتفتّح على مَرّ العصور وتتفتّق عن فكر جديد ، ولا يصح أنْ يظلّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد ، لابُدّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتقاءات البشر في علومه الكونية .

والرسول ﷺ حينما رأى الناس يُؤبِّرون النخل ، أى : يُلقِّحونه . وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب ، حيث يأخذون من الذكر ويضعون فى الأنثى ، فماذا قال لهم ؟ قال : لو لم تفعلوا لأثمر ، ففى الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل ، فلما سئل ﷺ فى ذلك قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[1] .

فهذا أمر دنيوى خاضع للتجربة ووليد بَحْث معملىّ ، وليس من مهمة الرسول ﷺ توضيح هذه الأمور التى يتفق فيها الناس وتتفق فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التى تختلف فيها الأهواء ، فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً فى العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات والاستنباطات التى تُسخر أسرار الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف الناس حول مُعْطيات هذه الموجة المادية ؟ هل نقول مثلاً : هذه كهرباء أمريكانى ، وهذه كهرباء روسى ؟ هل نقول : هذه كيمياء إنجليزى ، وهذه كيمياء ألمانى ؟

فهذه مسألة وليدة المعمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، فى حين نجدهم يختلفون فى إشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية .. الخ ، فجاء الدين ليحسمَ ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك نرى كل معسكر يحاول أنْ يسرقَ ما توصّل إليه المعسكر الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليتابعوا أحدث

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ مرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ما توصّل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً ؟ لا .. بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكى لا تنتقل هذه المبادىء إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنيهم .

وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح فى حَقّ رسول الله أن يُشير على الناس بشىء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أنْ يُوَصِّل قاعدة فى نفوس المتكلمين فى شئون الدين : إياكم أنْ تُقحموا أنفسكم فى الأمور المادية المعملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوى فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كُروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم فى قضية لا دَخْلَ للدين فيها ، وقد حذرهم رسول الله ﷺ من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كُروية فعلاً ؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غَلْقه .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدىً) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضى أن يقول : وهادياً ، لكن لم يَصف القرآن بأنه هاد ، بل هُدىً ، وكأنه نفس الهدى ؛ لأن هادياً ذاتٌ ثبت لها الهداية ، إنما هُدى : يعنى هو جوهر الهدى ، كما

نقول : فلان عادل . وفى المبالغة نقول : فلان عَدْل . كأن العَدْل مجسَّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

فما معنى الهدى ؟ هو الدلالة على الطريق الموصّل للغاية من أقرب الطرق .

﴿ ورَحْمَةً ﴾ مرّة يُوصَف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء : أن يُوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هى الوقاية التى تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فَمنْ عمل بمنهجه فقد بُشِّر بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد فى نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾

للحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القُرْبى . وثلاثة نواه : عن الفحشاء والمنكر والبغى . ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه

الآية[١] لأنها جمعتْ كل الفضائل التي يمكن أن تكون في القرآن الكريم .

ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون[٢] كان رسول الله ﷺ يحب له أن يُسلم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله ﷺ لا يحب عَرْض الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشِيَماً تحسن في الإسلام .

وكأنه - ﷺ - ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون في غير مسلم ، لذلك كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث في الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ في مجلس ، فرآه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون : ما حدث يا رسول الله ؟ فقال : إن جبريل - عليه السلام - قد نزل عليَّ الساعة بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

قال ابن مظعون - رضي الله عنه : فاستقر حبُّ الإيمان في قلبي بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير[٣] .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون في هذه الآية قال : يا معشر قريش آمِنُوا بالذي جاء به محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق[٤] .

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٩٢) .

(٢) هو : عثمان بن مظعون الجمحي ، أبو السائب ، صحابي ، كان من حكماء العرب في الجاهلية ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر إلى أرض الحبشة مرتين ، شهد بدراً ، لما مات جاءه النبي ﷺ فقبله ميتاً ، حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان . [الأعلام للزركلي ٤/٢١٤] .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/١٥٩) وعزاه لأحمد والبخاري في الأدب وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذا أورده الواحدي في أسباب النزول (١٦١) .

(٤) أورده القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٩١) أن أبا طالب قال : اتبعوا ابن أخي ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق.

ويُروى أن رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ، وكان معه أبو بكر وعلي ، قال علي : فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة ، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان ابن ثعلبة فقال : إلى أى شيء تدعونا يا أخا قريش ؟ فقال ﷺ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]

فقال مقرون : إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، أفكت[1] قريش إن خاصمتك وظاهرتْ عليك .

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبي جهل ، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له : إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا ، فأفكر[2] الوليد بن المغيرة - أي : فكَّر فيما سمع - وقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه ، وما هو بقول بشر[3] .

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن ، فقالوا : حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر .

---

(١) الإفك : الكذب والإثم . والأفاك : الذي يأفك الناس أي يصدهم عن الحق بباطله . والمأفوك : المأفون وهو ضعيف العقل والرأى . [لسان العرب - مادة : أفك] .

(٢) فكرَ في الشيء وأفكر فيه وتفكَّر . بمعنى واحد . [لسان العرب - مادة : فكر] .

(٣) أورده القرطبي في تفسيره (٥/٣٨٩٢) .

وهكذا دخلتْ هذه الآيةُ قلوبَ هؤلاء القوم ، واستقرتْ فى أفئدتهم ؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ ، دعَتْ لكل خير ، ونَهتْ عن كل شر .

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٩٠)﴾ [النحل]

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمِّى الحاكم العادل مُنْصفاً ؛ لأنه إذا مَثُلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه ، وكأنه قسَّم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان ، والميزان تختلف دقَّته حَسْب الموزون ، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقَّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلّ زيادة فى الميزان يمكن أن تحوِّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً فى الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر فى كل أقضية الحياة من القمة فى شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب فى أمور التكليف كلها ، فى الأمور العقدية التى هى عمل القلب ، وكذلك مطلوب فى الأمور العملية التى هى أعمال الجوارح فى حركة الحياة .

فكيف يكون العدل فى الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود

إله فى الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة ، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء ، فجاء العدل فى الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنزَّه عمَّا يُشبه الحوادث ، كما وقف موقفَ العدل فى صفاته سبحانه وتعالى .

فلله سَمْع ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا ننفى عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطِّلة ، ولا نُشبِّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة ، بل نقول : ليس كمثله شيء ، ونقف موقف العَدْل والوسطية .

كذلك من الأمور العقدية التى تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه فى أعمال العبد ؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً . ومن يقول : لا ؛ بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها .

فيأتى الإسلام بالعدالة والوسطية فى هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التى خلقها الله فيه للاختيار .

وفى التشريع والأحكام حدث تبايُن كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام - فى القصاص مثلاً : فى شريعة موسى حيث طغتْ المادية على بنى إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴿١٥٣﴾ ﴾ [النساء]

فهم لا يفهمون الغيبَ ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم

القصَاص ولابُدّ ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكثُر فيهم القتل ، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع : مَنْ قتل يُقتلُ ، والقتل أنفى للقتل .

وقد تعدّى بنو إسرائيل فى طلبهم رؤية الله ، فكوْنك ترى الإله تناقض فى الألوهية ؛ لأنك حين تراه عينُك فقد حددّته فى حيّز .

إذن : كونه لا يرى عَيْن الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع فى رؤيته جلّ وعلاً ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته . فالروح التى بين جَنْبى كل مِنّا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكّر ، وبها نعيش ، أين هى ؟!

فإذا ما فارقتْ الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس فى مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأى حاسّة من حواسِّك ؟!

فإذا كانت الروح وهى مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمَنْ خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تُدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنىً من المعانى التى يدّعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها . هذا الحق ما شكْله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟! فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع فى رؤيته ؟!

ومن إسراف بني إسرائيل في المادية أن جعلوا لله تعالى في التلمود جماعة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قاعداً على صخرة يُدلي رجْليْه في قصعة من المرمر ، ثم أتى حوت .. الخ .. سبحان الله ! ألهذا الحدِّ وصلتْ بهم المادية ؟

ومن هنا كان الكون في حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هي أيضاً مُسرفة في الروحانية ليحدث نوع من التوازن في الكون ، فجاءت شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ بعد مادية مُفْرطة وإسراف في الموسَوية ، فكيف يكون حُكْم القصاص فيها وهي تهدف إلى أنْ تسموَ بروحانيات الناس ؟

جاءت شريعة عيسى عليه السلام تُهدِّيء الموقف إذا حدث قتل ، فيكفي أن قُتِل واحد ولنستبقي الآخر ولا نثير ضجّة ، ونهيج الأحقاد والترة بين الناس ، فدَعَتْ هذه الشريعة إلى العفو عن القاتل .

ثم جاء الإسلام ووقف موقف العدل والوسطية في هذا الحكم ، فأقرَّ القصاص ودعا إلى العفو ، فأعطى وليَّ المقتول حَقّ القصاص ، ودعاه في نفس الوقت إلى العفو في قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ونلاحظ هنا أن القرآن جعلهم إخوة ليُرقِّق القلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص فى الإسلام حكَم عـالية ، فليس الهدف منه أن يُضخِّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

فمن أراد أنْ يحافظ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينمـا يُعطى ربُّنا تبارك وتعـالى حقَّ القصــاص لولىّ المقـتول ويُمكِّنه منه تبردُ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر فى العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الـغِلَّ من الصدور ويُطفِىء نار الثأر بين الناس .

ولذلك نرى فى بعض البلاد الـتى تنتشر فيـها عمليـة الثأر يأتى القاتل حاملاً كفنه على يده إلى ولىّ المـقتول ، ويضع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديْك اقتلنى وهذا كفنِى .

مـا حدث ذلك أبداً إلا وعـفا صـاحب الحق وولىّ الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من ولىّ الدم أداةٌ بِـنَاء ، ووسيلة محبة ، فـحين نعطيه حَقّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصـبحتْ حياة القاتل هبةً من ولىّ الدم ، فكأنه استـأثره واستبقـاه بعفوه عنه ، وهذا جمـيل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حَقَن دم ابننا .

مـوقف آخـر لعدالة الإسـلام ووسطيتـه نراها فى حُكْم الحـيض مثلاً ، فـفى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ يُخـرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفى شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ لا مانع من وجودها فى البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل فى هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض فى بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية فى حياتنا ، والتى هى عصب الحياة ، والتى بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملْبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكُل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث فى المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يَخدمنى به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذى تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتُراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ فى حركة الحياة واكتسبتَ المال الذى هو عصبُ الحياة فعليك أن تُوازنَ بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبت فى نفقاتك الحاضرة فقد ضيَّعتَ على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبنى به بيتاً مثلاً ، أو تشترى به سيارة ، أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة .

وهذا ما نسميه الإسراف .

وفى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شىء ، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسك الرمَق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]

أى : لا تُمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون ملُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حدّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقّق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقّى هو فى حياته وأنت مُعْدَم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدّخر جُزْءاً من كَسْبك يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى :

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . [القاموس القويم ٢/ ٩٩] .

قَوَامًا ﴿٦٧﴾ [الفرقان]

إذن : فالعَدْل أمر دائر في كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عَقَدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال في حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْر الأمور الوسط .

وقوله : ﴿ وَالإِحْسَانِ.. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

ما الإحسان ؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك ، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحق ، وأنْ تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والناس في الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستعداده الخُلُقي .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كَظْم القِرْبة المملوءة ،

فالإنسان يكظم غَيْظه فى نفسه ، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والردِّ بالمثل ، ولكنه يظل يعانى ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره فى قلبه .

لذلك يحسُن الترقى إلى المرتبة الأعلى ، وهى مرتبة العفو ، فيأتى الإنسان ويقول : لماذا أدَعُ نفسى فريسة لهذا الغيظ ؟ لماذا أشغل به نفسى ، وأُقَاسى ألمه ومرارته ؟ فيميل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمَّنْ أساء إليه ، ويُخرِج المسألة كلها من قلبه .

فإنِ ارتقى الإنسان فى العفو ، سعى إلى المرتبة الثالثة ، وهى مرتبة أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردِّ بالمثل ، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ، فالذى اعتدى اعتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسبه ، والذى ترقَّى فى درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله تعالى ، وأيْن قدرتُك من قدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسان أجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أنْ تعفوَ عمَّنْ أساء ، بل إلى أنْ تُحسنِ إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيِّهما يميل قلبك ؟

لا شكَّ أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه ، وقد يتعدَّى الأمر

إلى أنْ تُرضيه بهدية وتُريه من حنانك وألطافك ما يُذهب عنه ما يُعاني . والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهي التي عطفتْ قلبك إليه ، وعادتْ عليه بالهدايا والألطاف .

إذن : من الطبيعي أنْ يُحسنَ المعتَدى عليه إلى المعتدِي ، وأنْ يشكرَ له أنْ تسبَّب له في هذه النِعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصري - رحمه الله : أفلا أُحسِن لمن جعل الله في جانبي ؟

فالإحسان : أنْ تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكونَ من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبَّدنا الله به ، فمثلاً تعبَّدنا الله بخمس صلوات في اليوم والليلة فلا مانعَ من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر في الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسانُ في الكيفية دون زيادة في العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أُحسن ما أنا بصدده من الفرْض ، وأُتقن ما أنا فيه من العمل ، وأُخلِص في ذلك عملاً بحديث جبريل عليه السلام - حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1].

فعليك أن تستحضر في عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإنْ لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقلَّ من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأنْ تُعطي العبادة حقّها ولا تسرق منها ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فاللصُّ لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه ، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين ، أيليق بنا أنْ نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا ؟!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي :

« يا عبادى ، إنْ كنتم تعتقدون أنّى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فَلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »

وقال بعضهم[1] فى معنى العدل والإحسان :

العدل : أن تستوى السريرة مع العلانية .

والإحسان : أن تعلو السريرة وتكون أفضل من العلانية .

والمنكر : إنْ علَتْ العلانية على السريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

إيتاء : أى إعطاء .

قالوا : لأن العالم حلَقات مقترنة ، فكل قادر حوله أقرباء ضُعَفاء محتاجون ، فلو أعطاهم من خيْره ، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه

---

(١) قاله سفيان بن عيينة فيما نقله القرطبى عنه فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) وقال ابن العربى :
- العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر ، والامتثال للأوامر .
- وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى .
- وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا فى سر ولا فى علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى .

لَعَمَّ الخير كل المجتمع ، وما وجدنا مُعْوِزاً محتاجاً ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعطي مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى في مجتمعنا فقيراً ، وقد حثَتْ الآية على القريب ، وحنَّنَتْ عليه القلوب ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل في دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبي ﷺ ؛ لأن قرابة النبي ﷺ حرِّمتْ عليهم الزكاة التي أُحلّت لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مَيِّزة يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ في حاجة إلى الزكاة ، ولَئِنْ كان أقرباؤكم أصحابَ رحم ، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله ﷺ أوْلَى من أرحامكم ، كما قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب]

هذه هي مجموعة الأوامر الواردة في هذه الآية ، ولَئِنْ مجتمعاً يُنفِّذ مثل هذه الأوامر ويتحلَّى بها أفراده ، مجتمع ترتقي فيه الاستعدادات الخُلُقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع تعمُّ فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمِنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

وهذه مجموعة من النواهى تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قويماً يضمن سلامة المجتمع ، وأولى هذه النواهى النهى عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآن فاحشة ، فهى إذن الزنا ، أو كل شىء يخدش حُكْماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلّق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنَّسُ الأعراض ، وبه يشكُّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصحّ ، ولا ينبغى لأحد أن يطلع عليه .

(والمنكر) هو الذنب الذى يتجرأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرّج أن يعرفه المجتمع فيستره فى نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .

(والبغْى) هو الظلم فى أىّ لونٍ من ألوانه ، وهو داخل فى أشياء كثيرة أعظمها ما يقع فى العقيدةِ من الشرك بالله ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

والظلم هنا أنْ تسلبَ الحق ـ تبارك وتعالى ـ صفة من صفاته ، وتشرك معه غيره وهو خلقك ورزقك ، ومنه ظلم الرسول ﷺ حيث لم يُجرَّب عليه فى يوم من الأيام أنْ قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما لم يُجرَّب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة ، ومع هذا كله قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون ، وأىُّ ظلم أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسان لنفسه حينما يُحقِّق لها شهوة عاجلة ومُتعةً زائلة ، تُورثه ندماً وحَسْرة وألماً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمتْ مجموعة من الأوامر والنواهى التى تضمن سلامة المجتمع بما جمعتْ من مكارم الأخلاق . والأخلاق أعمُّ من أن تكون فى الاعتقادات ، وأعمُّ من أن تكون فى المعجزة إيماناً بها ، وأعمُّ من أن تكون فى التكاليف ، وأعمُّ من أن تكون فى أمر لا حَدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعِظُكُمْ .. (٩٠) ﴾ [النحل]

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكي نعرفه ، ولكنه عُرْضة لأنْ نغفلَ عنه ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العظة إلا فيما له قيمة ، ومادام الشيء له قيمة فلا تصطفى له إلا مَنْ تحب ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يحب خَلْقه وصَنْعته ؛ لذلك يَعظهم ويُذكّرهم باستمرار لكي يكونوا دائماً على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبِّب في الآخرة ، كما تمتعوا بنعمة الأسباب في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الوفاء : أنْ تفيَ بما تعاهدتَ عليه ، والعهود لا تكون في المفروض عليك ، إنما تكون في المباحات ، فأنت حرٌّ أنْ تلقاني غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً في الساعة كذا ومكان كذا فقد تحوّل الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كُلٌّ منّا ملزماً بأن يفي بعهده ؛ لأن كل واحد منّا عطّل مصالحه ورتّب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أنْ يفيَ أحدنا ويُخلف الآخر ، لأن ذلك يتسبب في عدم تكافؤ الفُرص ، ومعلوم أن مصالح العبادِ في الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

وقد ينظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه مُلْزَمٌ به وحده ، أو أنه عبءٌ عليه دون غيره ، لكنه في الحقيقة عليك وعلى غيرك ، فكما طَلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين ، فكلّ تكليف لك لا تنظر إليه هذه النظرة ، بل تنظر إليه على أنه لصالحك .

فمن أخذ التكاليف وأحكام الله من جانبه فقط يتعب ، فالحق - تبارك وتعالى - كما كلفك لصالح الناس فقد كلّف الناس جميعاً لصالحك ، فحين نهاك عن السرقة مثلاً إياك أنْ تظنّ أنه قيّد حريتك أمام الآخرين ؛ لأنه سبحانه نهى جميع الناس أن يسرقوا منك ، فمَن الفائز إذن ؟ أنا قيّدت حريتك بالحكم ، وأنت فرْد واحد ، ولكنى قيّدتُ جميع الخلق من أجلك .

كذلك حين أمرك الشرع بغضّ بصرك عن محارم الناس ، أمر الناس جميعاً بغضّ أبصارهم عن محارمك[1] . إذن : لا تأخذ التكليف على أنه عليك ، بل هو لك ، وفى صالحك أنت .

كثيرون من الأغنياء يتبرّمون من الإنفاق ، ويضيقون بالبذْل ، ومنهم مَنْ يَعُد ذلك مَغْرماً لأنه لا يدرى الحكمة من تكليف الأغنياء بمساعدة الفقراء ، لا يدرى أننا نُؤمّن له حياته .

وها نحن نرى الدنيا دُولاً وأغياراً ، فكم من غنىٍّ صار فقيراً ، وكم من قوى صار ضعيفاً .

إذن : فحينما يأخذ منك وأنت غنىّ نُطمئنك : لا تخَفْ إذا ضاقتْ

---

(١) قال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ۝٣١﴾ [النور] .

بك الحال ، وإذا تبدّل غناك فقراً ، فكما أخذنا منك في حال الغنى سنُعطيك في حال الفقر ، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى الأمور التكليفية .

وقوله تعالى :

﴿بِعَهْدِ اللَّهِ ..(٩١)﴾ [النحل]

عهد الله : هو الشيء الذى تعاهد الله عليه ، وأول عَهْد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلّفك به ، وإياك أن تُخلَّ بأمر من أموره ؛ لأن الاختلالَ في أيّ أمر تكليفي من الله يُعَدُّ نَقْصاً في إيمانك ؛ لأنك حينما آمنت بالله شهدتَ بما شهد الله به لنفسه سبحانه في قوله تعالى :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (١٨)﴾ [آل عمران]

فأوّل مَنْ شهد الله سبحانه لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات (والملائكة) أي : شهادة المشاهدة (وأُولُوا العِلْم) أي : بالدليل والحجة .

إذن : فأوّل عَهْد بينك وبين الله تعالى أنك آمنتَ به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مُربّياً ، فاستمع إلى ما يطلبه منك ، فإنْ لم تستمع وتُنفّذ فاعلم أن العهد الإيماني الأول قد اختلّ .

ولذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يُكلّف الكافر ، لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يُكلّف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيماني :

﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

كما فى قوله تعالى :

﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

فيا مَنْ آمنتَ بى ربّاً ، ورضيتنى إلهاً اسمع مِنّى ؛ لأنى سأعطيك قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذى يُسعدك بالمسبِّب فى الآخرة بعد أن أسعدك بالأسباب فى الدنيا .

وقوله :

﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .. (٩١) ﴾ [النحل]

الأَيْمان : جمع يمين ، وهو الحلف الذى نحلفه ونُؤكّد عليه فنقول : والله ، وعهد الله .. الخ . إذن : فلا يليق بك أنْ تنقضَ ما أكّدته من الأَيْمان ، بل يلزمك أنْ تُوفّى بها : لأنك إنْ وفّيت بها وُفّى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد الإيمانى بالله تعالى : لأننا حينما نتعاهد نُشهد الله على هذا العهد ، فنقول : بينى وبينك عَهْد الله ، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى لنُوثّق ما تعاهدنا عليه ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا .. (٩١) ﴾ [النحل]

أى : شاهداً ورقيباً وضامناً .

وقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل]

أى : اعلم أن الله مُطّلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أن تعطيه وأنت تنوى أن تخالفه ، إياك أنْ تُعطى العهد خِداعاً ، فربُّك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل .

ثم يُعقّب الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا[1] تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا[2] بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا فى هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينقضون العهد والأيْمان ، ولا يُوفون بها ، بهذه المرأة القرشية الحمقاء ريْطة بنت عامر ، وكانت تأمر جواريها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر ، ثم تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر[3] ، والمتأمل فى هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة .

أولاً : ما الغزل ؟

---

(١) الأنكاث : جمع نِكْث ، وهو الغزل يُحَلُّ بعد فتله وإحكامه . [القاموس القويم ٢/٢٨٤] .

(٢) الدَّخَل : المكر والخديعة والغدر وما يفعله من فسد باطنه وساءت سريرته . [القاموس القويم ١/٢٢٤] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٧) وعزاه للفراء . قال القرطبى : حكاه عبد الله بن كثير والسدى ولم يسميها المرأة . وقال مجاهد وقتادة : ذلك ضَرْب مثل لا على امرأة معينة .

الغَزْل عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فكُنَّ يُحضِرْن المادة التي تصلح للغزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف في طولها من نوع لآخر يُسمُّونها التيلة ، فيقولون « هذه تيلة قصيرة » « وهذه طويلة » .

والغَزْل هو أن تُكوِّن من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً ممتداً وانسيابياً دون عُقَد فيه لكي يصلح للنسْج بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المغزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرْمها بالمغزل ، ليخرج في النهاية خيطٌ طويلٌ مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه .

والآية هنا ذكرتْ المرأة في هذا العمل ؛ لأنه عمل خاص بالنساء في هذا الوقت دون الرجال ، فكانت المرأة تكنّ في بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التي تكوِّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره .

وإلى الآن نرى المرأة التي تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْترك الاختلاط ، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائي .

وقد تطورْ المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة ، مما يُيسِّر للنساء هذه الأعمال ، ويحفظهُنَّ في بيوتهن ، وينشر في البيت جَواً من التعاون بين الأم وأولادها ، وأمامنا مثلاً مشروع الأسر المنتجة حيث تشارك المرأة بجزء كبير في رُقيّ المجتمع ، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصُون حرمتها .

فالقرآن ضـرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجـاهلية ، هذا العمل الذى يحتـاج إلى جَهْد ووقت فى الغزل ، ويحـتاج إلى أكثر منه في نَـقْضه وفكِّه ، فـهذه عمليـة شاقـة جداً ، وربمـا أمرت الجوارى بفـكِّ الغزل والنسيج أيضاً ؛ ولذلك أطلقوا عليها حمقاء قريش .

وقوله :

﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ .. (٩٢) ﴾ [النحل]

كلمة قوة هنا تدلُّنا على المراحل التى تمرُّ بها عملية الغَزْل ، وكم هى شاقة ، بداية من جَزِّ الصوف من الغنم أو الوبر من الجمال ، ثم خَلْط أطراف كل تيلة من هذه الشعـيرات ، بحيث تكون طرف كل تيلة منها فى وسط الأخـرى لكى يتم التلاحم بينها بهـذا المزج ، ثم تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخـرج لنا فى النهاية بضـعة سنتيمترات من الخيط ، ولو قارنَّا بين هذه العملية اليدوية ، وبين ما توصلتْ إليه صناعة الغزل الآن لَتبيَّن لنا كم كانت شاقة عليهم .

فكأن القـرآن الكريم شـبَّـه الذى يُعطِى العـهـد ويُوثِّقـه بالأيْمـان المؤكـدة ، ويجعل الله وكـيلاً وشاهـداً على ما يقول بالتـى غزلتْ هذا الغـزل ، وتحملت مـشـقـتـه ، ثم راحتْ فنقـضت ما أنجـزته ، وفكَّتْ ما غزلته .

وكذلك كلمة (قوة) تدلُّنا على أن كل عمل يحتاج إلى قوة ، هذه القوة إما أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرِّك ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ..(٦٣) ﴾ [البقرة]

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه ، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه .

وهذه يسمونها في علم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل مُتحرِّكاً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُسكنه ، والساكن يظل ساكناً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُحرِّكه .

ومن هنا يتعجَّب الكثيرون من الأقمار الصناعية التي تدور أعواماً عدة في الفضاء : ما الوقود الذي يُحرِّك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام ؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها ، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط ، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذْب ، فإذا ما استقرَّ القمر أو السفينة الفضائية في منطقة عدم الجذب تدور وتتحرك بنفسها دون وقود ، فهناك الشيء المتحرك يظل متحركاً ، والساكن يظل ساكناً .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ بهذا المثَل المشَاهد يُحذرنا من إخلاف العهد ونقْضه ؛ لأنه سبحانه يريد أن يصونَ مصالح الخلق ؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأَيْمان التي تبرم بينهم ، فمَنْ خان العهد أو نقضَ الأَيْمان لا يُوثق فيه ، ولا يُطْمأنُّ إلى حركته في الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

وقوله : ﴿ أَنكَاثًا .. (٩٢) ﴾ [النحل]

جمع نِكْث ، وهو ما نُقِض وحُلَّ فَتْله من الغزل .

وقوله :

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ..(٩٢)﴾ [النحل]

الدَّخَل : أنْ تدخل في الشيء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغشّ والخداع ، كأن تدخل في الذهب عيار ٢٤ قيراطاً مثلاً ذهباً من عيار ١٨ قيراطاً ، أو كان تُدخِلَ في اللوز مثلاً نَوى المشمش على أنه منه . فكأن الأيْمان القائمة على الصدق والوفاء يعطيها صاحبها وهو ينوى بها الخداع والغش ، فيحلف لصاحبه وهو يقصد تنويمه والتغرير به .

وقوله :

﴿ أن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ[1] ..(٩٢)﴾ [النحل]

هذه هى العلة فى أنْ نتخذ الأيْمان دَخَلاً فيما بيننا ، الأيْمان الزائفة الخادعة ؛ ذلك لأن الذى باع نوى المشمش مثلاً على أنه لوز ، فقد أرْبى أى : أخذ أزيْد من حقه ونقص حَقّ الآخرين ، فالعلة إذن فى الخداع بالأيْمان الطمع وطلب الزيادة على حساب الآخرين .

وقد تأتى الزيادة بصورة أخرى ، كأن تُعاهد شخصاً على شىء ما ، وأدّيْتَ له بالعهود والأيْمان والمواثيق ، ثم عنَّ لك مَنْ هو أقوى منه سواء كان بالقهر والسلطان أو بالإغراء ، فنقضت العهد الأول لأن الثانى أرْبى منه وأزيد .

---

(١) قال مجاهد فى سبب نزول هذه الآية : نزلت فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى [تفسير القرطبى ٥/٣٨٩٨] .

وفى مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حذره ، فمَنْ يُدريك لعله يُفعل بك كما فعلت ، ويُكال لك بنفس المكيال الذى كلْتَ به لغيرك ، فاحذر إذا تجرأتَ على خَلْق الله أن يُجَرِّىء الله عليك مَنْ يسقيك من نفس الكأس .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أنْ تغُشَّ الناس ، وتنكَّر أن لك عندهم مصالح ، وفى أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأتَ عليهم جرّأهم الله عليك ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا القيُّوم ، أى : القائم على أمركمْ ، فناموا أنتم فأنا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلحظها جيداً .

مَنْ تَجرّأ على الناس جرّأهم الله عليه ، ومَنْ أخلص عمله وأتقنه قذف الله فى قلوب الخلق أنْ يُتقنوا له حاجته .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ.. (٩٢) ﴾ [النحل]

أى : يختبركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أنْ عقدتم العهد ، أفِى نيتكم الوفاء ، أم فى نيتكم الغدر والخداع ؟

وهَبْ أنك تنوى الوفاء ثم عرضَ لك ما حال بينك وبينه ، فالله سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفَى عليه شيء .

إذن : الابتلاء هنا لا يعنى النكبة والبلاء ، بل يعنى مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذى يفشل فى الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .

وقوله :

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾ [النحل]

فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشّف الحقائق ، ويأتى القضاء فيما اختلفنا فيه فى الدنيا ، وهَبْ أن إنساناً عمَّى على قضاء الأرض فى أشياء ، نقول له : إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمىَ على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

لو حرف امتناع لامتناع ، أى : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

فقد امتنع الفساد لامتناع تعدّد الآلهة .

فلو شاء الله لجعلَ العالم كله أمةً واحدة على الحق ، لا على

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية (٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » .

الضلال ، أمةً واحدة في الإيمان والهداية ، كما جعل الأجناس الأخرى أمةً واحدة في الانصياع لمرادات الله منها .

ذلك لأن كل أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يفدَ إلى الحياة مخلوقة بالحق خَلْقاً تسخيرياً ، فلا يوجد جنس من الأجناس تأبّى عما قصد منه ، لا الجماد ولا النبات ولا الحيوان .

كل هذه الأكوان تسير سَيْراً سليماً كما أراد الله منها ، والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختلّ في الكون ، ذلك لما له من حرية الاختيار ، يفعل أو لا يفعل .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا تسجد كل هذه المخلوقات لله دون استثناء ، إلا في الإنسان فقال تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

فلماذا حدث هذا الاختلاف عند الناس ؟ لأنهم أصحاب الاختيار ، فيستطيع الواحد منهم أن يفعلَ أو لا يفعل ، هل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ، أم أرادها الله سبحانه وتعالى ؟

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة في خَلْق الأشياء المُسخرة ، بحيث لا يخرج شيء عما أريد منه ، وكان من الممكن أنْ يأتيَ

الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه في هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً في الكون ، أليستْ الملائكة قائمة على التسخير ؟

فالتسخير يُثبِت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شيء ، لكنِ الاختيار يثبت المحبوبية لله تعالى ، وهذا فَرْقٌ يجب أنْ نتدبّره .

فمثلاً لو كان عندك عبدان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيَّدته إليك في حبل ، في حين تركت مسعوداً حراً طليقاً ، وحين أمرت كلاً منهما لبّى وأطاع ، فأيّ طاعة ستكون أحبّ إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة بالاختيار ؟

فكأن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرَّمه بأنْ جعلَه مختاراً في أنْ يطيعَ أو أنْ يعصِيَ ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً ، وهو قادر على المعصية ، فقد أثبتَ المحبوبية لربه سبحانه وتعالى .

ولا بُدَّ أنْ تتوافرَ للاختيار شروطٌ ، أولها : العقل ، فهو آلة الاختيار ، كذلك لا يُكلّف المجنون ، فإذا توفَّر العقل فلا بُدَّ له من النُّضْج والبلوغ ، ويتمّ ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مثله ، وأصبحتْ له ذاتية مولده .

وهذه سمَة اكتمال الذات ؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين ، وليس أهْلاً للتكليف ، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات ، فلا بُدَّ له أن يكون مختاراً غَيْرَ مُكْره ، فإنْ أكْرِه على الشيء فلن يسأل عنه ، فإن اختلّ شَرْط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار ، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة في الاختيار .

والحق تبارك وتعالى وإن كرَّم الإنسان بالاختيار ، فمن رحمته به أنْ يجعلَ فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسخَّرة لا تَدَخُّلَ له فيها .

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية ، وتتوقف عليها حياة الإنسان ، فكان من رحمة الله بنا أنْ جعل هذه الأعضاء تعمل وتُؤدِّى وظيفتها دون أنْ نشعرَ .

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام فى اليقظة والمنام دون أن نشعرَ به ، وكذلك التنفس والكُلَى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسخَّرة ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لُطْف الله بخَلْقه أنْ جعلَ هذه الأعضاء مُسخَّرة ، لأنه بالله لو أنت مختار فى عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم ؟!

إذن : من رحمة الله أنْ جعلكَ مختاراً فى الأعمال التى تعرضُ لك ، وتحتاج فيها إلى النظر فى البدائل ؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديْه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا آذيتَ حيواناً فإنه يُؤْذيك ، وليس لديه بديل آخر .

ولكن إذا آذيْت إنساناً ، فيحتمل أن يردَّ عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلتَ ، أو أقلّ ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذى يُرجِّح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى :

﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد]

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك ، بدليل قوله :

﴿ وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٩٣) ﴾ [النحل]

وهذه الآية يقف عندها المتمحكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم فى فَهْم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذى يضلّ الناس ، فلماذا يُعذّبهم ؟ ونتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء : لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى ؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذى يهدى ، فلماذا يُدخلنا الجنة ؟

إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون ؛ لأن معنى :

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٩٣) ﴾ [النحل]

أى : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان ، فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ ؛ فالمعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم ، بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [النحل]

فالعبد لا يُسأل إلا عَمَّا عملتْ يداه ، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار فى العمل ، وكيف تسأل عن شىء لا دَخْلَ لك فيه ؟ فلنفهم ـ إذن ـ عن الحق تبارك وتعالى مُرَادَهُ من الآية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

وردتْ كلمة الدَّخَل فى الآية قبل السابقة وقلنا : إن معناها : أن تُدخِلَ فى الشىء شيئاً أدْنى منه من جنسه على سبيل الغشِّ والخداع ، وإن كان المعنى واحداً فى الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدَّخَل وعلّته ، وهى أن تكون أُمة أرْبى من أمة ، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر . أما فى هذه الآية فجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدَّخَل ، وهى :

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل]

ففى الآية نَهْىٌ عن اتخاذ الأَيْمان للغش والخداع والتدليس ؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتى على المجتمع من أساسه ، وفَقْد للثقة المتبادلة بين الناس والتى عليها يقوم التعامل ، وتُبْنَى حركة الحياة ، فالذى يُعطى عهداً ويُخْلفه ، ويحلف يميناً ويحنث[1] فيه يشتهر عنه أنه مُخلف للعهد ناقض للميثاق .

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجرؤ أحد على

---

(١) حنث فى يمينه : لم يَفِ باليمين . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

الصَّفَق[1] معه ، فيصبح مَهيناً ينفضُ الناس أيديهم منه ، بعد أنْ كان أميناً وأهلاً للثقة ومَحلاً للتقدير[2] .

هذا معنى قوله تعالى :

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..﴿٩٤﴾﴾ [النحل]

وبذلك يسقط حقُّه مع المجتمع ، ويحيق به سوء فعْله ، ويجنى بيده ثمار ما أفسده فى المجتمع ، وبانتشار هذا الخلُق السيىء تتعطل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زلَّة وكَبْوة بعد ثبات وقوة ، بعد أنْ كان أهْلاً للثقة صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقبل عليه الناس ، ويُحبُّون التعامل معه بما لديْه من شرف الكلمة وصدْق الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مركزه فى السوق أى : زلَّتْ قدمه بما حدث منه من نقْضٍ للعهود ، وحِنْث فى

---

(١) تصافقوا : تبايعوا . وصفق يده بالبيعة والبيع وعلى يده صفقاً : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . [لسان العرب ـ مادة : صفق] .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٣٣٨١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧٨/٦) وكذا فى السنن الصغرى (٢٢٠١) والحاكم فى مستدركه (٥٢/٢) من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما » .

قال الطيبى رحمه الله : « الشركة عبارة عن اختلاط أموال بعضهم ببعض بحيث لا يتميز . وشركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كأنه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما » . نقله شمس الدين العظيم آبادى فى عون المعبود (١٧٠/٥) .

الأيمان وغير ذلك مما لا يليق بأهل الثقة في السوق ، ومثل هذا ينتهى به الأمر إلى أنْ يعلنَ إفلاسه في دنيا التعامل مع الناس

أما الوفاء بالعهود والمواثيق والأيْمان فيجعل قدمك في حركة الحياة ثابتة لا تتزحزح ولا تهتزّ ، فترى مال الناس جميعاً مالَه ، وتجد أصحاب الأموال مقبلين عليك يضعون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة في التعامل .

ولذلك ، فالتشريع الإسلامي حينما شرع لنا الشركة راعى هذا النوع من الناس الذي لا يملك إلا سمعة طيبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإنْ دخل شريك بما لديْه من رأس المال ، فهذا شريك بما لديْه من شرف الكلمة وشرف السلوك ، ووجاهة بين الناس ، وماضٍ مُشرِّف من التعامل .

وهذه يسمونها « شركة الوجوه والأعيان » وهذا الوجيه في دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قد نرى هذه الثقة لا في شخص من الأشخاص ، بل نراها في ماركة من الماركات أو العلامات التجارية ، فنراها تُباع وتُشترى ، ولها قيمة غالية في السوق بما نالتْه من احترام الناس وتقديرهم ، وهذا أيضاً نتيجة الصدق والالتزام والأمانة وشرف الكلمة .

وقوله تعالى :

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل]

السوء : أى العذاب الذى يسُوء صاحبه فى الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكساد فى الحال ، بعد أنْ سقط من نظر المجتمع ، وهدم جِسْر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٩٤﴾﴾ [النحل]

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأَيْمان ولا يُوفُونَ بها ، فهل فى هذا صَدٌّ عن سبيل الله ؟

نقول : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شىء يجعل حركة الحياة منتظمة تُدَار بشرف وأمانة وصِدْق ونفاذ عهد .

ومن هنا ، فالذى يُخلف العهد ، ولا يفى بالمواثيق يعطى للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يضِنُّ بماله ، وصاحب المعروف يتراجع ، فلو اقترضتَ إنساناً وغدرَ بكَ فلا أظنُّك مُقرِضاً لآخر .

إذن : لا شكَّ أن فى هذا صداً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس فى فعْل الخير .

وقوله تعالى :

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل]

فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة فى الدنيا ، وبعد أنْ زلَّتْ بهم القدم ، ونزل بهم من عذاب الدنيا ألوانٌ ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أى فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ينهانا ويُحذِّرنا : إياك أنْ تجعلَ عَهْدَ الله الذى أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كفيلاً ، فبعد أن كنت حُراً فى أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك .

أو : عهد الله - أى - شرعه الذى تعاهدتَ - على العمل به والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيمانى الأعلى ، وهو أن تؤمنَ بالله وبصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول من أحكام ، إياك أنْ تقابله بشىء آخر تجعله أغْلى منه ؛ لأنك إنْ نقضْتَ عهد الله لشىء آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلتَ هذا الشىء أغلى من عهد الله ؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلاً .

ثم يأتى تعليل ذلك فى قوله :

﴿ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل]

فالخير فى الحقيقة ليس فى متاع الدنيا مهما كَثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، وقد أوضح ذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل]

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل]

فهذا أسلوب توكيد بالقصر بإعادة الضمير (هو) ، فلم يَقُل الحق سبحانه إنما عند الله خير لكم ، فيحتمل أن ما عند غيره أيضاً خيرٌ لكم ، أما في تعبير القرآن ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي : الخير فيما عند الله على سبيل القَصْر ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فجاء بالضمير « هو » ليؤكد أن الشافي هو الله لوجود مَظنَّة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما في الأشياء التي لا يُظَنّ فيها المشاركة فتأتي دون هذا التوكيد كما في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فلم يقل : هو يميتني هو يُحيين ؛ لأنه لا يميت ولا يُحيي إلا الله ، فلا حاجةَ للتوكيد هنا .

ما الذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد ؟

الذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد أنْ يرى مصلحة سطحية فوق ما تعاقد عليه تجعله يخرج عما تعاهد عليه إلى هذه السطحية ، ولكنه لو عقل وتدبَّر الأمر لعلم أنَّ ما يسعى إليه ثمن بَخْسٌ ، ومكسب قليل زائل إذا ما قارنه بما ادخر له في حالة الوفاء ؛ لأن ما أخذه حظاً من دنياه لابُدَّ له من زوال .

والعقل يقول : إن الشيء ، إذا كان قليلاً باقياً يفضل الكثير الذي لا يبقى ، فما بالك إذا كان القليل هو الذي يفني ، والكثير هو الذي يبقى .

ومثال ذلك : لو أعطيتُك فاكهة تكفيك أسبوعاً أو شهراً فأكلتها في يوم واحد ، فقد تمتعْتَ بها مرة واحدة ، وفاتكَ منها مُتَعٌ وأكلاتٌ متعددة لو أكلتَها في وقتها .

لذلك ؛ فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهك أنَّ ما عند الله هو الخير الحقيقى ، فجعل موازينك الإيمانية دقيقة ، فمن الحُمْق أن تبيع الكثير الباقى بالقليل الفانى :

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾ [النحل]

فى الآية دِقّة الحساب ، ودِقّة المقارنة ، ودِقّة حلّ المعادلات الاقتصادية .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن حظَّ الإنسان من دُنْياه عَرَضٌ زائل ، فإمَّا أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو بَاقٍ لا نفاد له .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦) ﴾ [النحل]

كلمة ﴿ صَبَرُوا ﴾ تدلُّ على أن الإنسان سيتعرّض لهزّات نفسية نتيجة ما يقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نَقْضه ، حينما يلوح

له بريق المال وتتحرك بين جنباته شهوات النفس ، فيقول له الحق تبارك وتعالى : اصبر .. اصبر لا تكُنْ عَجُولاً ، وقارن المسائل مقارنة هادئة ، وتحمَّل كل مشقة نفسية ، وتغلَّب على شهوة النفس ؛ لتصل إلى النتيجة المحمودة .

فالتلميذ الذى يجتهد ويتعب ويتحمَّل مشقة الدرس والتحصيل يصبر على الشهوات العاجلة لما ينتظره من شهوات باقية آجلة ، فوراء الدرس والتحصيل غايةٌ أكبر وهَدَفٌ أسْمى .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦) ﴾ [النحل]

أى : على مشقَّات الوفاء بالعهود .

﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [النحل]

أى : أجراً بالزيادة فى الجزاء على أحسن ما يكون ؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً فله الجزاء ، أما المباح فالمفروض ألا جزاء له ، ولكنّ فضل الله يجزى عليه أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

الحق تبارك وتعالى يُعطينا قضية عامة ، هى قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرجال ، وليس للمرأة

تدخل فى إعطاء العهود ، حتى إنها لما دخلت فى عهد مع النبى ﷺ يوم بيعة العقبة جعل واحداً من الصحابة يبايع النساء نيابة عنه[1]

إذن : المرأة بعيدة عن هذا المعترك نظراً لأن هذا من خصائص الرجال عادةً ، أراد سبحانه وتعالى أن يقول لنا : نحن لا نمنع أن يكونَ للأنثى عملٌ صالح .

ولا تظنّ أن المسألة منسحبة على الرجال دون النساء ، فالعمل الصالح مقبول من الذكر والأنثى على حدٍّ سواء ، شريطة أنْ يتوفَّر له الإيمان ، ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (٩٧) ﴾ [النحل]

وبذلك يكون العمل له جَدْوى ويكون مقبولاً عند الله ؛ ولذلك نرى كثيراً من الناس الذين يُقدِّمون أعمالاً صالحةً ، ويخدمون البشرية بالاختراعات والاكتشافات ، ويداوون المرضى ، ويبنون المستشفيات والمدارس ، ولكن لا يتوفر لهم شرط الإيمان بالله .

فنرى الحق تبارك وتعالى لا يبخس هؤلاء حقهم ، ولكن يُعجِّله لهم فى الدنيا ؛ لأنه لا حَظَّ لهم فى أجر الآخرة ، يقول تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة (٤٦٦/٢) أن رسول الله ﷺ كان لا يصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن ، قال : اذهبن فقد بايعتكن .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة]

وهذا كله خاصٌ بأمور الدنـيا ، فالذى يحسن شيـئاً ينال ثمرته ، لكن فى جزاء الآخرة نقول لهؤلاء : لا حَظَّ لكم اليوم ، وخذوا أجركم ممَّنْ عملتُم له فقد عملتُم الخيـر للإنسانية للشهرة وخلود الذكْر ، وقد أخذتم ذلك فى الدنيا فـقد خلَّدوا ذكْراكم ، ورفعـوا شانكم ، وصنعوا لكم التماثيل ، ولم يبخسوكم حقكم فى الشُّهْرة والتكريم .

ويوم القيامة يواجههم الحق سبحانه وتعالى : فعلتم ليقال .. وقد قيل ، فاذهبوا وخذوا ممَّنْ عملتم لهم[1] .

هؤلاء الذين قال الله فى حقهم :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمـعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقـى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسـحب على وجهه ، حتى ألقى فى النار » الحـديث أخرجه مسلم فى صحـيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) .

(٢) القاع والـقيعـة : ما استوى من الأرض وانخـفض عمـا يحيط به من الجـبال والآكـمات . [القاموس القـويم ٢/١٣٧] والسراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفـضاء كأنه ماء وليس بماء . [القاموس القويم ١/٣٠٨] .

يُفاجأ يوم القيامة أن له إلهاً كان ينبغى أنْ يؤمن به ويعمل ابتغاء وجهه ومرضاته .

إذن : فالإيمان شرْطٌ لقبول العمل الصالح ، فإذا ما توفر الإيمان فقد استوى الذكَر والأنثى فى الثواب والجزاء .

يقول تعالى :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل]

هذه هى النتيجة الطبيعية للعمل الصالح الذى يبتغى صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظين من الجزاء ، حظاً فى الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة[1] ، وحظاً فى الآخرة :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) ﴾

الاستعاذة : اللجوء والاعتصام بالله من شىء تخافه ، فأنت لا تلجأ ولا تعتصم ، ولا تستجير ولا تستنجد إلا إذا استشعرتَ فى نفسك أنك ضعيف عن مقاومة عدوك .

فإذا كان عدوك الشيطان بما جعل الله له من قوة وسلطان ،

---

(١) نقل القرطبى فى تفسيره خمسة أقوال فى تأويل الحياة الطيبة :
الأول : الرزق الحلال . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء .
الثانى : القناعة . قاله الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب .
الثالث : توفيقه إلى الطاعات ، فإنها تؤديه إلى رضوان الله . قال معناه الضحاك .
الرابع : الجنة . قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . قال الحسن البصرى : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .
الخامس : حلاوة الطاعة . قاله أبو بكر الوراق .

وما له من مداخل للنفس البشرية فلا حَوْلَ لك ولا قُوّة فى مقاومته إلا أنْ تلجأ إلى الله القوى الذى خلقك وخلق هذا الشيطان ، وهو القادر وحده على رَدّه عنك ؛ لأن الشيطان فى معركة مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة .

وقد أقسم الشيطان للحق تبارك وتعالى ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

[ص]

فما عليك إلا أن تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أنْ ترتمى فى حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوى القادر على أنْ يدفعَ عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك ، فلا تقاومه بقوتك أنت ؛ لأنه لا طاقة لك به ، ولا تدعه ينفرد بك ؛ لأنه إن انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغلبة .

ولذلك نقول دائماً : لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله ، أى : لا حول : لا تحوُّل عن المعصية . ولا قوة . أى : على الطاعة إلا بالله .

ونحن نرى الصبى الصغير الذى يسير فى الشارع مثلاً قد يتعرَّض لمَنْ يعتدى عليه من أمثاله من الصبية ، أما إذا كان فى صُحْبة والده فلا يجرؤ أحد منهم أنْ يتعرضَ له ، فما بالك بمَنْ يسير فى صُحْبة ربه تبارك وتعالى ، ويُلْقى بنفسه فى حماية الله سبحانه ؟!

وفى مقام الاستعاذة بالله نذكر قاعدة إيمانية علَّمنا إياها

الرسول ﷺ فى حديثه الشريف : « من استعاذ بالله فأعيذوه »[1] .

فيلزم المؤمن أنْ يعيذ من استعاذ بالله ، وإنْ كان فى أحب الأشياء إليه ، والرسول ﷺ يعطينا القدوة فى ذلك ، حينما تزوج من فتاة[2] على قدر كبير من الحسن والجمال لدرجة أن نساءه غِرْنَ منها ، وأخذْنَ فى الكَيْد لها وزحزحتها من أمامهن حتى لا تغلبهن على قلب النبى ﷺ ، ولكن كيف لهُنَّ ذلك ؟

حاولْنَ استغلال أن هذه الفتاة ما تزال صغيرة غِرة ، تتمتع بسلامة النية وصفاء السريرة ، ليس لديها من تجارب الحياة ما تتعلم منه لُؤْماً أو مكْراً ، وهى أيضاً ما تزال فى نشوة فرحتها بأنْ أصبحت أماً للمؤمنين ، وتحرص كل الحرص على إرضاء النبى ﷺ فاستغل نساء النبى ﷺ هذا كله ، وقالت لها إحداهن : إذا دخلتِ على رسول الله فقولى له : أعوذ بالله منك ، فإنه يحب هذه الكلمة .

أخذت الفتاة هذه الكلمة بما لديها من سلامة النية ، ومحبة لرسول الله ، وحرص على إرضائه ، وقالت له : أعوذ بالله منك ، وهى لا تدرى معنى هذه العبارة فقال ﷺ : « لقد عُذْت بمعاذ ، الحقى بأهلك »[3] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٠/١) ، وأبو داود فى سننه (٥١٠٨) والنسائى فى سننه (٨٢/٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه » .

(٢) هى ابنة الجون . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٣٥٧/٩) : « الصحيح أن اسمها أميمة بنت النعمان بن شراحيل الكندية » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٤ ـ ٥٢٥٧) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٥٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

أى : ما دُمْت استعذت بالله فأنا قبلت هذه الاستعاذة ؛ لأنك استعذت بمعاذ أى : بمن يجب علينا أن نتركك من أجله ، ثم طلقها النبى ﷺ امتثالاً لهذه الاستعاذة .

إذنْ : مَن استعاذ بالله لا بُدَّ للمؤمن أنْ يُعيذه ، ومن استجار بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يكون جندياً من جنود الله ، ويجيره حتى يبلغ مأمنه .

وفى الآية الكريمة أسلوب شرط ، اقترن جوابه بالفاء فى قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَعِذْ .. (٩٨) ﴾ [النحل]

فإذا رأيت الفاء فاعلم أن ما بعدها مترتبٌ على ما قبلها ، كما لو قُلْتَ : إذا قابلت محمداً فقُلْ له كذا .. فلا يتم القول إلا بعد المقابلة . أما فى الآية الكريمة فالمراد : إذا أردت قراءة القرآن فاستعذْ ؛ لأن الاستعاذة هنا تكون سابقة على القراءة ، كما جاء فى قوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فالمعنى : إذا أردتُمْ إقامة الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وكذلك إذا أردتَ قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأن القرآن كلام الله .

ولو آمنّا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم لعلمنا أن قراءة القرآن تختلف عن أى قراءة أخرى ، فأنت كى تقرأ القرآن تقوم بعمليات متعددة :

أولها : استحضار قداسة المُنْزِل سبحانه الذى آمنتَ به وأقبلتَ على كلامه .

ثانيها : استحضار صدق الرسول فى بلاغ القرآن المنزَّل عليه .

ثالثها : استحضار عظمة القرآن الكريم ، بما فيه من أوجه الإعجاز ، وما يحويه من الآداب والأحكام .

إذن : لديك ثلاث عمليات تستعد بها لقراءة كلام الله فى قرآنه الكريم ، وكل منها عمل صالح لن يدعكَ الشيطانُ تؤديه دون أنْ يتعرَّض لك ، ويُوسوس لك ، ويصرفك عما أنتَ مُقبِلٌ عليه .

وساعتها لن تستطيع منعه إلا إذا استعنتَ عليه بالله ، واستعذتَ منه بالله ، وبذلك تكون فى معية الله منزل القرآن سبحانه وتعالى ، وفى رحاب عظمة المنزل عليه محمد صدقاً ، ومع استقبال ما فى القرآن من إعجاز وآداب وأحكام .

ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن .

ومع ذلك لا مانع من حَمْل المعنى على الاستعاذة أيضاً بعد قراءة القرآن ، فيكون المراد : إذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله .. أى : بعد القراءة ؛ لأنك بعد أن قرأتَ كتاب الله خرجتَ منه بزاد إيمانى وتجليّات ربانية ، وتعرَّضْتَ لآداب وأحكام طُلبت منك ، فعليك ـ إذن ـ أن تستعيذ بالله من الشيطان أن يفسد عليك هذا الزاد وتلك التجليات ، أو يصرفك عن أداء هذه الآداب والأحكام .

وقوله تعالى :

﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]

أى : الملعون المطرود من رحمة الله ؛ لأن الشيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أنْ نُجرِّبه لنعرف طبيعته وكيفية التعامل معه ، بل له معنا سوابق عداء منذ أبينا آدم عليه السلام .

وقد حذر الله تعالى آدم منه فقال :

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ..﴿١١٧﴾﴾ [طه]

وسبق أنْ رُجم ولُعن وأُبعد من رحمة الله ، فقد هددنا بقوله :

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُ..﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

إذن : هناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خَلْق الإنسان ، وإلى قيام الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

لحكمة أرادها الخالق سبحانه أنْ جعل للشيطان سلطاناً . أى : تسلطاً .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز ، كأنه وضعه في حنكه فلا يفلت منه . وقوله معناه : أى لأملكن أمرهم ولأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١٧٥/١] .

وكلمة (السلطان) مأخوذة من السَّليط ، وهو الزيت[1] الذى كانوا يُوقِدون به السُّرج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء ، فكانوا يضعون هذا الزيت فى إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة ، وعندما توقد تمتصّ من هذا الزيت وتُضىء ؛ ولذلك سُمِّيتْ الحجة سُلْطاناً ؛ لأنها تنير لصاحبها وَجْه الحق .

والسلطان ، إما سلطان حجة تقنعك بالفعل ، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به . وإما سلطان قَهْر وغلبة يجبرك على الفعل ويحملك عليه قَهْراً دون اقتناع به .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التى تُضىء لك وتُوضّح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التى تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع وإنْ لم ترها .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيّاً من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة والإقناع ، ولا قوة القهر . وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى على لسان الشيطان يوم القيامة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[2] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ

---

(١) قال ابن الأعرابى : السليط عند عامة العرب الزيت . وعند أهل اليمن : دُهْن السمسم . وقال الزجاج : اشتقاق السلطان من السليط . والسليط ما يُضاء به . [لسان العرب - مادة : سلط] .

(٢) أى : بمغيثكم . والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة . والمصرخ هو المغيث . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٩٤] .

بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

هذا حوار يدور يوم القيامة بعد أن انتهت المسألة وتكشفت الحقيقة ، وجاء وقت المصارحة والمواجهة . يقول الشيطان لأوليائه مُتنصلاً من المسئولية : ما كان عندى من سلطان عليكم ، لا سلطان حجة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضاً ، ولا سلطان قَهْر أجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فأتيتمونى طائعين .

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

أى : نحن فى الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتى ؛ لأن الصُّراخَ يكون من شخص وقع فى ضائقة أو شدة لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عالٍ لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلّصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أى : أزالوا سبب صُرَاخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالة سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صُرَاخى .

وكذلك فى حوار آخر دار بين أهل الباطل الذين تكاتفوا عليه فى الدنيا ، وها هى المواجهة يوم القيامة :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

والمراد بقوله : (عَنِ الْيَمِينِ) أن الإنسان يزاول أعماله بكلتا

يديه ، لكن اليد اليمنى هى العُمْدة فى العمل ، فأتيته عن اليمين . أى : من ناحية اليد الفاعلة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۝٣٠ ﴾ [الصافات]

أى : فى انتظار إشارة منّا ، مجرد إشارة ، فسارعتم ووقعتم فيما وقعتُم فيه .

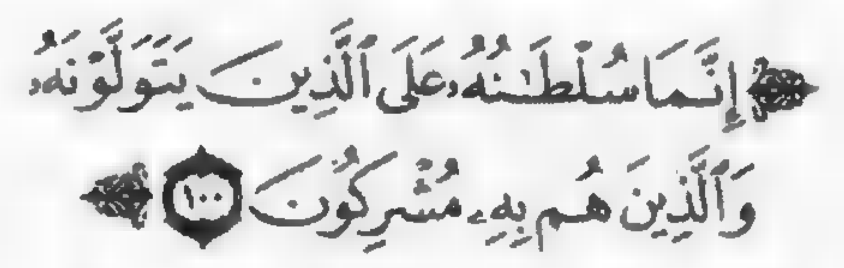
فعلى مَنْ يكون تسلط الشيطان وتلك الغلبة والقهر ؟

يُوضّح الحق تبارك وتعالى أن تسلّط الشيطان لا يقع على مَنْ آمن به رباً ، ولجأ إليه واعتصم به ، وما دُمْت آمنتَ بالله فأنت فى مَعيّته وحفْظه ، ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق لله تعالى أنْ يتسلّط عليك أو يغلبك .

إذن : الحصن الذى يقينا كيْدَ الشيطان هو الإيمان بالله والتوكّل عليه سبحانه .

فعلى مَنْ إذن يتسلّط الشيطان ؟

يُوضّح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول :



معنى يتولونه : أى يتخذونه وَلياً يطيعون أمره ، ويخضعون لوسوسته ، ويتبعون خطواته :

﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل]

أي : مشركون بالله ، أو يكون المعنى : وهُمْ به أي بسببه أشركوا : لأنه أصبح له أوامر ونواهٍ وهم يطيعونه ، وهذه هي العبادة بعينها ، فكأنهم عبدوه من دون الله بما قدَّموه من طاعته في أمره ونَهْيه .

وقد سَمَّى الله طريقة الشيطان في الإضلال والغواية وَسْوسةً ، والوسوسة في الحقيقة هي صَوْت الحُلِيّ حينما يتحرك في أيدي النساء ، فيُحدث صوتاً رقيقاً فيه جاذبية وإغراء تهيج له النفس ، وكذلك الشيطان يدخل إليك عن طريق الإغراء والتزيين ، فإذا ما هاجتْ عليك نفسُك وحدَّثتْك بالمعصية تركك لها ، فعند هذه النقطة تنتهي مُهمته .

ولكن ، هل النفس لا تفعل المعصية إلا بوسوسة الشيطان ؟

قالوا : لا ، فالنفس - والمراد هنا النفس الأمَّارة بالسوء - قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشيطان ، وقد يُوسْوِسُ الشيطان لها ، وينزغها نَزْغاً ويُؤلِّبها ، ويُزيِّن لها معصية ما كانت على بالها .

فكيف - إذن - يُفرِّق بين هاتين المعصيتين ؟

النفس حينما ترغب في معصية أو شهوة تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، وإذا قاومتَ نفسك ، وحاولتَ صَرْفها عن هذه الشهوة ألحَّتْ عليك بها ، وطلبتها بعينها ، فشهوة النفس إذن ثابتة : لأنها تشتهي شيئاً واحداً تُلح عليه .

ولكن حينما يُوسوِسُ الشيطان لك بشهوة فوجد منك مقاومة وقدرة على مجابهته صرف نظرك إلى أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً بأىّ شكل من الأشكال ، فتراه يُزيّن لك معصية أخرى وأخرى ، إلى أنْ ينال منك ما يريد .

ومن ذلك ما نراه فى الرشوة مثلاً - والعياذ بالله - فإنْ رفضتَ رشوة المال زيَّن لك رشوة الهدية ، وإنْ رفضتَ رشوة الهدية زيَّنَ لك الرشوة بقضاء مصلحة مقابلة .

وهكذا يظل هذا اللعين وراءك حتى يصل إلى نقطة ضَعْف فيك ، إذن : فهو ليس كالنفس يقف بك عند شهوة واحدة ، ولكنه يريد أن يُوقع بك على أىّ صورة من الصور .

ولكى نقفَ على مداخل الشيطان ونكون منه على حَذر يجب أنْ نعلم أن الشيطان على علم كبير وصل به إلى صفوف الملائكة ، بل سَمَّوه « طاووس الملائكة » ، ويمكن أن نقف على شىء من علم الشيطان فى دقّة قَسَمه ، حينما أقسم للحق تبارك وتعالى أن يُغوى بنى آدم ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾
[ص]

هكذا عرف الشيطان أنْ يُقسِم القسَم المناسب ، فلم يَقُلْ : بقوتى ولا بحجتى سأغوى الخَلْق ، بل عرف لله تعالى صفة العزة ، فهو سبحانه عزيزٌ لا يُغلب ؛ لذلك ترك لخلْقه حرية الإيمان به ، فقال :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾ [الكهف]

فالمعنى : فبعزتك عن خَلْقك : يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، سوف أدخل من هذا الباب لإغواء البشر ، ولكننى لا أجرؤ على الاقتراب ممَّنْ اخترتَهم واصطفيتَهم ، لن أتعرَّضَ لعبادك المخلصين ، ولا دَخْلَ لى بهم ، ولا سلطان لى عليهم .

كذلك يجب أن نعلم أن الشيطان دقيق فى تخطيطه ، وهذا من مداخله وتلبيسه الذى يدعونا إلى الحذر من هذا اللعين . فالشيطان لا حاجة له فى أن يذهب إلى الخمارات مثلاً ، فقد كفاه أهلُها مشقة الوَسْوسة ، ووفَّروا عليه المجهود ، هؤلاء هم أولياؤه وأحبابه ومُريحوه بما هم عليه من معصية الله ، ولكنه فى حاجة إلى أن يكون فى المساجد ليُفسد على أهل الطاعة طاعتهم .

وقد أوضح هذه القضية وفطن إليها الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان ، وكان مشهوراً بالفِطْنة ، وعلى دراية بمداخل الشيطان وتلبيسه ، وكل هذا جعل له باعاً طويلاً فى الإفتاء ، وقد عرض عليه أحدهم هذه المسألة :

قال : يا إمام كان لدىَّ مال دفنته فى مكان كذا ، وجعلتُ عليه علامة ، فجاء السَّيْل وطمس هذه العلامة ، فلم أهتدِ إليه ، فماذا أفعل ؟

فتبسَّم أبو حنيفة وقال : يا بُنى ليس فى هذا علم ، ففى أىِّ باب من أبواب الفقه سيجد أبو حنيفة هذه القضية ؟! ولكنى سأحتال لك .

وفعلاً تفتقتْ قريحة الإمام عن هذه الحيلة التى تدل على علْمه وفقهه ، قال له : إذا جئتَ فى الليل فتوضّأ ، وقُمْ بين يدى ربِّك

مُتهجِّداً . وفى الصباح أخبرنى خبرك .

وفى صلاة الفجر قابله الرجل مُبتسماً . يقول : لقد وجدتُ المال ، فقال : كيف ؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يدىْ ربى فى الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدت مالى ، فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تُتِم ليلتك مع ربك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ ومنها : ابدلت واستبدلتُ ، أى : رفعتُ آية وطرحتُها . وجئت بأخرى بدلاً منها ، وقد تدخل الباء على الشىء المتروك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

أى : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية ؟ كلمة آية لها معَانٍ متعددة منها :

- الشىء العجيب الذى يلفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول : هذا آية فى الجمال ، أو فى الشجاعة ، أو فى الذكاء ، أى : وصل فيه إلى حدٍّ يدعو إلى التعجُّب والانبهار .

- ومنها الآيات الكونية ، حينما تتأمل فى كون الله من حولك تجد آيات تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى]

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبدّل ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ..(٢٣) ﴾ [الفتح]

- ومن معانى الآية : المعجزة ، وهى الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتى المعجزة على أيدى الأنبياء لتكون حُجّة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ فى هذا النوع من الآيات أنه يتبدّل ويتغيّر من نبى لآخر ؛ لأن المعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان فى شىء نبغ فيه القوم ؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة فى مجال لا عِلْمَ لهم به لقالوا : لو أن لنا عِلْماً بهذا لأتيْنا بمثله ؛ لذلك تأتى المعجزة فيما نبغُوا فيه ، وعلموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغَ قوم موسى عليه السلام فى السحر كانت معجزته من

نوع السحر الذى يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى ـ عليه السلام ـ ونبغ قومه فى الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان ـ عليه السلام ـ يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله .

فلما بُعث محمد ﷺ ، ونبغ قومه فى البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلِّقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازاً بها ، فكان لا بُدَّ أنْ يتحدّاهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه وهى القرآن الكريم ، وهكذا تتبدّل المعجزات لتتناسب كُلٌّ منها حال القوم ، وتتحدّاهم بما اشتهروا به ، لتكون أدْعى للتصديق وأثبت للحجة .

– ومن معاني كلمة آية : آيات القرآن الكريم التى نُسمّيها حاملة الأحكام ، فإذا كانت الآية هى الأمر العجيب ، فما وجه العجب فى آيات القرآن ؟

وجه العجب فى آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات فى أمّة أمية ، وأُنزلتْ على نبى أمىٍّ فى قوم من البدو الرُّحل الذين لا يجيدون شيئاً غير صناعة القول والكلام الفصيح ، ثم تجد هذه الآيات تحمل من القوانين والأحكام والآداب ما يُرهب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب ، فنراهم يتطلّعون للإسلام ، ويبتغون فى أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا عجيباً ؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التى هى آيات الكتاب الكريم ، والتى نُسمّيها حاملة الأحكام ، هل تتبدّل هى الأخرى كسابقتها ؟

نقول : آيات الكتاب لا تتبدَّل ؛ لأن أحكام الله المطلوبة ممَّن عاصر رسول الله ﷺ كالأحكام المطلوبة ممَّنْ تقوم عليه الساعة .

وقد سُبق الإسلام باليهودية والمسيحية ، فعندنا أمر رسول الله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة . اعترض على ذلك اليهود[1] وقالوا : ما بال محمد لا يثبتُ على حال ، فيأمر بالشيء اليوم ، ويأمر بخلافه غداً ، فإنْ كان البيت الصحيح هو الكعبة فصلاتكم لبيت المقدس باطلة ، وإنْ كان بيت المقدس هو الصحيح فصلاتكم للكعبة باطلة .

لذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

فالمراد بقول الحق سبحانه :

﴿ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

أى : جِئْنا بآية تدلُّ على حكم يخالف ما جاء فى التوراة ، فقد كان استقبال الكعبة فى القرآن بدل استقبال بيت المقدس فى التوراة .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٧٤) مرسلاً من حديث الزهرى أن القبلة صرفت نحو المسجد الحرام فى رجب على رأس ستة عشر شهراً من مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وأن اليهود أنشأت تقول : قد اشتاق الرجل إلى بلده ، وبيت أبيه ، وما لهم حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجهاً ، ومرة وجهاً آخر .

أى : يُنزل كل آية حَسْب ظروفها : أمة وبيئة ومكاناً وزماناً .

وقوله : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

أى : اتهموا رسول الله ﷺ بالكذب المتعمد ، وأن هذا التحويل من عنده ، وليس وَحْياً من الله تعالى ؛ لأن أحكام الله لا تتناقض . ونقول . نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض فى الدين الواحد ، أما إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القرآن الكريم لا تتبدّل ، ولكن يحدث فيها نَسْخ ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة]

وإليك أمثلة للنسْخ فى القرآن الكريم :

حينما قال الحق سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل ، فالمشرّع سبحانه حين يرى أن الاستطاعةَ لا تكفى يُخفّف عنّا الحكم ، حتى لا يُكلّفنا فوق طاقتنا ، كما فى صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا (٧) ﴾ [الطلاق]

فليس لنا بعد ذلك أنْ نلوىَ الآيات ونقول : إن الحكم الفلانى لم تَعُدْ النفس تُطيقه ولم يَعُد فى وُسْعنا ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم الوُسْع ويُكلّف على قَدْره ، فإنْ كان قد كلّف فقد علم الوُسْع ، بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خفّف عنكم من تلقاء نفسه سبحانه ، كما قال تعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا.. (٦٦) ﴾ [الأنفال]

ففى بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ.. (٦٥) ﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضَعْفاً ، قال :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ.. (٦٦) ﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى اثنين . فالله تعالى هو الذى يعلم حقيقة وُسْعنا ، ويكلفنا بما نقدر عليه ، ويُخفِّف عنَّا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أنْ نُقحِم أنفسنا فى هذه القضية ، ونُقدِّر نحن الوُسْع بأهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُنْتَه ذاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحَياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ[1] لِلْوَالِدَيْنِ .. (١٨٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٢١١) : « اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصى » .

فلما استقر الإيمان في النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً ، وغيَّر الحكم من الوصية إلى خير منها وهو الميراث ، فقال تعالى :

﴿ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ.. (١١) ﴾ [النساء]

إذن : الحق تبارك وتعالى حينما يُغيِّر آية ينسخها بأفضل منها .

وهذا واضح في تحريم الخمر مثلاً ، حيث نرى هذا التدريج المحكم الذي يراعي طبيعة النفس البشرية ، وأن هذا الأمر من العادات التي تمكَّنَتْ من النفوس ، ولا بُدَّ لها من هذا التدرُّج ، فهذا ليس أمراً عَقَدياً يحتاج إلى حُكْم قاطع لا جدال فيه .

فانظر إلى هذا التدريج في تحريم الخمر : قال تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً[1] وَرِزْقاً حَسَناً (٦٧) ﴾ [النحل]

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا : لقد بيَّت الله للخمر أمراً في هذه الآية ؛ ذلك لأنه وصف الرزق بأنه حَسَن ، وسكت عن السَّكَر فلم يصفه بالحُسْن ، فدلَّ ذلك على أن الخمر سيأتي فيه كلام فيما بعد .

وحينما سُئِل ﷺ عن الخمر ردَّ القرآن عليهم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا.. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن عباس : السَّكَر : الخمر . والرزق الحسن : جميع ما يُؤكل ويُشرب حلالاً من هاتين الشجرتين . قال ابن العربي : الصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة . فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدني. نقله القرطبي في تفسيره (٥/٢٨٥٣ . ٢٨٥٤) .

جاء هذا على سبيل النصح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مَخْرجاً من أسْر هذه العادة السيئة .

ثم لُوحِظ أن بعض الناس يُصلي وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون[1] ، فجاء الحكم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

ومقتضى هذا الحكم أنْ يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تتأتى لهم الصلاة دون سُكْر إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كافٍ ، وهكذا عوَّدهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذي يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكَّن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة ألفتْ فيها تَرْك الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مُهيَّئة لتقبُّل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة]

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (١/٥٠٠) سبب نزول هذه الآية أن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً . قال فقرأ : « قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحُكْماً بما هو أحسن منه .

والعجيب أنْ نرى من علمائنا مَنْ يتعصَّب للقرآن ، فلا يقبل القول بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول :

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..(١٠٦)﴾ [البقرة]

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمَّى البداء[1] .. ففي النسخ كأن الله تعالى أعطى حُكْماً ثم تبيّن له خطؤه ، فعدل عنه إلى حُكْم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب في هذا القول ، فمعنى النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا المعنى يقع النسخ في القرآن الكريم .

ومنهم مَنْ يقف عند قول الحق تبارك وتعالى :

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..(١٠٦)﴾ [البقرة]

فيقول : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ فيها علّة للتبديل ، وضرورة تقتضي النسخ وهي الخيرية ، فما علّة التبديل في قوله : ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ ؟

أولاً : في قوله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ قد يقول قائل : ولماذا لم يأتِ بالخيرية من البداية ؟

نقول : لأن الحق سبحانه حينما قال :

---

(١) قال السيوطي في الإتقان (٣/ ٦٠) : « أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء . كالذي يرى الرأي ثم يبدو له ، وهو باطل لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه . والمرض بعد الصحة وعكسه ، وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر والنهي » وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٥١) : « المسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه » .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وهذه منزلة عالية في التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ، شقّت[1] هذه الآية على الصحابة وقالوا : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فنزلت :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الأولى مطلوباً ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فَمنْ أراد أنْ يرتقي بتقواه إلى (حَقّ تُقَاته) فبها ونعْمت ، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وإنْ كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قِلّة ، في حين أن الثانية :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

وإنْ جعلتَ التقوى على قَدْر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ،

---

(١) قال سعيد بن جبير : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فنسخت الآية الأولى . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٣٧٧) .

ومن هنا كانت الثانية خَيْراً من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ أي : أن الأولى مثل الثانية ، فما وَجْه التغيير هنا ، وما سبب التَّبْديل ؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلَّف في مدى طاعته وانصياعه ، إنْ نُقل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقّة في هذا ، ولا تيسيرَ في ذاك ، هل سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش ؟

مثل هذه القضية واضحة في حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس في الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولا تيسير عليهم في الاتجاه نحو الكعبة ، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله[1] ، فكان من الناس مَنْ قال : سمعاً وطاعة ونفّذوا أمر الله فوراً دون جدال ، وكان منهم مَن اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضاً ما نراه في مناسك الحج مما سنَّه لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمي الجمرات وهي أيضاً حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هي لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ [النحل]

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ،

---

(١) وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] .

فالحق سبحانه وتعالى يُلغى كلامهم السابق :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

ويقول لهم : لا ليس بمفتر ولا كذاب ، فهذا اتهام باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ هنا ليس بالضرورة أنْ تقابل بالأقل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون . وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمنه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حَقَّ عليه العذاب ، فلم يقُلْ القرآن : وقليل حَقَّ عليه العذاب .

وعلى فَرْض أن :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ [النحل]

إذن : هناك أقلية تعلم صِدْق رسول الله ﷺ في البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صِدْق كل آية في مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية .

فَمنْ هم هؤلاء الذين يَعلمون في صفوف الكفار والمشركين ؟

قالوا : لقد كان بين هؤلاء قَوْم أصحاب عقول راجحة ، وفَهْم للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب فى هذه المسألة ، ولكنهم أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ⑭ ﴾ [النمل]

وأيضاً من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون فى الهدى ، ويُراودهم الإسلام ، وكان لديهم مشروعَ إسلام يُعدون أنفسهم له ، وهم على علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضاً من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التى تدفع عنهم ، والعصبية التى تردّ عنهم كَيْد الكفار ، وليس عندهم أيضاً طاقة أنْ يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم مؤمنون ويعلمون صدْق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرةَ لهم على إعلان إيمانهم .

وفى هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ㉔ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ[1] مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ㉕ ﴾ [الفتح]

أى : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن

---

(١) الهدى : هى الذبيحة تُهْدى إلى الحرم فى الحج . [القاموس القويم ٢/٣٠١] ومعكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحره . [القاموس القويم ٢/٣٢] .

بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم .

﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

أى : لو كانوا مُميَّزين ، الكفار فى جانب ، والمؤمنون فى جانب لَعذَّبْنَا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإنَّ غير الأكثرية يعلم أنهم كاذبون فى قولهم :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

وما داموا اتهموك بالافتراء فقُلْ رداً عليهم :

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يرد على الكفار افتراءهم على رسول الله ، واتهامهم له بالكذب المتعمد ، وأنه جاء بهذه الآيات من نفسه ، فقال له : يا محمد قُلْ لهؤلاء : بل نزَّله روح القُدس .

والقدس : أى المطهّر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول : حاتم الجود مثلاً . والمراد بـ « روح القُدُس » سفير الوحى جبريل عليه السلام ، وقد قال عنه فى آية أخرى :

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

وقال عنه :

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾ [التكوير]

وقول الحق سبحانه :

﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ .. (١٠٢)﴾ [النحل]

أى : أن جبريل لم يأتِ بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمُحمد ﷺ لم يأتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾ [النحل]

أى : ليُثبِّتَ الذين آمنوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلمُ بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفى هذا دليلٌ على أن المؤمنين طائعون مُنصَاعون لله تعالى مُصدِّقون للرسول ﷺ فى كُلِّ ما بلغ عن ربه تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وفى هذه الآية اتهام آخر لرسول الله ﷺ وافتراء جديد عليه ، لا يأنف القرآن من إذاعته ، فمَنْ سمع الاتهام والافتراء يجب أنْ يسمع الجواب ، فالقرآن يريد أنْ يفضحَ أمر هؤلاء ، وأنْ يُظهِر إفلاس حُججهم وما هم فيه من تخبُّط .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

وقد سبق أنْ قالوا عن رسول الله « مجنون » وبرأه الله بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

والخلقُ العظيم لا يكون فى مجنون ؛ لأن الخلُق الفاضل لا يُوضع إلا فى مكانه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم]

وسبق أنْ قالوا : ساحر وهذا دليل على أنهم مغفلون يتخبّطون فى ضلالهم ، فلو كان محمد ساحراً ، فلِمَ لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهى المسألة ؟

---

(١) الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد ، أى : مال عن القصد [تفسير القرطبى ٣٩٠٥/٥] .

وسبق أنْ قالوا « شاعر » مع أنهم أدْرى الناس بفنون القول شِعْراً ونثراً وخطابة ، ولم يُجرِّبوا على محمد ﷺ شيئاً من ذلك ، لكنه الباطل حينما يَلجّ في عناده ، ويتكبّر عن قبول الحق .

وهنا جاءوا بشيء جديد يُكذِّبون به رسول الله ، فقالوا :

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل]

أى : أن رسول الله ﷺ يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه القرآن فقالوا[1] : إنه غلام لبنى عامر بن لؤى اسمه (يعيش) ، وكان يعرف القراءة والكتابة ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرأ قصص السابقين مثل عنترة وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربتْ أقوالهم فى تحديد هذا الشخص الذى يزعمون أن رسول الله ﷺ تعلَّم على يديه ، فقالوا : اسمه « عداس » وقال آخرون : سلمان الفارسى . وقال آخرون : بَلْعام وكان حداداً رومياً نصرانياً يعلَم كثيراً عن أهل الكتاب .. الخ .

والحق تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء ، ويُظهِر إفلاسهم الفكرى ، وإصرارهم على تكذيب رسول الله ﷺ فيقول :

﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

---

(١) قاله المهدوى عن عكرمة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٩٠٤] . وذُكرتْ أقوال أخرى : أنه غلام للفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيا) . ومنها : أنه غلام عتبة بن ربيعة واسمه عداس . وقيل : عابس غلام حويطب بن عبد العُزّى . ويسار أبو فُكَيْهة مولى ابن الحضرمى ، وكانا قد أسلما :

اللسان هنا : اللغة التى يُتحدَّث بها .

ويُلحدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعلِّم رسول الله ﷺ .

أعجمى : أى لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقُلْ (عجمى) ، لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبويْه[1] صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عَجمى .

أما الأعجمى فهو الذى لا يُفصِح ولا يُبين ، حتى وإنْ كان عربياً . وقد كان فى قبيلة لؤى رجل اسمه زياد يُقال له « زياد الأعجمى » لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربى .

إذن : كيف يتأتَّى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أنْ يُعلِّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزة فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؟

كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه ﷺ التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه ﷺ تردَّد إلى معلم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم ؟

---

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان الحارثى بالولاء ، أبو بشر ، إمام النحاة . ولد فى إحدى قرى شيراز (١٤٨م) ، قدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد ففاقه . وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح . توفى بشيراز ١٨٠ هـ عن ٣٢ عاماً (الأعلام ـ للزركلى ٥/٨١) .

كمـا أن ما يحـويه القـرآن الكريم من آيات وأحكام ومعـجـزات ومعلومات يحتاج فى تعلُّمه إلى وقت طويل يتـتلمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جرَّبْتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعـقل أن مـا فى القـرآن يمـكن أن يطويه صَـدْرٌ واحـد من هؤلاء ؟! لو حـدث لكان له من المكانـة والمنزلة بين قـومه مـا كـان النبى ﷺ من منزلة ، ولأشـاروا إليه بالبنان ولذَاع صِيـتُه ، واشـتُـهر أمره ، وشىء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

أى : لغته ﷺ ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبِينة ، لا لَبْسَ فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [النحل]

ينفى عن هؤلاء صفة الإيمان ؛ فكيف يقول بعدها :

﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. (١٠٤) ﴾ [النحل]

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مُهْتدين ؟

قُلْنا : إن الهداية نوعان :

- هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوى فيها المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله الجميع ، وأوضح الطريق للجميع ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت]

أى : أرشدناهم ودَلَلْنَاهم .

- وهداية المعونة والتوفيق ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن : معنى :

﴿ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. (١٠٤) ﴾ [النحل]

أى : هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً : إن الجهة هنا مُنفكَّة إلى شيء آخر ، فيكون المعنى : لا يهديهم إلى طريق الجنة ، بل إلى طريق النار ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [النساء]

بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [النحل]

ولأنه سبحانه في المقابل عندما تحدَّث عن المؤمنين قال :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [محمد]

أى : هداهم لها وعرَّفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله واتهمتموه بالكذب فإن الكذب الحقيقى أنْ تُكذِّبوا بآيات الله ، ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ فى تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يَقُلْ : وأولئك هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما سُئِل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : « نعم » . لأن الله قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. (٣٨) ﴾ [المائدة]

فما دام قد شرَّع حُكْماً ، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر وارداً ومحتمل الحدوث .

وسُئل : أيزنى المؤمن ؟ قال : « نعم » ، لأن الله قال :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ۝٢ ﴾ [النور]

وسُئِل : أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] .

والحديث يُوضّح لنا فظاعة الكذب وشناعته ، وكيف أنه أعظم من كل هذه المنكرات ، فقد جعل الله لكل منها عقوبة معلومة في حين ترك عقوبة الكذب ليدل على أنها جريمة أعلى من العقوبة وأعظم .

إذن : الكذب صفة لا تليق بالمؤمن ، ولا تُتصوَّر في حقّه ؛ ذلك لأنه إذا اشتُهر عن واحد أنه كذاب لما اعتاده الناس من كذبه ، فنخشى أن يقول مرة : أشهد ألاّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فيقول قائل : إنه كذاب وهذه كذبة من أكاذيبه .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ﴾

---

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت في عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً ، فأما سمية فإنها رُبطت بين بعيرين ، ووُجيء قُبُلها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمتِ من أجل الرجال ، فقُتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام .

وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، فأخبر النبي ﷺ بأن عماراً كفر ، فقال كلا ، إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : إنْ عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت . فأنزل الله تعالى هذه الآية . ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ١٦٢) وتفسير القرطبي (٣٩٠٧/٥) .

الحق سبحانه وتعالى سبق وأنْ تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدَّث عن الذين يخلفون العهد ولا يُوفون به ، ثم تحدث عن الذين افتروْا على رسول الله والذين كذَّبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لابد أنْ تُثار .

وفي هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فالقول وحده لا يكفي ولا بُدَّ وأنْ تشهدَ بذلك ، ومعنى تشهد أنْ يُواطِيء القلب واللسان كل منهما الآخر في هذه المقولة .

والمتأمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضي أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أنْ يُواطيء القلب اللسان إيجاباً بالإيمان ؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقيٌ في إيمانه ؛ لأنه يقول ما يُضمره قلبه .

الثانية : أنْ يُواطِيءَ القلب اللسان سلباً أي : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقي في كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أنْ يؤمن بلسانه ويُضمرَ الكفر في قلبه ، وهذه حالة المنافق ، وهو غير منطقي في إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هي المرادة في هذه الآية . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر ؟ وما جزاؤه ؟

قوله :

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِهِ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل]

هذه جملة الشرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخْلَ للإنسان فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، في حين قلبه مطمئن بالإيمان .

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل]

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلّنا على أنه لا شيءَ عليه ، ولا بأسَ أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهي رخصة تقي الإنسان موارد الهلاك في مثل هذه الأحوال .

وفي تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقتْ كلمة الكفر وهي مطمئنة بالإيمان .

وفي الحديث الشريف : « رفع عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه »[1] .

ويذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين في الإسلام ، فكيف استشهدا ؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرّضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة الكفر مقابل

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٩٠٩/٥٠) : « والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء . قاله القاضي أبو بكر بن العربي . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في الفوائد . وابن المنذر في كتاب الإقناع » .

العفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين ؟ صدَعا بالحق وأصرا على الإيمان حتى نالا الشهادة فى سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أخذ بها ، حينما تعرّض لتعذيب المشركين .

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمار بن ياسر كفر ، فأنكر ﷺ هذا ، وقال :

« إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان فى عمار قد اختلط بلحمه ودمه »[1] .

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكى ، ثم قص عليه ما تعرّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلّصنى من أيديهم إلا أنّى تناولتك[2] وذكرت آلهتهم بخير ، فما كان من النبى ﷺ إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له « إنْ عادوا إليك فَقُلْ لهم ما قلت »[3] .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها

---

(١) أخرج أبو نعيم فى الحلية (١٣٩/١) من ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه » . وأورده الواحدى فى أسباب النزول (ص١٦٢) .

(٢) أى : أنه تناول رسول الله ﷺ بالسب والشتم وذكره بالشر .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٧٠/٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، ثم تركوه ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك شىء ؟ قال : شر ، ما تُرِكْت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان . قال : إن عادوا فعُدْ .

رسول الله ﷺ وقالوا : فما بال بلال[١] ؟ فقال : « عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق » .

ولا شكَّ أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأهله ، وأن الصَّدْعَ بالحق والصبر على البلاء أعْلَى منزلةً ، وأسْمَى درجة من الأَخْذ بالرخصة ؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

لذلك ، ففي حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نُبوَّته ، فقال لرجل : ما تقول في محمد ؟ قال : رسُول الله ، قال : فما تقول فيَّ ؟ فقال الرجل في لباقة : وأنت كذلك ، يعني أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحةً بنبوة هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : وما تقول فيَّ ؟ فقال الرجل متهكماً : اجهر لأني أصبحت أصمَّ الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل . فلما علم رسول الله ﷺ خبرهما قال : « أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق »[٢] .

---

(١) وذلك أن بلالاً هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يُعذِّبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول : أحدٌ أحدٌ ، حتى ملّوه ، ثم كتفوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبي مكة . ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٠٨) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/١٧٢) وعزاه لابن أبي شيبة عن الحسن أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه فقال : إني أصمّ . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم . فأرسله . فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال : « أما صاحبك فمضى على إيمانه . وأما أنت فأخذت بالرخصة » وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/٥٨٨) رواية تفيد أن الأول منهما هو حبيب بن زيد الأنصاري .

وقد تحدَّث العلماء عن الإكراه في قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل]

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالي :

– إذا أكره الإنسان على أمر ذاتيٍّ فيه . كأن قيل له : اشرب الخمر وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك قالوا : يجب عليه في هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه ؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس مَنْ يعصون الله بشربها . فإنْ قيل له : اكفر بالله وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك ، قالوا : هو مُخيِّر بين أن يأخذ بالتقيَّة هنا ، ويستخدم الرخصة التي شرعها الله له ، أو يصدع بالحق ويصمد .

– أما إذا تعلَّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير ، كأنْ قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلتك ، ففي هذه الحالة لا يجوز لك قتْله : لأنك لو قتلتهُ لقُتِلْت قصَاصاً ، فما الفائدة إذن ؟ .

وبعد أن تحدَّث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أكرهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ، يتحدث عن النوعْ الآخر :

﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل]

أي : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُنْشرِحاً بها صدره ، وهذا النوعْ هو المقصود في جواب الشرط .

﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل]

فإنْ كانت الآيات قد سكتت عَمَّنْ أُكرِهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكره ، فقد بيَّنت أن من شرح بالكفر صدراً عليه غضب من الله أي : في الدنيا . ولهم عذاب عظيم أي : في الآخرة .

وكما رأينا فى تاريخ الإسلام نماذج للنوع الأول الذى أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صَدْراً ، وهم المنافقون ، ومنهم مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبى السرح من عامر بن لؤى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما استحقوه من العذاب السابق .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النحل]

استحب : أى آثر وتكلَّف الحب ؛ لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أنْ تُحبَّ لذاتها ، ولَوجدَ الأغيار بها كثيرة تتقلّب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدّل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السّقَم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة ؟!

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أنْ نعطى كلاً من الدنيا والآخرة ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة في حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلاَّ ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله ؟

لذلك نقول : إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسى ، وأتفه من أن تكون غاية ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص]

ففهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأخْذ الحظوظ منها ، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيِّناً مُعرَّضاً للنسيان والإهمال ، فيُذكِّرنا بها ، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب ، فأنا لا أقول لك : لا تنسَ الشيء الفلانى إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان ، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال فى الإسلام .

ويكفينا وَصْف هذه الحياة بالدنيا ، فليس هناك وَصْفٌ أقلّ من هذا الوصف ، والمقابل لها يقتضى أن تقول : العُلْيا وهى الآخرة ، نعم نحن لا ننكر قَدْر الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها ، ففيها الحياة والحسّ والحركة ، وفيها العمل الصالح والذكْرى الطيبة .. إلخ .

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء ، فى حين أن الآخرة هى الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا يعتريها زوال ، ولا يهددها موت ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

أى : الحياة الحقيقية التى يجب أن نحرص عليها ونحبها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرزَقُون ؟ قالوا : يُحييكم أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا تزول .

وقوله :

﴿عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

لقائل أن يقول : إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة ، فكيف يُقَال عنهم :

﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

نقول : من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ(٣٨)﴾ [النحل]

وأيضاً منهم مَنْ قال :

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

إذن : من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة ، ولكنه يُفضّل عليها الدنيا .

وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ [النحل]

أى : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوى فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

إذن : إذا نفيتَ الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصبتْ على الكافر لكونه كافراً ، فكان كُفْره سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يَهْدِه الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه :

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

طبع : أى ختم عليها ، وإذا تأملتَ الختْم وجدتَ المقصود منه أن الشىء الداخل يظلّ داخلاً لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجاً لا يدخل .

وفَرْقٌ بين ختم البشر وختم ربِّنا سبحانه ، فقصارى ما نفعله أن نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلاً ، أو نريد إغلاق مكان ما نختم عليه بالشمع الأحمر لنتأكد من غلقه ، ومع ذلك نجد مَنْ يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا ختم الحق سبحانه وتعالى على شىء فلا يستطيع أحد التحايل عليه سبحانه .

فالمراد ـ إذن ـ بقوله تعالى :

﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]

أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل فيها ؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذى تصبُّ فيه الحواس التى هى وسائل الإدراكات المعلومية ، وأهمها السمع والبصر .

فبالسمع تسمع الوحى والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله فى كونه وعجيب صُنْعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفتْ هذه الحواسّ عما أراده الله منها ، وبدل أن تمدّ القلب بدلائل الإيمان تعطَّلتْ وظيفتها .

فالسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْع اعتبارىّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبصر ما حرم الله فلا يوجد بصر اعتبارى ، فما الذى سيصل إلى القلب - إذن - من خلال هذه الحواس ؟

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله فى كونه فلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أراد الإيمان قُلْنا له : لا بُدَّ أن تُخرِج الكفر من قلبك أولاً ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان فى قلبٍ واحد ؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى فى الماديات يسمونه (عدم التداخل) يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فترى أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء .

فكذلك الحال فى الأوعية المعنوية .

فإنْ أردتَ الإيمان - أيها الكافر - فأخرجْ أولاً ما فى قلبك من الكفر ، واجعله مُجرّداً من كل هوى ، ثم ابحث بعقلك فى أدلة الكفر وأدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدْخله فى قلبك ، لكن أنْ تبحث أدلة الإيمان وفى جوفك الكفر فهذا لا يصحّ ، لا بُدّ من إخلاء القلب أولاً وتجعل الأمريْن على السواء .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ ﴾ (٤) [الأحزاب]

وفى الأثر : « لا يجتمع حب الدنيا وحب الله فى قلب واحد »[1]

لأن للإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعله مزدحماً بالمظروف فيه .

كما أن طَبْع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده مراده ، حتى وإنْ كان مراده الكفر ، وكأنه سبحانه يقول لهؤلاء : إنْ كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنشرح له صدوركم فسوف أطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، بل وأزيدكم منه إنْ أحببتُمْ ، كما قال تعالى :

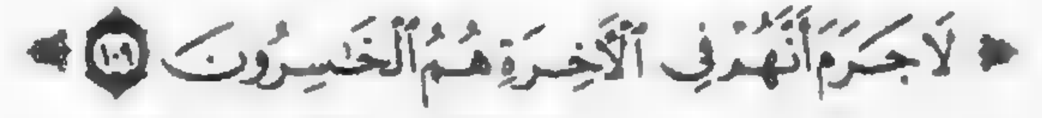
﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. (١٠) ﴾ [البقرة]

فهنيئاً لكم بالكفر ، واذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم .

وقوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) ﴾ [النحل]

الغافل : مَنْ كان لديه أمر يجب أن يتنبه إليه ، لكنه غفل عنه ، وكأنه كان فى انتظار إشارة تُنبِّه عقله ليصل إلى الحق .

ثم يُنهى الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى :



---

(١) ورد فى معنى هذا عدة آثار :

– قال عيسى بن مريم : « كما لا يستقيم النار والماء فى إناء ، كذلك لا يستقيم حب الآخرة والدنيا فى قلب المؤمن » . أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص٣٤) .

– وقيل ليونس بن متى : « يا يونس إذا أحب العالم الدنيا نزعت مناجاتى من قلبه » أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص ١٥٦) .

فقوله تعالى :

﴿ لا جَرَمَ.. (١٠٩) ﴾ [النحل]

أى : حقاً ولا بُدّ ، أولا جريمة فى أن يكون هؤلاء خاسرين فى الآخرة ، بما اقترفوه من مُوجبات الخسارة ، وبما أتَوْا به من حيثيّات ترتَّبَ عليها الحكم بخسارتهم فى الآخرة ، فقد حقَّ لهم وثبت لهم ذلك .

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحيثيات ، بدايةً من قَوْلهم عن رسول الله :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ..(١٠١) ﴾ [النحل]

وقولهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ..(١٠٣) ﴾ [النحل]

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانشراح صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبتْ لهم الخسران فى الآخرة يوم تُصفَّى الحسابات ، وتنكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْراناً مَن اقترف كل هذه الجرائم !؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فُتِنُوا.. ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل]

أى : ابتلوا وعُذِّبوا عذاباً أليماً ؛ لأنهم أسلموا .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل]

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب ؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب ليئسَ من رحمة الله ، ولتحوَّل - وإن أذنب ولو ذنباً واحداً - إلى مجرم يشقَى به المجتمع ، فلم يَرَ أمامه بارقة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويغفر ذنب المسيء ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إنْ أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدِّل سيئاته حسناتٍ ، كما قال سبحانه :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى . قال النووى فى شرح مسلم : « قال المازرى : المراد به قبول التوبة ، وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضى أحدهم الشيء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه ، فخوطبوا بأمر حسى يفهمونه ، وهو مجاز ، فإن يد الجارحة مستحيلة فى حق الله تعالى » .

لو رأى المذنب ذلك كان أدْعى لإصلاحه ، وأجْدَى فى انتشاله من الوَهْدة التى تردَّى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ودلَّهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإنْ اغترَّ مُغْترٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لى حسنات . نقول له : ومَنْ يدريك لعله لا تنطبق عليك شروط الذين يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وهل تضمن أنْ يُمهلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتى بغتة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾

قد يكون المعنى فى هذه الآية على اتصال بالآية السابقة ، ومتعلق بها ، فيكون المراد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل]

يحدث هذا :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل]

أى : يوم القيامة . أو يكون المعنى : اذكر يا محمد :

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا (١١١)﴾ [النحل]

وهل للإنسان أكثر من نفس ، فتجادل إحداهما عن الأخرى ؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة فى الدنيا والآخرة ، ولكنها تختلف فى الدنيا عنها يوم القيامة ؛ لأن الحق سبحانه منحها فى الدنيا الاختيار ، وجعلها حرة فى أن تفعل أو لا تفعل ، فكان من النفوس : الطائعة ، والعاصية ، والمنصاعة ، والمكابرة .

فإذا ما وقفت النفس فى موقف القيامة ، وواجهتْ الحق الذى كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة ، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها ، فكان نفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا فى موقف ينادى فيه الحق تبارك وتعالى :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة ، فقال تعالى :

﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت]

إذن : هى نفس واحدة ، تجادل عن نفسها فى يوم لا تجزى فيه نفس عن نفس ، فكلٌّ مشغول بكَرْبه ، مُحاسَب بذنبه ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

وقوله تعالى :

﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾ [النحل]

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ، فالميزان ميزان عَدْل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وقوله تعالى : ﴿ وَتُوَفَّىٰ .. (١١١) ﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جَوْر ، فالجميع عبيد لله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإنْ رحمهم فبفضله ، وإنْ عذَّبهم فبعدْله ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾

---

(١) رَغَدُ العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة] أي : أكلاً طيباً موسّعاً عليكم فيه .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن الإيمان بالله والإيمان بصدق رسوله في البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله في الكتاب والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله وللرسول وللمنهج . أراد سبحانه أنْ يعطينا واقعاً ملموساً في الحياة لكل ذلك ، فضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابهاً تاماً في ناحية معينة بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماماً .

والهدف من ضرب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل فلان - المعلوم لك - في الطول ومثل فلان في اللون .. إلخ من الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تُكوِّن صورة كاملة لهذا الشخص الذي لا تعرفه .

لذلك ، فالشيء الذي لا مثيلَ له إياك أن تضرب له مثلاً ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (٧٤) ﴾ [النحل]

لأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا نظير له ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وهو سبحانه الذي يضرب المثل لنفسه ، أما نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه .

لذلك نجد في القرآن الكريم أمثالاً كثيرة توضح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوي بالأمر الحسيِّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً في الإنفاق في سبيل الله ، وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلف على صاحبها أضعافاً مضاعفة . فانظر كيف صوَّر لنا القرآن هذه المسألة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح لنا المثل الأمر الغيبي المجهول بالأمر المحسّ المُشَاهد الذي يعلمه الجميع ، حتى استقرَّ هذا المجهول في الذهن ، بل أصبح أمراً مُتيقَّناً شاخصاً أمامنا .

والمتأمل في هذا المثل التوضيحي يجد أن الأمر الذي وضّحه الحق سبحانه أقوى في العطاء من الأمر الذي أوضح به ، فإنْ كانت هذه الأضعاف المضاعفة هي عطاء الأرض ، وهي مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى ؟

وكلمة (ضَرَبَ) مأخوذة من ضَرْب العملة ، حيث كانت في الماضي من الذهب أو الفضة ، ولخوف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النقاد أي : الخبراء في تمييز العملة يضربونها أي : يختمون عليها فتصير مُعتمدة موثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مثلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرَّ في الذهن واعتُمِد .

فقال تعالى في هذا المثل :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً..﴿١١٢﴾﴾ [النحل]

الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها، ولم يشكره عليها، ولم يُؤدِّ حقَّ الله فيها، واستعمل نعمة الله في معصيته فقد عرَّضها للزوال، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة، فقيِّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها، لذلك قال الشاعر:

إذَا كُنْتَ في نعمةٍ فَارْعَها ... فَإنَّ المعَاصِي تُزِيلُ النِّعم

وحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإله ... فإنَّ الإلَه شَدِيدُ النِّقَم

ولكن، القرية التي ضربها الله لنا مثلاً هنا، هل هي قرية معينة أم المعنى على الإطلاق؟ قد يُراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة[1]، أو غيرها من القرى، وعلى كلٍّ فتحديدها أمر لا فائدة منه، ولا يُؤثِّر في الهدف من ضَرْب المثل بها.

والقرية: اسم للبلد التي يكون بها قِرىً لمن يمرُّ بها، أي: بلد استقرار. وهي اسم للمكان فإذا حُدِّث عنها يراد المكين فيها، كما في قوله تعالى:

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا..﴿٨٢﴾﴾ [يوسف]

فالمراد: اسأل أهل القرية؛ لأن القرية كمكان لا تُسأل.. هكذا

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد. وقالت عائشة وحفصة رضي الله عنهما: هي المدينة. [ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧٤] وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٩٢١): «قيل إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى».

قال علماء التفسير ، على اعتبار أن فى الآية مجازاً مرسلاً علاقته المحلية .

ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مدداً جديداً ، كما قال سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

والآن تطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين ، فمثلاً يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجِّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .

ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن القرية يمكن أنْ تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجِّل وتحتفظ بما سجَّلته ، بل وأكثر من ذلك يستطيعون لإعادة الصور والأصوات من بَدْء الخليقة على اعتبار أنها موجودة فى الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تَضِع .

وما أشبه هذه الموجات باندياح الماء إذا ألقيتَ فيه بحجر ، فينتج عنه عدة دوائر تبتعد عن مركزها إلى أنْ تتلاشى بالتدريج.

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ؛ لأن أهلها قد يكذبون ، أما هى فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الأداء القرآنى .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً .. (١١٢) ﴾ [النحل]

آمنةً : أى فى مأمن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نِعَم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً .. (١١٢) ﴾ [النحل]

أى : لديها مُقوِّمات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقِرَّة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا فى المكان الخالى من المنغِّصات ، والذى يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فطالما شبعت البطن ، وأمنتْ النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول ﷺ يعطينا صورة مُثْلى للحياة الدنيا ، فيقول :

« مَنْ أصبح معافىً فى بدنه ، آمناً فى سربه[1]، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[2]

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) السرب : النفس والمذهب . وقال ابن درستويه : وإنما المعنى آمن فى أهله وولده . وقيل : السرب هنا القلب ، أى : آمنٌ القلب . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/٢٤٩) ، وابن حبان (٢٥٠٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٨٩) وعزاه للطبرانى وقال : « رجاله وُثقوا على ضعف فى بعضهم » .

معلوم أن الناس هم الذين يخرجون لطلب الرزق ، لكن فى هذه القرية يأتى إليها الرزق ، وهذا يُرجِّح القول بأنها مكة ؛ لأن الله تعالى قال عنها :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

ومن تيسَّر له العيش فى مكة يرى فيها الثمرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمَّتْ لهم النعمة واكتملتْ لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم ؟ هل استقبلوها بشكر الله ؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم فى طاعته ومَرْضاته ؟ لا .. بل :

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : جحدت بهذه النعم ، واستعملتها فى مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

وكأن فى الآية تحذيراً من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ، واستعمل النعمة فى مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

من الذوق ، نقول : ذاق وتذوّق الطعام إذا وضعه على لسانه وتذوّقه . والذَّوْق لا يتجاوز حلمات اللسان . إذن : الذوْق خاصٌّ بطعْم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقُلْ : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان ، والمتأمل فى الآية يطالع دقَّة التعبير القرآنى ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك ؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس فى البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوَّض من المخزون فى الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهتْ الشحوم تغذَّى الجسم على اللحم ، ثم بدأ ينحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هُزَالاً ونحولاً ، ثم ينكمش ويجفّ ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجى على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً فى الأرض :

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كثوب يرتديه .

. وهكذا جَسَّد لنا التعبير القرآنى هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسَّة التذوق ؛ لأنها أقوى الحواسّ .

وفى تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يُوحى بشمولهما الجسم

كله ، كما يلفه اللباس فليس الجوع في المعدة فقط ، وليس الخوف في القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتُهِر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فنراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مَوَدَّتي   فَأُحِسُّ مِنْهَا فِي الفُؤَادِ دَبِيبَا

فإذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحوّل الحب من القلب ، وسكَن جميع الجوارح ، وخالط كل الأعضاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

لاَ عُضْوَ لِي إِلاَّ وَفِيهِ صَبَابَةٌ   فَكَأَنَّ أَعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبَا

وقوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل]

أي : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنَّى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصُّدود والجحود والنكران ، وتعرَّضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيَّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً :

« اللهم اشْدُدْ وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف »[1]

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ،

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

حتى إنهم كانوا يأكلون الجيف ، ويخلطون الشعر والوبر بالدم فيأكلوه .

وظلوا على هذا الحال سبع سنين حتى ضَجُّوا ، وبلغ بهم الجَهْدُ والضَّنْك مُنْتهاه ، فأرسلوا وفداً منهم لرسول الله ، فقالوا : هذا عملك برجال مكة ، فما بال صبيانها ونسائها ؟ فكان ﷺ يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطيب .

أما لباس الخوف فتمثَّل في السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ من المدينة لترهبهم وتزعجهم ؛ ليعلموا أن المسلمين أصبحتْ لهم قوة وشوكة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

رأينا كيف كانت النعمة تامة على أهل مكة ، وقد تمثلت هذه النعمة في كَوْنها آمنة مطمئنة ، وهذه نعمة مادية يحفظ الله بها القالب الإنساني ، لكنه ما يزال في حاجة إلى ما يحفظ قِيَمه وأخلاقه .

وهذه هي نعمة النعم ، وقد امتنَّ الله عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولاً منهم ، فما فائدة النعم المادية في بلد مهزوزة القيم ، مُنْحلة الأخلاق ، فجاءهم رسول الله ﷺ ليُقوِّم ما اعوجَّ من سلوكهم ، ويُصلح ما فسد من قِيَمِهم ومبادئهم .

وقوله : ﴿ مِّنْهُمْ .. ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل]

أى : من جنسهم ، وليس غريباً عنهم ، وليس من مُطْلق العرب ، بل من قريش أفضل العرب وأوسطها .

يقول تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ .. (١١٣) ﴾ [النحل]

وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال ، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة ، ولكنهم كما كفروا بالنعم المادية كفروا أيضاً بالنعم القيمية متمثلة فى رسول الله ﷺ .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ (١١٣) ﴾ [النحل]

مَنِ الذى أخذهم ؟

لم تقُلْ الآية : أخذهم الله بالعذاب ، بل : أخذهم العذاب ، كأن العذابَ نفسه يشتاق لهم ، وينقضُّ عليهم ، ويسارع لأخذهم ، ففى الآية تشخيص يُوحى بشدة عذابهم .

كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى :

﴿ فَكُلُوا[1] مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾

---

(١) الضمير فى (فكلوا) هنا يحتمل أمرين:

١ ـ أن يكون الخطاب للمؤمنين ، ليأكلوا من الرزق الحلال الطيب ، ومن الغنائم .

٢ ـ أن يكون الخطاب للمشركين ، لأن النبى ﷺ بعث إليهم بطعام ، بعد أن أكلوا الجيف والكلاب الميتة والجلود . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٢٢] بتصرف .

قلنا : إن الرسول ﷺ حينما اشتد الحال بأهل مكة حتى أكلوا الجيف ، كان يرسل إليهم ما يأكلونه من الحلال الطيب رحمة منه ﷺ بهم فيقول :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل]

أي : أن هذا الرزق ليس من عندي ، بل من عند الله .

﴿ حَلالاً طَيِّبًا .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل]

ذلك لأنهم كانوا قبل ذلك لا يتورَّعون عن أكل ما حرم الله ، ولا عن أكل الخبيث ، فأراد أن يُنبِّههم أن رِزْق الله لهم من الحلال الطيب الهنيء ، فيبدلهم الحلال بدل الحرام ، والطيب بدل الخبيث .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل]

وهنا إشارة تحذير لهم أنْ يقعوا فيما وقعوا فيه من قَبْل من جُحود النعمة ونكْرانها والكفر بها ، فقد جرَّبوا عاقبة ذلك ، فنزع الله منهم الأمْنَ ، وألبسهم لباسَ الخوف ، ونزع منهم الشِّبَع ورَغَد العيش ، وألبسهم لباس الجوع ، فخذوا إذن عبرة مما سلف :

﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ[1] لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

---

(١) الإهلال : الصياح ورفع الصوت . وأهلَّ بالذبيحة : ذكر اسم من ذبحها له . [القاموس القويم ٢/٣٠٥] .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ قال :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا .. (١١٤) ﴾ [النحل]

أراد أن يُكرِّر معنًى من المعانى سبق ذكره فى البقرة والمائدة ، فقال فى البقرة :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ[1] وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. (٣) ﴾ [المائدة]

وهذه الأشياء كنتم تأكلونها وهى مُحرَّمة عليكم ، والآن ما دُمْنَا ننقذكم ، ونجعل لكم معونة إيمانية من رسول الله ، فكلوا هذه الأشياء حلالاً طيباً .

ولكن ، لماذا كرَّر هذا المعنى هنا ؟

التكرار هنا لأمرين :

الأول : أنه سبحانه لا يريد أنْ يعطيهم صورة عامة بالحكم ، بل صورة مُشخَّصة بالحالة ؛ لأنهم كانوا جَوْعى يريدون ما يأكلونه ، حتى وإنْ كانت الجيف ، ولكن الإسلام يُحرِّم الميتة ، فأوضح لهم أنكم بعد ذلك ستأكلون الحلال الطيب .

---

(١) أى : فى غير بَغى ولا عدوان ، وهو مجاوزة الحد فلا إثم عليه فى أكل ذلك . وقال مقاتل ابن حيان : غير باغ ، يعنى : غير مستحله ، وقال السدى : غير باغ ، يبتغى فيه شهوته . [تفسير ابن كثير ٢/٢٠٥] .

ثانياً : أن النص يختلف ، ففى البقرة :

﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ .. (١٧٣) ﴾ [البقرة]

وهنا : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. (١١٥) ﴾ [النحل]

وليس هذا من قبيل التفنُّن فى الأسلوب ، بل المعنى مختلف تماماً ؛ ذلك لأن الإهلال هو رَفْع الصوت عند الذبح ، فكانوا يرفعون أصواتهم عند الذبح ، ولكن والعياذ بالله يقولون : باسم اللات ، أو باسم العُزَّى ، فيُهلون بأسماء الشركاء الباطلين ، ولا يذكرون اسم الله الوهاب .

فمرَّة يُهلُّون به لغير الله ، ومرة يُهلُّون لغير الله به . كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الذبْح كان على نوعين : مرة يذبحون للتقرُّب للأصنام ، فيكون الأصل فى الذبْح أنه أُهِلَّ لغير الله به . أى : للأصنام .

ومرَّة يذبحون ليأكلوا دون تقرُّب لأحد ، فالأصل فيه أنه أُهِلَّ به لغير الله .

إذن : تكرار الآية لحكمة ، وسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ .. (١١٥) ﴾ [النحل]

الاضطرار : ألاَّ تجد ما تأكله ، ولا ما يقيم حياتك .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هنا رخصة عندما تُلجِئنا الضرورة أن نأكل من هذه الأشياء المحرَّمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسدُّ الجوع ، فمعنى (غَيْرَ بَاغٍ) غير متجاوزٍ للحدِّ ، فلو اضطررْتَ وعندك ميْتة

وعندك طعام حلال ، فلا يصحّ أن تأكل الميتة في وجود الحلال .

﴿ولا عادٍ (١١٥)﴾ [النحل]

أي : ولا مُعْتَدٍ على القدر المرخّص به ، وهو ما يمسك الحياة ، ويسُدُّ جوعك فقطْ ، دون شِبَع منها .

ويقول تعالى :

﴿فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ (١١٥)﴾ [النحل]

وفي البقرة :

﴿ فلا إثْمَ عليْهِ..(١٧٣)﴾ [البقرة]

فالمعنى واحد ، ولكن هنا ذكر المغفرة والرحمة ، وهناك ذكر سببهما .

وتجدر الإشارة هنا إلى ما يتشدَّق به البعض من الملاحدة الذين يبحثون في القرآن عن مَغْمز ، فيقولون : طالما أن الله حرَّم هذه الأشياء ، فما فائدتها في الكون ؟

نقول : أتظنون أن كل موجود في الكون وُجد ليُؤكل ، أليس له مهمة أخرى ؟ ومن ورائه مصلحة أخرى غير الأكْل ، فإنْ حرَّم الإسلام أكْله فقد أباح الانتفاع به من وجه آخر .

فالخنزير مثلاً حَرَّم الله أكْله ، ولكن خلَقه لمهمة أخرى ، وجعل له دَوْراً في نظافة البيئة ، حيث يلتهم القاذورات ، فهو بذلك يُؤدّى مهمة في الحياة .

وكذلك الثعابين لا نأكلها ، ولها مهمة فى الحياة أيضاً ، وهى أنْ تُجهِّز لنا السُّم فى جوفها ، وبهذا السم تعالج بعض الداءات والأمراض ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وكذلك يجب أنْ نعلمَ أن الحق سبحانه ما حرَّم علينا هذه الأشياء إلا لحكمة ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادى وتجاربه ما يُقرِّب له المعانى القيمية الدينية ، فلو نظر إلى الآلات التى تُدار من حوله من ماكينات وسيارات وطائرات وخلافه لوجد لكل منها وقوداً ، ربما لا يناسب غيرها ، حتى فى النوع الواحد نرى أن وقود السيارات وهو البنزين مثلاً لا يناسب الطائرات التى تستخدم نفس الوقود ، ولكن بدرجة نقاء أعلى .

إذن : لكل شىء وقود مناسب ، وكذلك أنت أيها الإنسان لك وقودك المناسب لك ، وبه تستطيع أداء حركتك فى الحياة ، وأنت صَنْعة ربك سبحانه ، وهو الذى يُحدِّد لك ما تأكله وما لا تأكله ، ويعلم ما يُصلحك وما يضرُّك .

والشىء المحرَّم قد يكون مُحرَّماً فى ذاته كالميتة لما فيها من ضرر ، وقد يكون حلالاً فى ذاته ، ولكنه مُحرَّم بالنسبة لشخص معين ، كأن يُمنعَ المريض من تناول طعام ما ؛ لأنه يضرُّ بصحته أو يُؤخِّر شفاءه ، وهو تحريم طارىء لحين زوال سببه .

وصورة أخرى للتحريم ، وهى أن يكون الشىء حلالاً فى ذاته ولا ضررَ فى تناوله ، ومع ذلك تحرمه عقوبةً ، كما تفعل فى معاقبة الطفل إذا أساء فتحرمه من قطعة الحلوى مثلاً .

إذن : للتحريم أسباب كثيرة ، سوف نرى أمثلة منها قريباً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) ﴾

معنى ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ : تُظهره على أوضح وجوهه ، فليس كلامهم كذباً فقط ، بل يصفه ، فمَنْ لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء .

والمراد بالكذب هنا قولهم :

﴿ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

فهذا كذب وافتراء على الله سبحانه ؛ لأنه وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حَسْب هواك ؛ لأن هذا افتراءٌ على الله[1] :

﴿ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى :

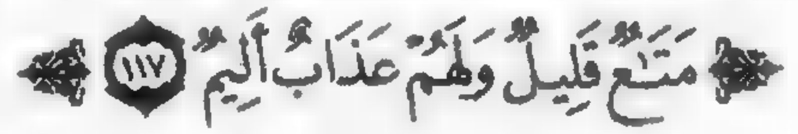
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٢٤) : « قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ..ولكن يقولوا : إياكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون الباريء تعالى يخبر بذلك عنه » .

فإن انطلى كذبهم على بعض الناس ، فأخذوا من ورائه منفعة عاجلة ، فعمّا قليل سيُفتضح أمرهم ، وينكشف كذبهم ، وتنقطع مصالحهم بين الخلق .

ويصف الحق سبحانه ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بأنه :



أى : ما أخذتموه بكذبكم وافترائكم على الله متاعٌ قليل زائل ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقى الذى قال الله عنه :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل]

ليس هذا فقط بل :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ[1] وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

---

(١) وذلك فى سورة الأنعام ، فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام] . فاليهود لا تأكل الإبل والنعام والأوز ولا كل شىء غير مشقوق الأصابع . وكذلك حرم عليهم الدهن إلا ما كان مختلطاً بعظم . (من تفسير ابن كثير ٢/١٨٥) بتصرف كثير .

بعد أن تكلمت الآيات فيما أحلَّ الله وفيما حرَّم ، وبيَّنتْ أن التحليل أو التحريم لله تعالى ، جاءت لنا بصورة من التحريم ، لا لأن الشيء ذاته مُحرَّم ، بل هو مُحرَّم تحريم عقوبة ، كالذى مثَّلْنا له سابقاً بحرمان الطفل من الحلوى عقاباً له على سُوء فِعْله .

والذين هادوا هم : اليهود عاقبهم الله بتحريم هذه الأشياء ، مع أنها حلال فى ذاتها ، وهذا تحريم خاصٌ بهم كعقوبة لهم .

وقوله تعالى :

﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ..(١١٨)﴾ [النحل]

المراد ما ذُكر فى سورة الأنعام من قوله تعالى :

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾ [الأنعام]

كل ذى ظفر : الحيوان ليس منفرجَ الأصابع ، والحوايا : هى المصارين والأمعاء ، ونرى أن كل هذه الأشياء المذكورة فى الآية حلال فى ذاتها ، ومُحلَّلة لغير اليهود ، ولكن الله حرَّمها عليهم عقوبةً لهم على ظلمهم وبغيهم ، كما قال تعالى :

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .. (١٦١)﴾ [النساء]

أى : بسبب ظلمهم حرَّمنا عليهم هذه الطيبات .

ذلك لأن مَنْ أخذ حكماً افتراءً على الله فحرّم ما أحلّ الله . أو حلّل ما حرّم الله لا بد أنْ يُعاقبَ بمثله فيُحرّم عليه ما أحِلّ لغيره ، وقد وقع الظلم من اليهود لأنهم اجترأوا على حدود الله وتعاليمه ، وأول الظلم وقمته الشرك بالله تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

والظلم نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره .

ومن ظلمهم : ما قالوه لموسى ـ عليه السلام ـ بعد أن عبر بهم البحر ، ومرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف]

ومن ظلمهم : أنهم عبدوا العجل من دون الله .

ومن ظلمهم لموسى ـ عليه السلام ـ : أنهم لم يؤمنوا به . كما قال تعالى :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

ومن ظلمهم :

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء]

إذن : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حقّهم حرَّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرموها من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أنْ شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لَتحوَّل المذنب ـ ولو لمرة واحدة ـ إلى مجرم يُعربد فى المجتمع ، وبفتح باب التوبة يقى الله المجتمع من هذه العربدة .

ويبين الرسول ﷺ مكانة التوبة فيقول :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة[1] فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ

---

(١) الفلاة : الصحراء الواسعة التى لا ماء بها ولا أنيس ، فهى أرض قفر لأنها فُليت عن كل خير . [لسان العرب ـ مادة : فلا]

هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها[1] ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح »[2]

وقوله تعالى فى بداية الآية : ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على كثرة ما تقدم من ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم ليُبيِّن لك البَوْن الشاسع بين رحمة الله وإصرار العُصَاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : ﴿بِجَهَالَةٍ﴾

أى : بطيش وحُمْق وسَفَه ، وجميعها داخلة فى الجهل بمعنى أنْ تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم ، إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ، والمراد أن ينظر إلى خير عاجل فى نظره ، ويترك خيراً آجلاً فى نظر الشرع .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴿١٧﴾﴾ [النساء]

بجهالة : يعنى فى لحظة سَفَه وطيْش ، فالعاصى يعلم الحكم تماماً ، ولكنه فى غفلة عنه ، وعدم تبصُّر بالعواقب ، ولو فكَّر فى عاقبة أمره ما تجرأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدِم عليها إلا فى غيبة العقل .

---

(١) الخطام : أن يأخذ حبلاً من ليف أو شعر أو كتان ، فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد البعير ثم يُثنَى على مُخطَمه . [اللسان - مادة : خطم] .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ولذلك قال ﷺ :

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[(١)]

ولو استحضر قسوة الجزاء لما أقدم على معصيته ، ولكن سفهه وطيْشه يُغلِّف الجزاء ويستره عنه ويُزيِّن له ما ينتظره من لذة ومتعة عاجلة .

وهَبْ أن شخصاً ألحتْ عليه غريزة الجنس ، وهي أشرس الغرائز في الإنسان ، ففكَّر في الفاحشة والعياذ بالله ، وقبل أنْ يقع في هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكَّرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة.

بالله عليك ، ماذا تراه يفعل ؟ هل يُصِرُّ على جريمته ؟ لا ، لأنه كان ناملاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إذن: طيشه وسفهه صرفه عن التفكر في العاقبة وأذهله عن ردِّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجِّلة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ..(١١٩) ﴾ [النحل]

والتوبة هنا هي التوبة النصوح الصادقة ، التي ينوي صاحبها الإقلاع عنها وعدم العَوْد إليها مرة أخرى ، ويعزم على ذلك حال توبته ، فإذا فعل ذلك قَبِل الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعود للذنب مرة أخرى إذا ضعُفَتْ نفسه عن المقاومة ، فإنْ عاد عاد إلى التوبة من جديد ، لأن الله سبحانه من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وكذا البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) .

أسمائه ﴿ التواب ﴾ أى : كثير التوبة ، فلم يقل: تائب بل تواب ، فلا تنقطع التوبة فى حق العبد مهما أذنب ، وعليه أنْ يُحدث لكل ذنب توبة .

بل وأكثر من ذلك ، إذا تاب العبد وأحسن التوبة ، وأتى بالأعمال الصالحة بدلاً من السيئة ، منَّ الله عليه بأن يُبدِّل سيئاته حسنات ، وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) ﴾ [النحل]

فيه إشارة لحرص النبى ﷺ علينا ، وأنه يسرُّه أن يغفر الله لنا .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد غفور رحيم ، فكأنه سبحانه يمتنُّ على نبيه ﷺ أنه سيغفر للمذنبين من أمته .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً نبيه إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾

بعد أن ذكرتْ الآيات طرفاً من سيرة اليهود ، وطرفاً من سيرة أهل مكة تعرَّضتْ لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟

ذلك لأنه أبو الأنبياء ، وله مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون فيه ، حتى المشركون يقولون : نحن على دين إبراهيم ، والنصارى قالوا عنه : إنه نصرانى . واليهود قالوا : إنه يهودى .

فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام ، وتُوضّح مواصفاتها ، وتردُّ وتُبطِل مزاعمهم فى إبراهيم عليه السلام ، وهاكم مواصفاته :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

أُمَّةً : الأمة فى معناها العام : الجماعة ، وسياق الحديث هو الذى يُحدِّد عددها ، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أى : جماعة الشعراء ، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ .. (٢٣) ﴾ [القصص]

فسمى جماعة من الرعاة أمة ؛ لأنهم خرجوا لغرض واحد ، وهو سَقْى دوابهم .

وتُطلَق الأمة على جنس فى مكان ، كأمة الفرس ، وأمة الروم ، وقد تُطلق على جماعة تتبع نبياً من الأنبياء ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وحين نتوسَّع فى معنى الأمة نجدها فى رسالة محمد ﷺ تشمل جميع الأمم ؛ لأنه أُرسِل للناس كافَّة ، وجمع الأمم فى أمة واحدة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (٩٢) ﴾ [الأنبياء]

ومعنى أمة واحدة . أى : جامعة لكل الأمم .

فالمعنى - إذن - أن إبراهيم - عليه السلام - يقوم مقام أمة كاملة ؛ لأن الكمالات المطلقة لله وحده ، والكمالات الموهوبة من الله لخلْقه في الرسل تُسمَّى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما ما دون الرسل فقد وُزِّعت عليهم هذه الكمالات ، فأخذ كل إنسان واحداً منها ، فهذا أخذ الحلم ، وهذا الشجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا في الرسل .

فإذا نظرتَ إلى إبراهيم - عليه السلام - وجدتَ فيه من المواهب ما لا يُوجد إلا في أمة كاملة .

كذلك رسولنا محمد ﷺ حينما حَدَّد موقعه بين رسالات الله في الأرض يقول :

« الخير فيَّ - وهذا هو الكمال البشرى الذى أعطاه الله إياه - وفي أمتي »[1] .

أي : أن كل واحد منهم أخذ جزءاً من هذا الكمال ، فكان كماله ﷺ مُبعثر في أمته كلها .

لذلك حين تتتبع تاريخ إبراهيم - عليه السلام - في كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه يعطيك خَصْلة من خصال الخير ، وصفة من صفات الكمال ، فإذا جمعتَ هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا في أمة بأسْرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

---

(١) قال ابن حجر العسقلاني : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القاري في « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطي في « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) . والعجلوني في كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

ومن معانى أمة : أنه عليه السلام يقوم مقام أمة فى عبادة الله وطاعته .

وقوله : ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : خاشعاً خاضعاً لله تعالى فى عبادته .

﴿ حَنِيفًا (١٢٠) ﴾ [النحل]

الحنف فى الأصل : الميْل ، وقد جاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ والكون على فساد واعوجاج فى تكوين القيم ، فمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحَاد عن هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعالى لا يبعث الرسل إلا إذا طَمَّ الفساد ، إذن : ميْله عن الاعوجاج والفساد ، فمعناه أنه كان مستقيماً معتدلاً على الدين الحق ، مائلا عن الاعوجاج حائدا عن الفساد .

ثم يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

وهذه هى الصفة الرابعة لخليل الله إبراهيم بعد أن وصفه بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفى عنه الشرك بالله ، فما فائدة نَفْى الشرك عنه مرة أخرى فى :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

يجب أنْ نُفرّق بين أنواع الشرك ، فمنه الشرك الأكبر ، وهو أن تجعل لله شركاء ، وهو القمة فى الشرك . ومنه الشرك الخفى ، بأن تجعل للأسباب التى خلقها دَخْل فى تكوين الأشياء .

فالآية هنا : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : الشرك الخفى ، فالأوصاف السابقة نفتْ عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفى عنه شركَ الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفىّ .

ولذلك عندما أُلقىَ - عليه السلام - فى النار لم يلتفت إلى الأسباب وإنْ جاءت على يد جبريل - عليه السلام - ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا[1] . فأين الشرك الخفي - إذن - والأسباب عنده معدومة من البداية ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ (١٢١) ﴾ [النحل]

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدّعون أنكم على ملّة إبراهيم - عليه السلام - فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكراً لله على نعمه .

وقوله : ﴿ اجْتَبَاهُ (١٢١) ﴾ [النحل]

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم - عليه السلام - كان عن اختبار ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : اختبره ببعض التكاليف ، فأتمها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه :

---

(١) أورده القرطبي فى تفسيره (٦/٤٤٨٢) فى تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] من حديث أبىّ بن كعب . وأن إبراهيم عليه السلام قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤)﴾ [البقرة]

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة فى ذريته قال :

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي (١٢٤)﴾ . [البقرة]

فعدَّل الله لـه هذه الرغبة ، وصحَّح له ، بأن ذريتك سـيكون منها الظالم ، فقال :

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة]

لذلك تعلَّم إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ من هذا الموقف ، وأراد أن يحتاط لـنفسه بعد ذلك ، فـعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال :

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.. (١٢٦)﴾ [البقرة]

فـصـحَّح الله له أيضـاً هذا المطلب ، فـالموقف هـنـا مخـتلف عن الأول ، الأول كان فى إمامة القـيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أمـا هـذه فـرزق وعطاء ربوبيـة يشـمل المؤمن والكافـر والطائع والعاصى ، فالجميع فى الرزق سواء ، فقال تعالى :

﴿وَمَن كَفَرَ.. (١٢٦)﴾ [البقرة]

أى : سأرزق الكافر أيضاً[1] .

---

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله (وَمَنْ كَفَرَ) أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين . أأخلق خلقاً لا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير . ثم قرأ ابن عباس : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾ [الإسراء] . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٧٥) .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التى تُربِّى الأنبياء ، وتصنعهم على عَيْنها ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع فى النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشرى .

ويدل على دقة إبراهيم - عليه السلام - فى أداء ما طُلِب منه موقفه فى بناء البيت ، فبعد أن دلَّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفى إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أنْ يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتى بالأمر على أتمّ وجوهه ؛ وينفذه بدقة واحتياط ، ففكَّر أن يأتى بحجر مرتفع ، ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذى هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده ؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيمانى وتخلّيه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل فى وادٍ غير ذى زرع ، وفى مكان خالٍ من مُقوّمات الحياة وأسباب العيش[1] .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسبِّبها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم ؛ لذلك حينما سألته هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك ؟

فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يُضيِّعنا . وكان إيمان

(١) وذلك قوله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

إبراهيم نضح على زوجته ، وملأ قلبها يقيناً فى الله تعالى .

وقوله سبحانه :

﴿ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾ [النحل]

كيف .. بعد كل هذه الأوصاف الإيمانية تقول الآيات (وَهَدَاهُ) أليست هذه كلها هداية ؟

نقول : المراد زاده هداية ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٢٢) ﴾

الحق سبحانه يُبيِّن أن جزاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ عظيم فى الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء فى ذريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وها نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفتخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم فى الدنيا ؛ لأنه بالغ فى طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ربه هذه المكانة ، فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]

حُكْماً : أى : حكمة أضع بها الأشياء فى مواضعها .

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾ [النحل]

فإنْ كان هذا جزاءَه في الدنيا ، فلا شكَّ أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لأنعمه ، واجتباه ربه وهداه .. إلخ قال :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

يا محمد :

﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (١٢٣) ﴾ [النحل]

كان قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أى شريعة التوحيد .

ثم يُؤكِّد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عن إبراهيم أبى الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلَّم عن بنى إسرائيل فى قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكأنَّ القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فها هى صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم ؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام ؟

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كإبراهيم فى اتباعه ، فيذكر ما كان منهم فى أمر السبت .

و (السبت) هو يوم السبت المعروف التالى للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِت سَبْتاً . يعنى : سكن واستقرَّ ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ [النبأ]

ذلك أن بنى إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى - عليه السلام - أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتمَّ الله فيه خَلْق

الكون فى ستة أيام ، وهو اليوم الذى اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود فى يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام فى يوم الجمعة ، واختاروا يوم الأحد على اعتبار أنه أول بَدْء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة[1] .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربُّهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أنْ يتفرغوا لعبادته فى هذا اليوم ، وافقهم ليُبيِّن لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجتهم ، فلو اختار لهم يوماً لاعترضوا عليه ، ولكن هاهم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقدية عامة ،

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٨٥٦) كتاب الجمعة من حديث أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرونَ من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق » .

هى أن الآيات التى تأتى مُصدِّقة للرسل فى البلاغ عن الله تعالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقد تكون باختيار المرسل إليهم أنفسهم ، وقد كان من بنى إسرائيل أنْ كذَّبوا بهذه وهذه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

أى : لكونهم يقترحون الآية ثم يُكذِّبونها ، فأمْرهم تكذيب فى تكذيب .

وقصة السبت ذُكِرَتْ فى مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ(1) الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصيد فى يوم السبت ، فكادهم الله وأغاظهم ، فكانت تأتيهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشراع ، ولا ينتفعون منها بشىء إلا الحسرة والأسف ، فيقولون : لعلها تأتى فى الغد فيخيب الله رجاءهم :

﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

وقد سمَّى القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً ؛ لأنهم اعتدوا على ما شرع الله ، قال تعالى :

---

(1) اختلف المفسرون فى تحديد هذه القرية ، فقال ابن عباس : هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة . وقال ابن شهاب الزهرى : هى طبرية . وقال سعيد بن جبير : هى مدين . أوردها السيوطى فى الدر المنثور (٣/٥٨٧) .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ[1] .. (١٢٤) ﴾ [النحل]

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُوحى بوجود طائفتين متناقضتين فى هذه القضية ، والحقيقة أن الخلاف لم يكُنْ بين اليهود بعضهم البعض ، بل بينهم وبين نبيهم الذى اختار لهم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت ، فجعل الله الخلاف عليهم .

فالمعنى : إنما جُعِل السبت حُجَّة على الذين اختلفوا فيه ؛ لأنه اثبت عدوانهم على يوم العبادة ، فبعد أن اقترحوه واختاروه انقلب حُجة عليهم ، ودليلاً لإدانتهم .

ولو تأملنا قوله :

﴿ عَلَى الَّذِينَ .. (١٢٤) ﴾ [النحل]

نجد ان كلمة (عَلَى) تدلُّ على الفوقية اى : أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى : فكأن السبت جاء ضد مصلحتهم ، وكأن خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد]

---

(١) اى : فى يوم الجمعة . اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبى ﷺ أمر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥/٣٩٢٧] .

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ، ولكن المعية لا تقتضي العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ.. ۝٦ ﴾ [الرعد]

أي : أن المغفرة علَت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن رحمة الله ومغفرته علَتْ على أنْ تُعامل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله سبقتْ غضبه ، ونفس الملحظ نجده في قول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۝٣٩ ﴾ [إبراهيم]

فالكبر كان يقتضي عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكِبَر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾

فبعد أن تحدثتْ الآيات عن النموذج الإيماني الأعلى في الإنسان في شخص أبي الأنبياء إبراهيم ، وجعلتْ من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسُله باتباعه ، أخذتْ في بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله .

قوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ.. ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى لا يُوجّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله ﷺ إلا وهو يعلم أنه سيُنفّذ ما أُمِر به ، وسيقوم بأمر الدعوة ، ويتحمل مسئوليتها .

﴿ادْعُ﴾ : بمعنى دُلّ الناس وارشدهم .

﴿سَبِيلِ رَبِّكَ (١٢٥)﴾ [النحل]

السبيل هو الطريق والمنهج ، والحكمة : وَضْع الشيء في موضعه المناسب ، ولكن لماذا تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمةً ؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَنِ انحرف عن هذا المنهج ، ومَن انحرف عن منهج الله تجده ألِف المعصية وتعوَّد عليها ، فلا بُدَّ لك أنْ ترفُقَ به لتُخرجه عما ألِف وتقيمه على المنهج الصحيح ، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما ألِفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلك اللّين والرِّفق ، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يتركَ ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعِر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تحرجه أمام الآخرين ؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

ويُروى في هذا المقام ـ مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة

الحسنة ـ قصة دارت بين الحسن والحسين رضى الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغي أنْ يكون عليه الداعية .

فيُروى أنهما رأيَا رجلاً لا يُحسن الوضوء، وأرادا أنْ يُعلِّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعره ، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسن أنْ تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلاً منهما يتوضأ ، ثم يحكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحكْم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذى ما أحسنْتُ .

إنه الوعظ فى أعلى صورة ، والقدوة فى أحكم ما تكون .

مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول ﷺ ، حينما أتاه شاب فى فَوْرة شبابه ، يشتكي عدم صَبْره عن رغبة الجنس ، وهى ـ كما قلنا ـ من أشرس الغرائز فى الإنسان .

جاء الشاب وقال : « يا رسول الله إئذن لى فى الزنا » .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخْفِ علّته ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أول خطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله ؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلَّ رسول الله ﷺ الداء من نفس هذا الشاب ؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يُؤْذه ، بل أخذه وربّت على كتفه فى لطف ولين ، ثم قال :

« أتحبه لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعلْتُ فداك . قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، قال : أتُحبه لأختك ؟

قال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك ، قال : « فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم » .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه » فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزنى ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نفسى بشيء من هذا ، إلا ذكرْتُ أمى وأختى وزوجتى [1] .

فلنتأمل هذا التلطُّف فى بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات فى المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وحُسْن تصرف ، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُراً يغلفونه بغُلالة رقيقة حلْوة المذاق ليستسيغه المريض ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب فى هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة فى الدعوة إلى الله : النصح ثقيل فلا تُرْسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً .. والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خفّة البيان .

وكان ﷺ إذا سمع عن شيء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة فى مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول :

« ما بال أقوام قالوا كذا وكذا » [2] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) . والطبرانى فى معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٠١) كتاب النكاح من حديث أنس رضى الله عنه أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر . فقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا . لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ويكتفى بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحداً من الناس على حدِّ قولهم فى الأمثال : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء فى الريف حينما يتعرض أحدٌ للسرقة ، أو يضيع منه شىء ذو قيمة ، فكانوا يعلنون عن فَقْد الشىء الذى ضاع أو سُرِق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمى التراب .

ومعنى « نرمى التراب » أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشىء المفقود ، وفى الصباح يبحثون فى التراب حتى يعثروا على ما فُقِد منهم ، ويصلوا إلى ضالّتهم دون أنْ يُفتضحَ الأمر ، ودون أن يُحرَج أحد ، وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعقدت المسألة .

وقوله سبحانه :

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..(١٢٥)﴾ [النحل]

والجدل مناقشة الحجج فى قضية من القضايا ، وعلى كُلٍّ من الطرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالتى هى أحسن . أى : فى رفق ولين ودون تشنُّج أو غطْرسة .

ويجب عليك فى موقف الجدال هذا ألاّ تُغضِبَ الخصْم ، فقد يتمحّك فى كلمة منك ، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾
[النحل]

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يُبيِّن لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله في توجيه النصيحة ، ولا ينبغي للداعية أبداً أنْ يغُشَّ في دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفي نفسك استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس ـ والعياذ بالله ـ مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر ممَّا ينفعهم .

إذن : إنْ قُبِل الغش في شيء فإنه لا يُقبل في مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أنْ تغشَّ بالله في الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمَنْ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

نلاحظ أن هذا المعنى ورد في قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٩٤﴾ ﴾

[البقرة]

---

(١) سبب نزول الآية : روى الدارقطني عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُق بطنه ، واصطُلم أنفه ، وجُدعت أذناه ، فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثِّلنَّ مكانه بسبعين رجلاً » ، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل] فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد . ذكره القرطبي في تفسيره (٣٩٢٨/٥) والواحدي في « أسباب النزول » (ص١٦٢) .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية فى رد الاعتداء :

﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ.. (١٢٦) ﴾ [النحل]

و ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ.. (١٩٤) ﴾ [البقرة]

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمَنِ الذى يستطيع تقدير المثلية فى الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة فى العقوبة ، وكأن فى صعوبة تقدير المثلية إشارةً إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فقد جعل الله فى الصبر سَعة ، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما فى الصبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

ففى ذلك دَفْع لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : فى الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ،

وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهى من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى فى جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله فى معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر فى القرآن الكريم يجد تشابهاً فى تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى :

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دِقّة التعبير القرآنى .

ولما كانت المصائب التى تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أُصيب فى صحته أو تعرَّض لجائحة فى ماله ، أو انهار بيته .. إلخ .

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .

إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب ؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

أما النوع الآخر : فهو المصائب التى تقع بفعل فاعل ، كالقتل مثلاً ، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر فى هذه أصعب وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما فى الآية الثانية :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد ؛ لأن الصبر هنا شاقٌ ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان لِيُؤلّب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .

كما نلاحظ فى الآية الأولى قال : (وَاصْبِرْ) .

وفى الثانية قال : (صَبَر وغَفَر) لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .

ويُحكى فى قصص العرب قصة اليهودى المرابى الذى أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه فى أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد فى الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودى الأمر إلى القاضى وقَصَّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضى صاحب فِطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن فى ضربة

واحدة ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت .

ولما رأى اليهودى مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .

والسؤال الآن : ما علاقة[1] هذه الآية :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ.. (١٢٦) ﴾ [النحل]

بما قبلها :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (١٢٥) ﴾ [النحل]

الدعوة إلى الله منهج يلفت الإنسان - خليفة الله فى أرضه - أنْ يلتزمَ بمنهج الله الذى استخلفه ، ووضع له هذا المنهج لِيُنظِّم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يُفسدون فى الأرض ، ويحققون لأنفسهم مصالح على حساب الغير ، والذى يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدَّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطغى ويستعلى ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويُخرجهم مما ألفُوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذى يستفيدون به ، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا فى وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصح والإصلاح ، وشدة تَرْك ما ألفوه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢٨) : « المعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الرتب من الذى يُدْعى ويوعظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يُجازى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور أثبت » وذلك فى أن هذه الآية مدنية .

فعلَى الداعية - إذن - أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، فإذا ما تعدّى أمرُهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يَعُدْ يُجدى أسلوب الحكمة .

ولا بُدّ لنا أن نقفَ الموقف الذى تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذى شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لَدَد فى الخصومة ، أو إسراف فى العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وفى الآية تحذير أن يزيدَ الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوى أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذى أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هدّأها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهى فى تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته ﷺ توجّه إليه ﷺ فى تصرُّف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضى الله عنه .

فقد مثّل به الكفار فى أُحُد ، وشقّتْ هند بطنه ، ولاكت كبده ،

فشقَّ الأمر على رسول الله ﷺ ، وأثَّر في نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقرابة فهو عمه الذى آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال فى انفعاله بهذه العاطفة :

« لئن أظهرنى الله عليهم لأمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم »[1] .

ولكن الحق سبحانه العادل الذى أنزل ميزان العدل والحق فى الخلق هدَّأ من رَوْعه ، وعدَّل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

والمتأمل للأسلوب القرآنى فى هذه الآية يلحظ فيها دعوة إلى التحنُّن على الخصم والرأفة به ، فالمتحدث هو الله سبحانه ، فكل حرف له معنى ، فلا تأخذ الكلام على إجماله ، ولكن تأمل فيه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً .

لماذا قال الحق سبحانه : (وإنْ) ولم يستخدم (إذا) مثلاً ؟

إن عاقبتم : كان المعنى : كان يحب ألاَّ تعاقبوا .

أما (إذا) فتفيد التحقيق والتأكيد ، والحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن القلوب ، ويضع ردَّ العقوبة بمثلها فى أضيق نطاق ، فهذه رحمة حتى مع الأعداء ، هذه الرحمة تُحبِّبهم فى الإسلام ، وتدعوهم إليه ، وبها يتحوّل هؤلاء الأعداء إلى جنود فى صفوف الدعوة إلى الله .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٩٢) وعزاه لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

كما أن في قوله : (عَاقَبْتُمْ) دليل على أن ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

كأنه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفي حال قوة تُمكنكم من الردِّ إذا اعتُدِي عليكم ، كما أن في وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويرهبه ، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن في المجتمع ، فالقوي لا يفكِّر أحد في الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم في صراعها المحموم حول التسلُّح بأسلحة فاتكة .

وكلمة : ﴿ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

نلاحظ أن الردَّ على الاعتداء يُسمَّى عقوبة ، لكن الاعتداء الأول لماذا نُسميه أيضاً عقوبة ؟

قالوا : لأن هذه طريقة في التعبير تسمَّى « المشاكلة »[1] ، أي : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى :

---

(١) المشاكلة : مصطلح من مصطلحات بديع القرآن معناه : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً . [الاتقان في علوم القرآن ١/ ٢٨١].

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى]

لأن ردَّ السيئة لا يُسمَّى سيئة .

ولسائل في هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى في هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرِّره من البداية ؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل ؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أَمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله .. إلخ . وهذا الأمن لا يتأتّى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن في المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان في المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية في تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أنْ يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها ؛ فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على جريمته ، ففي تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحِفْظ لسلامته وأَمْنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون مَن يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : في تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول في هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية يدخل

أو لا يدخل ، لا يغصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم[1] .

إذن : شرعَ الإسلامُ العقوبةَ ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعتْ يلجأ إلى علاج آخر يجتثُّ جذور الغلِّ والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر في صعيد مصر : إنه يظل في سلسلة من القتل والثأر لا تنتهي ، وتفزِّع المجتمع كله ، حتى الآمنين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات في هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجَّع واحد منهم ، فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى وليِّ القتيل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفني معي ، فاصنع بي ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أنْ يثأروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التي لا تنتهي .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ ١٢٧

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٨٢ ، ٢٨٣) ، والبخاري في صحيحه (١٢/ ٢٦٧ - فتح الباري) ، وابن ماجه في سننه (٢٥٣٥) ، وكذا الترمذي (١٤٥٨) .

(٢) قال ابن زيد : هي منسوخة بالقتال . وجمهور الناس على أنها محكمة . أي : اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . [تفسير القرطبي ٥/ ٣٩٢٠] .

بعد أن ذكرتْ الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكان الآية السابقة تمهد للأمر هنا (واصْبِرْ) ليأتمر الجميع بأمر الله ، بعد أنْ قدّم لهم الحيثيات التى تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كما يقولون فى الحكمة : من الشجاعة أنْ تجبُنَ ساعة .

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارت نفسُك ، فالشجاعة أنْ تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : ﴿ واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (١٢٧) ﴾ [النحل]

من حكمة الله ورحمته أنْ جعلك تصبر على الأذى ؛ لأن فى الصبر خيراً لك ، والله هو الذى يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التى تهيج غضبك ، وتجرّك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولّى أمره وأعانه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ، وحين تتجه إليه يُجنِّد الله لك الخواطر الطيبة التى تُعينك عليه وتُيسِّره لك وتُرضيك به ، فيأتى صبرك جميلاً ، لا سخطَ فيه ولا اعتراضَ عليه .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. (١٢٧) ﴾ [النحل]

لقد امتنَّ الله على أمة العرب التى استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله ﷺ ، بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبه ونَسَبه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ مُحباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عَنَتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص : الضَّنّ بالشىء ، فكأنه ﷺ يضِنّ بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى فى الحديث الشريف :

« إنما مثلى ومثَل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم[1] وأنتم تقحَّمون فيه »[2] .

لذلك حزن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببتَ له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلَّ عليها من يحب من أهله ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحبَّ أنْ يُشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

---

(١) حُجزة الإنسان : مَعْقد السراويل والإزار . واحتجز بالإزار إذا شدَّه على وسطه . فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشىء والتعلق به . [لسان العرب - مادة : حجز] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسلِّى رسوله ، ويخفف عنه ما صُدِم فى قومه ، يقول له : لا تحزن عليهم ولا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ . ويخاطبه ربه فى آية أخرى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف]

أى : لا تكن مُهْلكاً نفسك أسفاً عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ ﴾ [النحل]

الضيق : تأتى بالفتح وبالكسر ، ضِيْق ، ضَيْق[1] .

والضيق : أن يتضاءل الشيء الواسع أمامك عما كنت تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفى هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفْسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما قال تعالى عن الثلاثة[2] الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ .. ۝١١٨ ﴾ [التوبة]

---

(١) قال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك . والضِّيق ما يكون فى الذى يتسع ويضيق . مثل الدار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٣٠] .

(٢) هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك دون عذر . فعوقبوا بأن هجرهم المسلمون نحواً من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكنهم صبروا لأمر الله وثبتوا . حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم مع رسول الله ﷺ فى تخلفهم وأنه كان عن غير عذر . [تفسير ابن كثير ٢/٣٩٩] بتصرف .

فالحق سبحانه ينهى رسوله ﷺ أنْ يكون في ضيق من مكر الكفار ؛ لأن الذي يضيق بأمر ما هو الذي لا يجد في مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذي يعرف أن له منفذاً ومَخْرجاً فلا يكون في ضَيْق .

فالمعنى : لا تَكُ في ضيق يا محمد ، فالله معك ، سيجعل لك من الضيق مخرجاً ، ويرد على هؤلاء مكرهم :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [الأنفال]

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب . فساعة أن تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب ، وتضيق بك نفسك فليسعْك ربك ، ولتكُنْ في معيته سبحانه ؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾

هذه قضية معيَّة الله لمن اتقاه ، فمَن اتقى الله فهو في جواره ومعيته ، وإذا كنت في معية ربك فمَنْ يجرؤ أن يكيدك ، أو يمكرُ بك ؟

وفي رحلة الهجرة تتجلى معية الله تعالى وتتجسد لنا في الغار ، حينما أحاط به الكفار ، والصِّدِّيق يقول للرسول ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لَرآنا ، فيجيبه الرسول ﷺ وهو واثق بهذه المعية :

« يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٣) ، ومسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر ؟

المعنى : مادام أن الله ثالثهما إذن فهما في معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمَنْ كان في معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : ﴿ اتَّقَوا.. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل]

التقوى في معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعمالاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمتأمل يجد معناهما يلتقي في نقطة واحدة .

فمعنى « اتق الله » : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه ؛ لأن للحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

ونقول : اتقوا النار ، أي : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرّة باللازم ، ومرّة بلازم اللازم .

وقوله : ﴿ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل]

المحسن : هو الذي يُلزم نفسه في عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به . فإنْ كان الشرع فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة ، فالإحسان أن تزيدها ما تيسَّر لك من النوافل ، وإنْ كان الصوم شهرَ رمضان ، فالإحسان أنْ تصومَ من باقي الشهور كذا من الأيام ، وكذلك في الزكاة ، وغيرها ممَّا فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح فى حديث جبريل حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

والآية الكريمة تُوحِي لنا بأن الذين اتقوا لهم جزاء ومعيَّة ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعيَّة ، كُلٌّ على حسب درجته ؛ لأن الحق سبحانه يعطى من صفات كماله لخَلْقه على مقدار معيتهم معه سبحانه ، فالذى اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوى ومَنْ أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثانى مزيَّة وخصوصية .

وفى سورة الذاريات يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

لم يقل « مؤمنين » ؛ لأن المؤمن يأتى بما فُرِض عليه فحسب ، لكن ما وجه الإحسان عندهم ؟

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الفتح (١/ ١٢٠) : « إحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود . بأن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه ، وهو قوله « كأنك تراه » . وأن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل ، وهو قوله « فإنه يراك » .

يقول تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

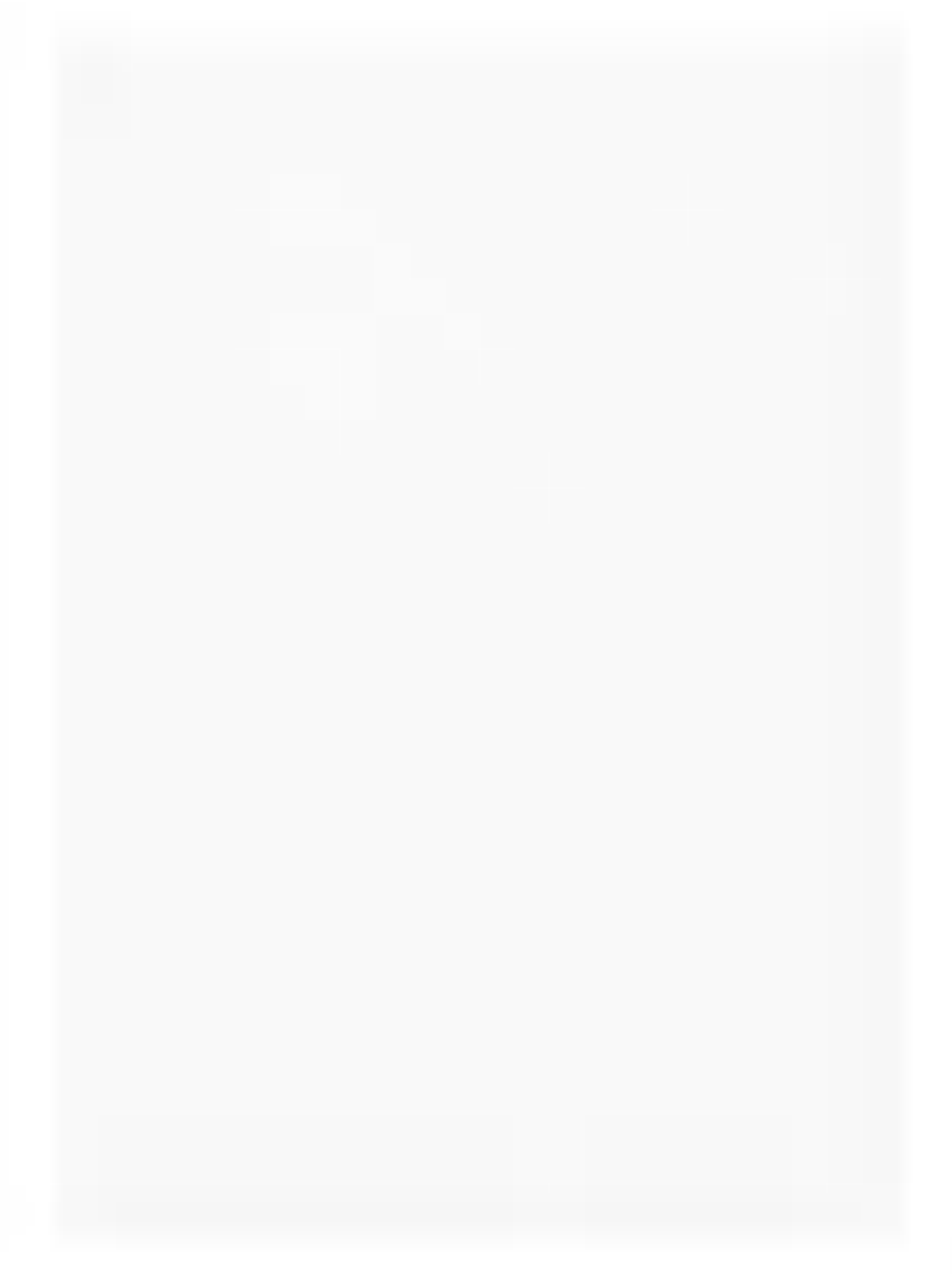
وكلها أمور نافلة تزيد عما فرض الله عليهم .

ويجب أن نتنبه هنا إلى أن المراد من قوله تعالى :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ليست الزكاة ، بل هى الصدقة ، لأنه فى الزكاة قال سبحانه :

﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ.. ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج]




سُورَةُ الإسْرَاءِ

لو تأملنا خواتيم سورة النحل لوجدناها مقدمة طبيعية لأحداث سورة الإسراء[1] ، ولوجدنا توافقاً وتناسباً في ترتيب هاتين السورتين ، فقد خُتِمَتْ النحل ببيان حُكْم رَدّ العقوبة بمثلها ، ثم أمرت رسول الله ﷺ بالصبر وبيَّنَتْ جزاء الصابرين ، ونهَتْ رسول الله عن الضيق من مكْر الكفار .

نستشف من هذا أن رسول الله ﷺ سيستقبل أحداثاً تحتاج إلى صبر وشدائد ، تحتاج إلى سعة صدر ، وكأن هذه التوجيهات جاءت بمثابة مناعات إيمانية ، تُحصِّن رسول الله وتُعدّه لما هو مُقبل عليه من أحداث في سورة الإسراء ، وكأنها إشارات لما سيحدث من شدائد حتى لا يُفاجأ رسول الله بها ، ولا تأتيه على غِرّة .

هذه المناعات التي جاءت في نهاية سورة النحل أشبه بما نلجأ إليه في حِفْظ سلامة البنية وسلامة القالب ، حينما نخاف من

---

(١) سورة الإسراء ، هي السورة (١٧) في ترتيب المصحف ، وعدد آياتها (١١١) آية ، وهي سورة مكية ، إلا ثلاث آيات :

– قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ..(٦٠)﴾ [الإسراء]

– قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)﴾ [الإسراء]

– قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾ [الإسراء]

وببدايتها يبدأ الجزء (١٥) من القرآن .

ولسورة الإسراء أسماء أخرى ، منها : سورة سبحان ، سورة بني إسرائيل .

الأمراض ، إنه ما نسمِّيه بالتطعيم ضد المرض ، فيأخذ الجسم من هذا الطُّعْم حصانة تحميه إذا هاجمه المرض .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يُعطى رسوله هذه التحصينات ، حتى يواجه الأحداث والشدائد القادمة بصبر وجَلَد ، ويعلم أن الله تعالى لن يخذله ، ولن يتخلى عنه ، فما أرسل الله رسولاً وخذله أبداً ، فإنْ خذله الناس ، وضاقتْ عليه الدنيا بما رَحُبَتْ وجد الملجأ في معيته سبحانه وتعالى .

وفعلاً نزلت الشدائد برسول الله ﷺ ، وكانت قمة هذه الأحداث عند فَقْد عمه أبى طالب ، وزَوْجه خديجة فى عام واحد ، ولقسوة هذا عليه سماه « عام الحزن » .

ففقد ﷺ بموت عمه الحماية الخارجية التى كانت تدفع عنه أذى المشركين ، وتصد عنه صناديد قريش ، وفقد بموت زوجته الحماية الداخلية والملجأ الذى كان يأوى إليه ، حيث كانت تواسيه وتُهدِّىء من رَوْعه في أول نزول الوحي عليه . وتُبيِّن له بفقه أن ما يجده فى الغار من علامات النبوة ، وأن الله لن يتخلى عنه وتقول له : « والله إنك لَتصلُ الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتحمل الكَلَّ[1] ، وتعين على نوائب الدهر»[2]

نعم لقد كان عام حزن فعلاً ، فقد فيه السكن الخارجى والداخلى معاً ، فأين يذهب ﷺ .

فما عاد يشعر بأمْن فى مكة ، ففكَّر فى أهل الطائف ، عَسَاه يجد الأمن والأمان بينهم ، ولَكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد

---

(١) الكَلّ : الذى هو عيال وثقل على صاحبه . والكَلُّ : اليتيم . [اللسان ـ مادة : كلل] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها فى كتاب بدء الوحى .

آذوه أشد الإيذاء ، وقذفوه بالحجارة حتى أدْمَوْا قدمه الشريفة ، وأغروْا به صبيانهم وسفهاءهم ، وعاد منها حزيناً مُنكسراً إلى مكة مرة أخرى ، فلم يجد مَنْ يجيره إلا مطعم بن عدى .

ومن هنا نعلم أن نهايات سورة النحل جاءت في موقعها المناسب ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : لقد ضاقتْ عليك الأرض بما رَحُبَتْ ، وضاقت عليك نفسك ، ولكن ملجأك إلى الله سيُريك أن قسوة الأرض وتجهُّم الحياة لك سأُبدلك به تحية مباركة ، فى أن أُريك حفاوة السماء بك ، فبعد ما حدث لك فى مكة والطائف :

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

وجاء حادث الإسراء والمعراج ليرى رسول الله ﷺ حفاوة الملأ الأعلى بعد ما أصابه من أذى البشر ، وقبل أن يرى رسول الله حفاوة السماء غيَّر الله له نظام الكون ، فقال تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾

استهل الحق سبحانه هذه السورة بقوله (سُبْحَانَ) ؛ لأنها تتحدث عن حدث عظيم خارق للعادة ، ومعنى سبحان : أى تنزيهاً لله تعالى تنزيهاً مطلقاً ، أن يكون له شبيه أو مثيل فيما خلق ، لا فى

الذات ، فلا ذاتَ كذاته ، ولا في الصفات فلا صفات كصفات ، ولا في الأفعال ، فليس في أفعال خَلْقه ما يُشبه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزِّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتي فيه سبحانه .

فذاته سبحانه لا مثيلَ لها ، ولا شبيه في ذوات خلقه . وكذلك إن قيل : لك سَمْع ولله سمع . فنزِّه الله أنْ يُشابه سمعُه سمعَك ، وإن قيل : لك فِعْل ، ولله فعْل فنزِّه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معاني (سُبْحَان) أي : اتعجب من قدرة الله .

إذن : كلمة (سُبْحَان) جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر ، فإذا ما سمعتَه إياك أنْ تعترضَ أو تقول : كيف يحدث هذا ؟ بل نزِّه الله أن يُشابه فعلُه فعلَ البشر ، فإن قال لك : إنه أسرى بنبيه محمد ﷺ من مكة إلى بيتَ المقدس في ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فإياك أن تنكر .

فربك لم يقُلْ : سَرَى محمد ، بل أُسْرِى به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعْه لمقاييس الزمن لديك ، ففعْل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَان) نجدها في الأشياء التي ضاقتْ فيها العقول ، وتحيَّرتْ في إدراكها وفي الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس]

فالأزواج أى : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر فى النبات ، وفى الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ بما توصّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى ؛ لذلك قال تعالى :

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات]

ومنها قوله تعالى :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ..(١٧)﴾ [الروم]

فَمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحُلُّ الظلام محلّ الضياء ، أو الضياء محل الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول : سبحان الله .

ومنها قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[1] (١٣)﴾ [الزخرف]

هذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردتْ فيها كلمة (سبحان) فى خلال السور وفى طيّات الآيات .

و (سُبْحَان) اسم يدلُّ على الثبوت والدوام ، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزِّه ، كما نقول فى الخلق ، فالله خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أنْ يخلق شيئاً .

وكما تقول : فلان شاعر ، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

---

(١) اقترن الشىء : قدر عليه وأطاقه وأخضعه وسخَّره ، كأنه مع آخر فى قرن واحد [القاموس القويم ٢/ ١١٤] .

إذن : تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنزِّهه سبحانه ، فإذا وُجِد المنزِّه تحوّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ۝١ ﴾ [الحشر]

وهل سبَّح وسكت وانتهى التسبيح ؟ لا ، بل :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ۝١ ﴾ [الجمعة]

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح ثابت له ، وتُسبِّح له الكائنات في الماضي والحاضر ، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكلّف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى]

وقوله : (أَسْرَى) من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، وفي الحِكَم : (عند الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد ﷺ فلا تَقِسْ الفعل بمقياس البشر ، ونزِّه فعْل الله عن فعلك ، وقد استقبل أهل مَكة هذا الحدث استقبال المكذِّب . فقالوا : كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون في قولهم ؛ لأن رسول الله لم يدَّع أنه سَرَى بل قال : أُسْرِي بي .

ومعلوم أن قَطْع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة المتمثلة في السرعة . أي : أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو أردنا مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية سيختلف الزمن لو سِرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ،

فما بالك لو نسب الفعل والسرعة إلى الله تعالى ، إذا كان الفعل من الله فلا زمن .

فإنْ قال قائل : مادام الفعل مع الله لا يحتاج إلى زمن ، لماذا لم يَأْتِ الإسراء لمحةً فحسْب ، ولماذا استغرق ليلة ؟

نقول : لأن هناك فرْقاً بين قطْع المسافات بقانون الله سبحانه وبين مَرَاء عُرِضَتْ على النبى ﷺ فى الطريق ، فرأى مواقف ، وتكلَّم مع أشخاص ، ورأى آيات وعجائب ، هذه هى التى استغرقت الزمن .

وقلنا : إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قَدْر قوة الفاعل . هَبْ أن قائلاً قال لك : أنا صعدتُ بابنى الرضيع قمة جبل « إفرست » ، هل تقول له : كيف صعد ابنك الرضيع قمة « إفرست » ؟

هذا سؤال إذن فى غير محله ، وكذلك فى مسألة الإسراء والمعراج يقول تعالى : أنا أسريتُ بعبدى ، فمن أراد أنْ يُحيل المسألة ويُنكرها ، فليعترض على الله صاحب الفعل لا على محمد .

لكن كيف فاتتْ هذه القضية على كفار مكة ؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج نأخذ ردّاً جميلاً على هؤلاء الذين يخوضون فى هذا الحادث بعقول ضيقة وبإيمانية سطحية فى عصرنا الحاضر ، فيطالعونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان .

ونسمع منهم مَنْ يقول : إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد .

ونقول لهؤلاء : لو قال محمد لقومه : أنا رأيتُ في الرؤيا بيت المقدس ، هل كانوا يُكذِّبونه ؟ ولو قال لهم : لقد سبحتْ روحي الليلة حتى أتتْ بيت المقدس ، أكانوا يُكذِّبونه ؟ أتُكذِّب الرّؤى أو حركة الأرواح ؟!

إذن : في إنكار الكفار على رسول الله وتكذيبهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله ﷺ برُوحه وجسده ، وكأن الحق سبحانه ادَّخر الموقف التكذيبي لمكذبي الأمس ، ليردّ به على مُكذِّبي اليوم .

وقوله سبحانه :

﴿ بِعَبْدِهِ .. ①﴾ [الإسراء]

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً ، هذا مدلولها ، لا يمكن أن تُطلَق على الروح فقط .

لكن ، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله ﷺ هذه الصفة بالذات ؟

نقول : لأن الله تعالى جعل في الكون قانوناً عاماً للناس ، وقد يُخرَق هذا القانون أو الناموس العام ليكون معجزةً للخاصة الذين ميَّزهم الله عن سائر الخَلْق ، فكان كلمة (عبده) هي حيثية الإسراء .

أي : أُسْرِي به : لأنه صادق العبودية لله ، ومادام هو عبده فقد أخلص في عبوديته لربه ، فاستحق أنْ يكون له مِيْزة وخصوصية عن غيره ، فالإسراء والمعراج عطاء من الله استحقّه رسوله بما حقّق من عبودية لله .

وفَرْق بين العبودية لله والعبودية للبشر ، فالعبودية لله عزٌّ وشرف يأخذ بها العبدُ خَيْرَ سيده ، وقال الشاعر :

وَمِمَّا زَادَنِى شَرَفاً وَعِزّاً ... وكِدْتُ بأخْمُصِى أطَأ الثُّرَيَّا
دُخُولِى تَحْتَ قولِكَ يَا عِبَادِى ... وَأنْ صَيَّرت أحمدَ لِى نبيّا

أما عبودية البشر للبشر فنقْصٌ ومذلّة وهوان ، حيث يأخذ السيد خَيْر عبده ، ويحرمه ثمرة كَدِّه .

لذلك ، فالمتتبِّع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتى إلا فى المواقف العظيمة مثل :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ..(١)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ..(١٩)﴾ [الجن]

ويكفيك عزّاً وكرامة أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك أن يكون الأمر فى يدك ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ وتنوى المقابلة قائلاً : الله أكبر ، فتكون فى معية الله عز وجل فى لقاء تحدد أنت مكانه وموعده ومُدّته ، وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل فى حضرة ربك إلى أن تنهى المقابلة متى أردتَ .

وما أحسنَ ما قال الشاعر :

حَسْبُ نَفْسى عِزّاً بأنِّى عَبدٌ ... يَحْتَفِى بى بلاَ مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعَزّ ولكنْ ... أنَا ألْقَى مَتَى وَأيْنَ أُحِبُّ

فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعنت ؟ وكم دونه من الحجّاب والحرّاس ؟ ثم بعد ذلك ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان ، ولا الموضوع ولا غيره .

وقد كان الرسول ﷺ وهو المتخلّق بأخلاق الله إذا سلّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده[١] .

وقوله : ﴿ لَيْلاً .. ①﴾ [الإسراء]

سبق أن قُلْنا : إن السُّرى هو السير ليلاً ، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلاً ، ولكن الحق سبحانه أراد أنْ يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً ؟

نقول : حدث الإسراء ليلاً ، لتظلّ المعجزة غَيْباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ ، فلو ذهب فى النهار لرآه الناس فى الطريق ذهاباً وعودة ، فتكون المسألة ـ إذن ـ حسِّية مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب .

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال : إن صاحبكم يزعم أنه أُسْرِى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، فمنهم مَنْ قلّب كفَّيْه تعجُّباً ، ومنهم مَنْ أنكر ، ومنهم مَن ارتد .

أما الصِّدِّيق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدِّق ، ومن هذا الموقف سُمِّى الصديق ، وقال قولته المشهورة : « إن كان قال فقد صدق »[٢] .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : ما رأيت رجلاً قط أخذ بيد رسول الله ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو ينزع يده . أخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص٢٩) .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦١/٢) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أُسْرِى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أُسْرِى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتُصدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢/٣ ، ٦٣) وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » .

إذن : عمدته أن يقول رسول الله ، وطالما قال فهو صادق ، هذه قضية مُسلَّم بها عند الصِّدِّيق رضى الله عنه .

ثم قال : « إنَّا لَنُصدقه فى أبعد من هذا ، نُصدِّقه فى خبر السماء (الوحى) ، فكيف لا نُصدِّقه فى هذا » ؟

إذن : الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحكّاً للإيمان ، ومُمحِّصاً ليقين الناس ، حتى يغربل مَنْ حول رسول الله ، ولا يبقى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذى لا يهتز ولا يتزعزع .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يكُنْ مناماً ، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً ، فالمنام لا يُكذِّبه أحد ولا يختلف فيه الناس .

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعنى المنامية ، ولم يقُلْ « رؤية » يعنى البصرية ؟

قالوا : لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية ، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة .

وورد فى الإسراء أحاديث كثيرة تكلَّم فيها العلماء : أكان بالروح والجسد ؟ أكان يقظة أم مناماً ؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانىء[1] ؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء ، ونُوضِّح ما فيها من تقارب .

---

(١) هى : أم هانىء بنت أبى طالب الهاشمية ابنة عم النبى ﷺ ، قيل : اسمها فاختة ، فاطمة ، هند ، والأول أشهر ، وكانت زوج هبيرة بن عمرو المخزومى . [الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٢٨٧)] .

فمن حيث : أكان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد ؟ فقد أوضحنا وَجْه الصواب فيه ، وأنه كان بالروح والجسد جميعاً ، فهذا مجال الإعجاز ، ولو كان بالروح فقط ما كان عجيباً ، وما كذَّبه كفار مكة .

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤيا منام ، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحي لرسول الله ﷺ كان الرؤيا الصادقة ، فكان ﷺ لا يرى رُؤْيَا إلا وجاءت كفَلَق الصبح[1] ، فرؤيا النبى ﷺ ليست كرؤيانا ، بل هى صدْق لا بُدَّ أن يتحقَّق . ومثال ذلك ما حدث ، مَنْ إرادة الله له رؤْيا الفَتح .

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ..﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح]

وقد أخبر ﷺ صحابته هذا الخبر ، فلما ردَّهم الكفار عند الحديبية ، فقال الصحابة لرسول الله : ألم تُبشِّرنا بدخول المسجد الحرام ؟ فقال : ولكن لم أقُلْ هذا العام[2] .

لذلك يسمون هذه الرُّؤى رؤى الإيناس ، وهى أن يرى النبى ﷺ

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٣٣٩٢) كتاب بدء الوحى .

(٢) أورد هذا ابن كثير فى تفسيره (٢٠١/٤) ولفظه أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقال ﷺ : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال عمر : لا . فقال النبى ﷺ : « فإنك آتيه ومطوف به » .

الشيء مناماً ، حتى إذا ما تحقق لم يُفَاجأ به ، وكان له أُنْس به .
وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح فلا بُدَّ أن هذه الرؤيا ستأتي واقعاً وحقيقة ، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل التذكرة بتلك الإيناس .

إذن : مَنْ قال : إن الإسراء كان مناماً نقول له : نعم كان رؤيا إيناس تحققتْ في الواقع ، فلدينا رؤى الإيناس أولاً ، ورؤى التذكير بالنعمة ثانياً ، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثاً ، وبذلك نخرج من الخلاف حول : أكان الإسراء يقظة أم مناماً ؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من التسلية لرسول الله ﷺ ، فكان كلما اشتدتْ به الأهوال يُرِيه الله تعالى ما حدث له ليُبيِّن له حفاوة السماء والكون به ﷺ ؛ ليكون جَلْداً يتحمل ما يلاقي من التعنت والإيذاء .

أما من قال : إن الإسراء كان من بيت أم هانيء ، فهذا أيضاً ليس محلاً للخلاف ؛ لأن بيت أم هانيء كان مُلاصِقاً للمطاف من المسجد الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن : لا داعي لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة ؛ لأن الفعل فِعْل الحق سبحانه وتعالى ، والذي يحكيه لنا هو الحق سبحانه وتعالى ، فلا مجالَ للخلاف فيه .

وقوله تعالى :

﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا..(١)﴾ [الإسراء]

المسجد الحرام هو بيت الله : الكعبة المشرفة ، وسُمّى حراماً ؛ لأنه حُرّم فيه ما لم يحرُمْ في غيره من المساجد . وكل مكان يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة]

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت الله باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خَلْق الله ؛ لذلك كان بيت الله باختيار الله قِبْلة لبيوت الله باختيار خَلْق الله .

وقد يُراد بالمسجد المكان الذى نسجد فيه ، أو المكان الذى يصلح للصلاة ، كما جاء فى الحديث الشريف : « .. وجُعِلَتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً »[(١)] .

أى : صالحة للصلاة فيها .

ولا بُدَّ أن نُفرّق بينَ المسجد الذى حُيِّز وخُصِّص كمسجد مستقل ، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة ، فالعامل يمكن أن يصلى فى مصنعه ، والفلاح يمكن أن يصلى فى مزرعته ، فهذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة .

أما المسجد فللصلاة ، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير آية ، أو بيان حكم ، أو تلاوة قرآن .. إلخ ولا يجوز فى المسجد مباشرة عمل من أعمال الدنيا .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم فى صحيحه (٥٢١) .

لذلك حينما رأى النبى ﷺ رجلاً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا ردَّها الله عليك »[1] وقال لمن جلس يعقد صفقة فى المسجد : « لا بارك الله لك فى صفقتك »[2] .

ذلك لأن المسجد خُصِّص للعبادة والطاعة ، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل ، فإياك أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفى ما أخذتْه منك ، وما أنفقته فى سبيلها من وقت .

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شىء من منافع الدنيا ، كمَنْ يبنى مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودَعْكَ من نيته عندما خَصَّص هذا المكان للصلاة : أكانت نيته لله خالصة ؟ أم لمآرب دنيوى ؟

وقد قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن]

فمثل هذا المكان لا يُسمَّى مسجداً ؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقدسية المسجد ، وما لا يليق بحُرْمة الصلاة ، فالصلاة فى مثل هذا المكان كالصلاة فى أى مكان آخر من البيت .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلِّق فوق مكة ؛ لأن جوَّ الحرَم حَرَمٌ .

وقوله تعالى :

﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء]

في بُعْد المسافة نقول : هذا قصيٌّ . أي : بعيد . وهذا أقصى أي : أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصيٌّ ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ .

فالمسجد الأقصى : أي : الأبعد ، وهو مسجد بيت المقدس .

وقوله سبحانه : ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ① ﴾ [الإسراء]

البركة : أن يُؤتي الشيءُ من ثمره فوقَ المأمول منه ، وأكثر مما يُظنّ فيه ، كأن تُعد طعاماً لشخصين ، فيكفي خمسة أشخاص ، فتقول : طعام مبارَك .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ① ﴾ [الإسراء]

دليل على المبالغة في البركة ، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى ، فالبركة فيه من باب أَوْلَى ، كأن تقول : مَنْ يعيشون حول فلان في نعمة ، فمعنى ذلك أنه في نعمة أعظم .

لكن بأيّ شيء بارك الله حوله ؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية ، وبركة دينية :

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خِصْبة عليها الحدائق

والبساتين التى تحوى مختلف الثمار ، وهذا من عطاء الربوبية الذى يناله المؤمن والكافر .

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين ، هذه البركة الدينية تتمثل فى أن الأقصى مَهْد الرسالات ومَهْبط الأنبياء ، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الوحى وتنزلتْ الملائكة .

وقوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا.. ① ﴾ [الإسراء]

اللام هنا للتعليل .

كان مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن نُرِى رسول الله الآيات ، وكلمة : الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الشجاعة ، فالآية هى الشىء العجيب .

ولله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذى يراه الناس ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.. ㊲ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ㉜ ﴾ [الشورى]

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصية ، وأن يُريه من آيات الغيب الذى لم يَرَهُ أحد ، ليرى ﷺ حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذى قال له :

﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧ ﴾ [النحل]

لأنك فى سَعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء فى الملأ الأعلى ، وإنْ كنت فى ضيق من الخَلْق فأنت فى سَعة من الخالق .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ﴾ [الإسراء]

أى : الحق سبحانه وتعالى .

السمع : إدراك يدرك الكلام . والبصر : إدراك يدرك الأفعال والمرائى ، فلكل منهما ما يتعلق به .

لكن سميع وبصير لمن ؟

جاء هذا فى ختام آية الإسراء التى بيَّنَتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم ، وكأن معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثتْ فيها أقوال وأفعال من الجانبين .

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى : (سَمِيعٌ) لأقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله ، حيث آذاه قومه وكذبوه وألجؤوه إلى الطائف ، فكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم فى مكة ، فعاد مُنكَرًا دامياً ، وكان من دعائه :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/٤١٥) .

فالله سميع لقول نبيه ﷺ ، وبصير لفعله .

فقد كان ﷺ في أشدّ ظروفه حريصاً على دعوته ، فقد قابل في طريق عودته من الطائف عبداً ، فأعطاه عنقوداً من العنب ، وأخذ يحاوره في النبوات ويقول : أنت من بلد نبي الله يونس بن متى[1] .

أو يكون المعنى : سميع لأقوال المشركين ، حينما آذوا سَمْعَ رسول الله وكذّبوه وتجهمّوا له ، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورَمَوْه بالحجارة .

الحق تبارك وتعالى تعرّض لحادث الإسراء في هذه الآية على سبيل الإجمال ، فذكر بدايته من المسجد الحرام ، ونهايته في المسجد الأقصى ، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مُجْملة .

وجاء ﷺ ففسَّر لنا هذا المجمل ، وذكر الآيات التي رآها ، فلو لم يذكر لنا رسول الله ﷺ ما رأى من آيات الله لَقُلْنا : وأين هذه الآيات ؟

فالقرآن يعطينا اللقطة الملزمة لبيان الرسول ﷺ :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة]

إذن : كان لا بُدَّ لتكتمل صورة الإسراء في نفوس المؤمنين أن يقول الرسول ﷺ ما قال من أحاديث الإسراء .

---

(١) هذا العبد يُسمى عداس ، وهو غلام نصراني ، قال له رسول الله ﷺ : من أهل أيّ البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي . فأكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢١] .

لكن يأتى المشكِّكُون وضعَاف الإيمان يبحثون فى أحاديث الإسراء عن مأخذ ، فيعترضون على المرائى التى رآها رسول الله ، وسأل عنها جبريل عليه السلام .

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث فى الآخرة ، فكيف رآها محمد ﷺ ؟

ونقول لهؤلاء : لقد قصُرَتْ أفهامكم عن إدراك قدرة الله فى خَلْق الكون ، فالكون لم يُخلَق هكذا ، بل خُلِق بتقدير أزلى له ، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل :

هَبْ أنك أردتَ بناء بيت ، فسوف تذهب إلى المهندس المختص وتطلب منه رَسْماً تفصيلياً له ، ولو كنت ميسور الحال تقول له : اعمل لى (ماكيت) للبيت ، فيصنع لك نموذجاً مُصغَّراً للبيت الذى تريده .

فالحق سبحانه خلق هذا الكون أزلاً ، فالأشياء مخلوقة عند الله (كالماكيت) ، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدَّره .

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

انظر : ﴿أَن يَقُولَ لَهُ﴾ كأن الشىء موجود والله تعالى يظهره فحسب ، لا يخلقه بداية ، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر فى عالم الواقع ؛ لذلك قال أهل المعرفة : أمور يُبديها ولا يبتديها .

وإنْ كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة فى هذه الآية ، فقد ذكر المعراج بالالتزام في سورة النجم ، فى قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

ففى الإسراء قال تعالى :

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا .. (١)﴾ [الإسراء]

وفى المعراج قال :

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

ذلك لأن الإسراء آية أرضية استطاع الرسول ﷺ بما آتاه الله من الإلهام أنْ يُدلِّل على صدْقه فى الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى : لأن قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أنْ رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فقالوا له : صفْه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يَرَهْ ، فتحدَّوْهُ أن يصفه .

والرسول ﷺ حينما يأتى بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً ؟

إذن : صورته لم تكن واضحة أمام النبى ﷺ بكل تفاصيلها ، وهنا تدخلتْ قدرة الله فجلاَّه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلوك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فأخبرهم ﷺ أن عِيراً لهم فى الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تصلهم مع شروق شمس يوم مُعين .

وفعلاً تجمعوا فى صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم : ها هى الشمس أشرقتْ . فردَّ الآخر : وها هى العير قد ظهرت[1] .

إذن : استطاع ﷺ أن يُدلِّل على صدق الإسراء ؛ لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلمه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من عِيرهم فى الطريق .

أما ما حدث فى المعراج ، فآيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول ﷺ التدليل عليها أمام قومه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء ، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى ، فيصفها له رسول الله ؟

إذن : آية الأرض أمكن أنْ يُدلِّل عليها ، فإذا ما قام عليها الدليل ، وثبت للرسول خَرْق نواميس الكون فى الزمن والمسافة . فإنْ حدَّثكم عن شىء آخر فيه خَرْق للنواميس فصدِّقوه ، فكان آية الإسراء جاءت

---

(١) وقد أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٤٠٢) من حديث أم هانىء أن النبى ﷺ قال : آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حسُّ الدابة ، فندَّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا مُوجَّه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطُّوا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوبُ من البيضاء ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان ، إحداهما سوداء ، والأخرى برقاء . قالت : فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أُنفرنا فى الوادى الذى ذكر ، وندَّ له بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه .

لِتُقرِّب للناس آية المعراج .

فالذى خرق له النواميس فى آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النواميس في آيات السماء ، فالله تعالى يُقرِّب الغيبيات ، التى لا تدركها العقول بالمحسّات التى تدركها .

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة النفقة فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُبيِّن ذلك ويُقرِّبه للعقول ، فقال :.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

ومن لُطْف الله سبحانه بعقول خَلْقه أنْ جعل آيات الإسراء بالنصّ الملزم الصريح ، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام فى سورة النجم ؛ لذلك قال العلماء : إن الذى يُكذِّب بالإسراء يكفر ، أما مَنْ يكذِّب بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذِّب المعراج أيضاً ؛ لأن المعراج وإنْ جاء بالالتزام فقد بيَّنه الرسول ﷺ فى حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا..(٧)﴾ [الحشر]

والمتأمل فى الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أثراً ، وهو بيان أن رسول الله ﷺ مُؤيَّد من الله ، وله معجزات ، وتُخرَق له القوانين

والنواميس العامة ؛ ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .

فالمعجزة : أمر خارق للعادة الكونية يُجريه الله على يد رسوله ؛ ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حيث ألقاه قومه في النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل كان المراد نجاة إبراهيم من النار ؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكّنهم من الإمساك به ، ولو أمسكوا فيمكن أنْ يُنزِل الله المطر فيطفىء النار .

إذن : المسألة ليست نجاة إبراهيم ، المسألة إثبات خَرْق النواميس لإبراهيم عليه السلام ، فشاء الله أنْ تظلَّ النار مشتعلة ، وأن يُمسكوا به ويرموه في النار ، وتتوفر كل الأسباب لحرقه ـ عليه السلام .

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين ، فمن خواصِّ النار الإحراق ، وهي خَلْق من خَلْق الله ، يأتمر بأمره ، فأمر اللهُ النارَ ألاَّ تحرق ، سلبها هذه الخاصية ، فقال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وربما يجد المشككون في الإسراء والمعراج ما يُقرِّب هذ المعجزة لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدُّم علمي يُقرِّب لنا المسافات ، فقد تمكّن الإنسان بسلطان العلم أنْ يغزوَ الفضاء ، ويصعد إلى كواكب أخرى في أزمنة قياسية ، فإذا كان في مقدور البشر الهبوط على سطح القمر ، أتستبعدون الإسراء والمعراج ، وهو فِعْل لله سبحانه ؟!

وكذلك من الأمور التي وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء

والمعراج حادثة شَقّ الصدر التي حكاها رسول الله ﷺ ، والمتأمل فيه يجده عملاً طبيعياً لإعداد الرسول ﷺ لما هو مُقبل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف في طبيعتها عن الطبيعة البشرية .

كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر ، فيقولون لك : البس ملابس كذا . وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد ، وتتأقلم معه ، فما بالك ومحمد ﷺ سيلتقي بالملائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقي بإخوانه من الأنبياء ، وهم في حال الموت ، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى من ربه عز وجل ؟

إذن : لا غرابة في أنْ يحدث له تغيير ما في تكوينه ﷺ ليستطيع مباشرة هذه المواقف .

وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقائه بالأنبياء في هذه الرحلة ، قال تعالى :

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا .. (٤٥) ﴾ [الزخرف]

والرسول ﷺ إذا أمره ربّه أمراً نفّذه ، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر : واسأل مَن سبقك من الرسل ؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا في لقاء مباشر ومواجهة ، فإذا حدَّثنا بذلك رسول الله في رحلة الإسراء والمعراج نقول له : صدقت ، ولا يتسلل الشكّ إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة في هذه القضية ـ الإسراء والمعراج ـ دائرة بين يقين

المؤمن بصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أنْ يفهم كل قضايا الكون من حولك ؟

فما أكثر الأمور التى وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَها ، ومع مرور الزمن وتقدُّم العلوم رآها تتكشَّف له تدريجياً ، فما شاء الله أنْ يُظهره لنا من قضايا الكون يسَّر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أنْ يتعدَّاها ، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهى وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رأيت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغُر تدريجياً حتى يختفى عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أنْ تسمعَ صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قلَّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئاً .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلُّب على قانون العيْن وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تُمكِّن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعدها على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إذن : فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أنْ تظنَّ

أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حُدِّثْتَ بشيء فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصِّدِّيق أبي بكر رضي الله عنه حينما حدثوه عن صاحبه ﷺ ، وأنه أُسرِيَ به من مكة إلى بيت المقدس ، فما كان منه إلا أن قال : « إن كان قال فقد صدق » .

فالحجة عنده إذن قول الرسول ، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق ، ولا مجال لعمل العقل في هذه القضية ، ثم قال : « كيف لا أصدقه في هذا الخبر ، وأنا أصدقه في أكثر من هذا ، أصدقه في خبر الوحي يأتيه من السماء »[1] .

فآية الإسراء - إذن - كانت آية أرضية ، يمكن أنْ يُقام عليها الدليل ، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرِق لمحمد في الإسراء ، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أدْعى لتصديقه .

والمتأمل في هذه السورة يجدها تسمى سورة الإسراء ، وتسمى سورة بني إسرائيل ، وليس فيها عن الإسراء إلا الآية الأولى فقط ، وأغلبها يتحدث عن بني إسرائيل ، فما الحكمة من ذِكْر بني إسرائيل بعد الإسراء ؟

سبق أن قلنا : إن الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النحل

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وكذا الحاكم في مستدركه (٣/٦٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

أن رسول الله ﷺ كان فى ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفِّف عنه ويُسلِّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما ألِفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رأوا موسى عليه السلام .

فعندما يأتى محمد ﷺ ويقول : أنا رسول للناس كافّة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون : إنْ كنتَ رسولاً فعلاً وسلّمنا بذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخْلَ لك ببنى إسرائيل ، فلنا رسالتنا وبيت المقدس علَم لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت بنى إسرائيل إلى عموم رسالة محمد ﷺ ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلةً للمسلمين فى بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله ﷺ إليه ؛ ليدلل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل فى مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث فى حَوْزة المسلمين .

ثم يبدأ الحديث عن موسى عليه السلام وعن بنى إسرائيل ، فيقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَآتَيْنَا ﴾ أى : أوحينا إليه معانيه ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..(٥١) ﴾ [الشورى]

فليس فى هذا الأمر مباشرة .

و (الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإنْ أُطلِق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوَحْى قد يكون بمعانى الأشياء ، ثم يُعبِّر عنها الرسول بألفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه بألفاظهم .

ومثال ذلك : الحديث النبوى الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول ﷺ ، وهكذا كان الأمر فى التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل : ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، فى حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط ؟

نقول : لأن القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أنْ يأتىَ بمثله ، فلا دَخْلَ لأحد فيه ، ولا بُدَّ أنْ يظلَّ لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول ﷺ أُوحِىَ إليه لَفْظُ ومعنى القرآن الكريم ، وأُوحِى إليه معنى الحديث النبوى الشريف .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الإسراء]

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل لِيبلِّغه لبنى إسرائيل ،

وليرسمَ لهم طريق الهدى إلى الله سبحانه ، وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ[1] مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾ [السجدة]

والهُدَى : هو الطريق الموصِّل للغاية من أقصر وجه ، وبأقلِّ تكلفة ، وهو الطريق المستقيم ، ومعلوم عند أهل الهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى خلاصة هذا الكتاب ، وخلاصة هذا الهدى لبنى إسرائيل فى قوله تعالى :

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء]

ففى هذه العبارة خلاصة الهُدى ، وتركيز المنهج وجِمَاعه .

والوكيل : هو الذى يتولّى أمرك ، وأنت لا تُولّى أحداً أمرك إلا إذا كنتَ عاجزاً عن القيام به ، وكان مَنْ تُوكّله أحكمَ منك وأقوى ، فإذا كنت ترى الأغيار تنتاب الناس من حولك وتستولى عليهم ، فالغنى يصير فقيراً ، والقوى يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكذلك ترى الموت يتناول الناس واحداً تلْو الآخر ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لِتولّى أمرك والقيام بشأنك ، فربما وَكَّلْتَ واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن : إذا كنتَ لبيباً فوكِّل مَنْ لا تنتابه الأغيار ، ولا يدركه

(١) المرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

الموت ؛ ولذلك فالحق سبحانه حينما يُعلمنا أن نكون على وعى وإدراك لحقائق الأمور ، يقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان]

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تتخذَ من دون الله وكيلاً ، حتى لو كان هذا الوكيل هو الواسطة بينك وبين ربك كالأنبياء ؛ لأنهم لا يأتون بشىء من عند أنفسهم ، بل يناولونك ويُبلِّغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. (٨٦) ﴾ [الإسراء]

ولو شئنا ما أوحينا إليك أبداً ، فمن أين تأتى بالمنهج إذن ؟

وقد تحدث العلماء طويلاً فى (أن) فى قوله :

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء]

فمنهم مَنْ قال : إنها ناهية . ومنهم من قال : نافية ، وأحسن ما يُقال فيها : إنها مُفسِّرة لما قبلها من قوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى .. (٢) ﴾ [الإسراء]

ففسرت الكتاب والهدى ولخَّصتْه ، كما فى قوله تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَـآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه]

فقوله : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ تُفسِّر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

ومثله قوله تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ..(٧)﴾ [القصص]

(فأنْ) هنا مُفسِّرة لما قبلها . وكان المعنى : وأوحينا إليه ألاَّ تتخذوا من دونى وكيلاً .

أو نقول : إن فيها معنى المصدرية ، وأنْ المصدرية قد تُجرّ بحرف جر كما نقول : عجبت أنْ تنجحَ ، أى : من أنْ تنجح ، ويكون معنى الآية هنا : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل لأنْ لا تتخذوا من دونى وكيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

(ذرية) منصوبة هنا على الاختصاص لِقصْد المدح ، فالمعنى : أخصكم أنتم يا ذرية نوح ، ولكن لماذا ذرية نوح بالذات ؟

ذلك لأننا نجَّيْنَا الذين آمنوا معه من الطوفان والغرق ، وحافظنا على حياتهم ، وأنتم ذريتهم ، فلا بُدَّ لكم أنْ تذكروا هذه النعمة لله تعالى ، أنّ أبقاكم الآن من بقاء آبائكم .

فكأن الحق سبحانه يمتنّ عليهم بأنْ نجّى آباءهم مع نوح ، فليستمعوا إلى منهج الله الذى جَرّبه آباؤهم ، ووجدوا أن مَنْ يؤمن بالله تكون له النجاة والأمن من عذاب الله .

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الحق سبحانه أكرم ذريته ؛ لأنه كان عبداً شكوراً ، والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه ؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبّطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجنّبهم الزّلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفّر للإنسان قُوت يومه تطلّع إلى قُوت العام كله ، فإذا توفّر له قوت عامه قال : أعمل لأولادى ، فترى خير أولاده أكثر من خَيْره ، وتراه ينشغل بهم ، ويُؤثرهم على نفسه ، ويترقّى فى طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، فالإنسان عُرْضَة للأغيار ، وقد يأتيه أجله فيترك وراءه كل شىء ؛ ولذلك فالحق سبحانه يدلّنا على وَجْه الصواب الذى ينفع الأولاد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ ﴾ [النساء]

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلّمنا أن تقوى الله تتعدّى بركتها إلى أولادك من بعدك ، يعطينا مثلاً واقعياً فى قصة موسى والخضر عليهما السلام ـ التى حكاها لنا القرآن الكريم .

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية ، واستطعما أهلها فأبَوْا أنْ يُضيّفوهما ، وسؤال الطعام يدل على صدْق الحاجة ، فلو طلب منك السائل مالاً فقد تتهمه بكَنْزِه ، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شكّ

أنه صادق في سؤاله ، فهذا دليل على أنها قرية لئام لا يقومون بواجب الضيافة ، ولا يُقدّرون حاجة السائل .

ومن هنا تعجّبَ موسى - عليه السلام - من مبادرة الخضْر إلى بناء الجدار الذي أوشك على السقوط دون أنْ يأخذ أجْره مَن هؤلاء اللئام :

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾ [الكهف]

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الأمر ، ويُظهر له ما أطلعه الله عليه من بواطن الأمور التي لا يدركها موسى عليه السلام ، فيقول :

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٢)﴾ [الكهف]

فالجدار ملْك لغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من هؤلاء اللئام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخّر الله لهما مَنْ يخدمهما ، ويحافظ على مالهما .

إذن : فعلّة هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من أجله ، وجعلَهما في حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل : ومن أين للغلامين أن يعلما بأمر هذا الكنز عند بلوغهما ؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادريْن على حمايته والدفاع عنه .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية في آية أخرى ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ (٢١) ﴾ [الطور]

فكرامةً للآباء تلحق بهم الأبناء ، حتى وإنْ قَصَّروا في العمل عن آبائهم ، فنزيد في أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾ [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة في الشكر ، فلم يَقُل شاكر ؛ لأن الشاكر الذي يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام : إنه كان لا يتناول شيئاً من مُقوّمات حياته إلا شكر الله عليها ، ولا تنعَّم بنعمة من ترف الحياة إلا حمد الله عليها ، فإذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني من غير حول مني ولا قوة ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني من غير حول مني ولا قوة ، وهكذا في جميع أمره[2] .

---

(١) لاته يليته حقه ليتاً : نقصه ولم يؤده كاملاً . قال تعالى : ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا (١٤) ﴾ [الحجرات] أي : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٤١) من قول عمران بن سليم قال : إنما سُمي نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني . وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني . وإذا احتذى قال : الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه فيّ .

ويقول بعض العارفين : ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جَهْدهم أن يقولوا : بسم الله في أول الطعام والحمد لله في آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نعَم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قَيْد للنعمة ، تجده يعمل ما نُسمِّيه حَمْد القضاء مثل الصلاة القضاء أي : حمد الله على نعم فاتت لم يحمده عليها ، فيقول : الحمد لله على كل نعمة أنعمتَها عليَّ يا ربِّ ، ونسيت أنْ أحمدَك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دأبه وديدنه .

وقد يتعدى حمدَ الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمدوه ، فيقول : الحمد لله عن كل ذي نعمة أنعمتَ عليه ، ولم يحمدك عليها .

ولذلك يقولون : إن النعمة التي تحمد الله عليها لا تُسأل عنها يوم القيامة ؛ لأنك أدَّيْتَ حقها من حَمْد الله والثناء عليه .

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناء عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧ ﴾ [إبراهيم]

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[1]

قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَآ ..﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : حكمنا حُكْماً لا رجعةَ فيه ، وأعلنَّا به المحكوم عليه ، والقاضى الذى حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى.

والقضاء يعنى الفَصْل فى نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤهَّل ، وعلى علم بالقانون الذى يحكم به ، ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُد أن يكون القاضى مُؤهّلاً ، ولو فى عُرْف المتنازعين ، ويمكن أن يكونوا جميعاً أميِّين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، لكنهم واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْل الحق والعدل فى حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويُحكّمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضى لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بينة على المدعى أن يُقدّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبينة تحتاج إلى سماع الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم فى القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل

---

(١) قضينا : أعلمنا وأخبرنا . قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا . وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٤٢] .

هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو في أثناء ذلك عُرْضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أنْ يُعمِّي عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكلماً يستميل القاضي ، فيحوِّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث في قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضي هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضي العدل الذي لا يحتاج إلى بيِّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّي عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً في قضاء قضاه النبي ﷺ ، وهل القضاة أفضل من رسول الله ؟!

ففي الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن[1] بحجته فأقضي له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار »[2] .

فردَّ ﷺ الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أنْ يراجعَ نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول ﷺ بشر يقضي كما يقضي البشر ، ولكن إنْ عمِّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمَّى على قضاء السماء .

---

(١) ألحن بحجته : أي أفطن لها وأجدل . واللحن : الفطنة . [لسان العرب مادة : لحن] .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

ولذلك يقول ﷺ فيمَنْ يستفتى شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب :

« استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ »[1] .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميِّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : ﴿فِى الْكِتَابِ.. (٤)﴾ [الإسراء]

أى : فى التوراة ، كتابهم الذى نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس فى كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أى : حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به فى التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على السنة الرسل ، أيُنفذونه وينصاعون له ، أم يخرجون عنه ويفسدون فى الأرض ؟

وإذا كان رسولهم ـ عليه السلام ـ قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا فى تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأنْ يُطيعوا أمره .

---

(١) عن وابصة بنْ معبد أن رسول الله ﷺ قال له : يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . أخرجه أحمد فى المسند (٤/٢٢٨) والدارمى فى سننه (٢/٢٤٦) .

وقوله تعالى :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..④﴾ [الإسراء]

جاءتْ هذه العبارة هكذا مُؤكَّدة باللام ، وهذا يعنى أن فى الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه ، فكأن الحق سبحانه يقول : ونفسى لتفسدن فى الأرض ، لأن القسَم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكَّداً ، لا يستطيع أحد الفكاك منه ، ففى هذا معنى القسَم ، وتكون هذه العبارة جواباً لـ « قضينا » ؛ لأن القسَم يجىء للتأكيد ، والتأكيد حاصل فى قوله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَا..④﴾ [الإسراء]

فما هو الإفساد ؟

الإفساد : أن تعمد إلى الصالح فى ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكُلُّ شىء فى الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركتَه ليؤدىَ غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخللْتَ به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التى خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مُقوِّمات حياتنا فى السماء والأرض والشمس والهواء .. إلخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل وأعدَّ لنا فى كَوْنه ما يُمكِّن الإنسان بعقله وطاقته أن يَزيدَ الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إنْ لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبْقِ الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فإما أنْ تحتفظَ بها على حالها فلا تطمسها ، وإما أنْ تزيدَ في صلاحها بأنْ تبنيَ حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخُّه في مواسير لتسهُل على الناس استعماله ، وغير ذلك من أوْجُه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

أي : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مُقوِّمات حياتكم ، فإنْ أحببتَ أنْ تُثْرى حياتك فأعمِلْ عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله في الكون ، فأنت لا تأتي بشيء من عندك ، فقط تُعمِل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثْرِي حياتك ، ويُوفّر لك الرفاهية والترقي .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملُوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من مَيْزات وفّرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا في عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد في الماديات كمَنْ أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوّثات ، كذلك يكون في المعنويات ، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه ، فكونُك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرِّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبنى إسرائيل :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..④﴾ [الإسراء]

وهل أفسد بنو إسرائيل فى الأرض مرتين فقط ؟

والله إنْ كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والأمر إذن هيِّن ، لكنهم أفسدوا فى الأرض إفساداً كثيراً متعدداً ، فلماذا قال تعالى : مرتين ؟

تحدَّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين[1] ، وفى أىِّ فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم فى حضْن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بنى إسرائيل ، فدلَّ ذلك على أن الإسلام تعدَّى إلى مناطق مُقدَّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قِبْلة للمسلمين ، ثم أُسْرِى برسول الله ﷺ إليه ، وبذلك دخل فى حَوْزة الإسلام ؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأوْلى أن يُفسِّروا هاتين المرتين على أنهما فى

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٢٣٩) آثاراً فى تفسير هذه الآية ، فقال :

- أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على بن أبى طالب قال : الأولى : قتل زكريا عليه الصلاة والسلام . والأخرى : قتل يحيى عليه السلام .

- وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفى قال : أفسدوا المرة الأولى ، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم . وأفسدوا المرة الثانية ، فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر .

حضن الإسلام ؛ لأنهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام ، ولا دَخْلَ للإسلام في إفسادهم السابق ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان الفساد مُطْلقاً . أي : قبل أن يأتي الإسلام فقد تعدَّد فسادهم ، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم البحر فرأوا جماعة يعكفون على عبادة العجل ، فقالوا لموسى - عليه السلام :

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

هل هناك فساد أكثر من أنْ قتلوا الأنبياء الذين جعلهم الله مُثُلاً تكوينية وأُسْوة سلوكية ، وحرّفوا كتاب الله ؟

والناظر في تحريف بني إسرائيل للتوراة يجد أنهم حرَّفوها من وجوه كثيرة وتحريفات متعددة ، فمن التوراة ما نسوه ، كما قال تعالى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

والذي لم ينسوْهُ لم يتركوه على حاله ، بل كتموا بعضه ، والذي لم يكتموه لم يتركوه على حاله ، بل حرَّفوه ، كما قال تعالى :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

ولم يقف الأمر بهم عند هذا النسيان والكتمان والتحريف ، بل تعدَّى إلى أن أتَوا بكلام من عند أنفسهم ، وقالوا هو من عند الله ، قال تعالى :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً..(٧٩)﴾ [البقرة]

فهل هناك إفساد فى منهج الله أعظم من هذا الإفساد ؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث فى قصة طالوت وجالوت فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ[1] لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا..(٢٤٦)﴾ [البقرة]

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصَّلوا منه ولم يقاتلوا .

ويرون أن الفساد الثانى قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم ، واتسعتْ رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيرات على أن الفسادَيْن سابقان للإسلام ، والأوْلى أن

---

(١) اختُلِف فى تحديد من هو هذا النبى على أقوال منها :

- إنه يوشع بن نون . قاله قتادة .
- إنه شمعون . قاله السدى .
- إنه شمويل ، قاله مجاهد ووهب بن منبه . ذكره ابن كثير فى التفسير (١/٣٠٠) .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية (١٠٥٦/٢) : « لا يعنينا ذلك ، لأن القرآن لا يذكر فى أى عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام » .

نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد فى هذا رَبْطاً لقصة بنى إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد ﷺ ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين فى المدينة كانوا يقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب ، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك ، وأنك صادق ، ويعرف علامتك ، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد ﷺ .

ويقول أحدهم[2] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، لأنه قد يشك فى نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك فى شخصية الرسول ﷺ لمَا قرأه فى كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ، لأنه ﷺ موصوف فى كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا

---

(١) قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة] .

(٢) هو : عبد الله بن سلام . قال له عمر : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/٢٥٧) للثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مُقدِّمات لبعثته ﷺ .

ومع ذلك :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

في المدينة أبرم رسول الله ﷺ معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفَّى لهم رسول الله ما وفَّوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم ، جاس[1] رسول الله ﷺ خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتَل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]

وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من يهود بني النضير ، وبني قَيْنقاع ، وبني قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُّ الآية القادمة يُؤيِّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

---

(١) جاسوا : ذهبوا وجاءوا في الأرض . وفي الصحاح : جاسوا خلال الديار أي : فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه . [لسان العرب ـ مادة : جوس] .